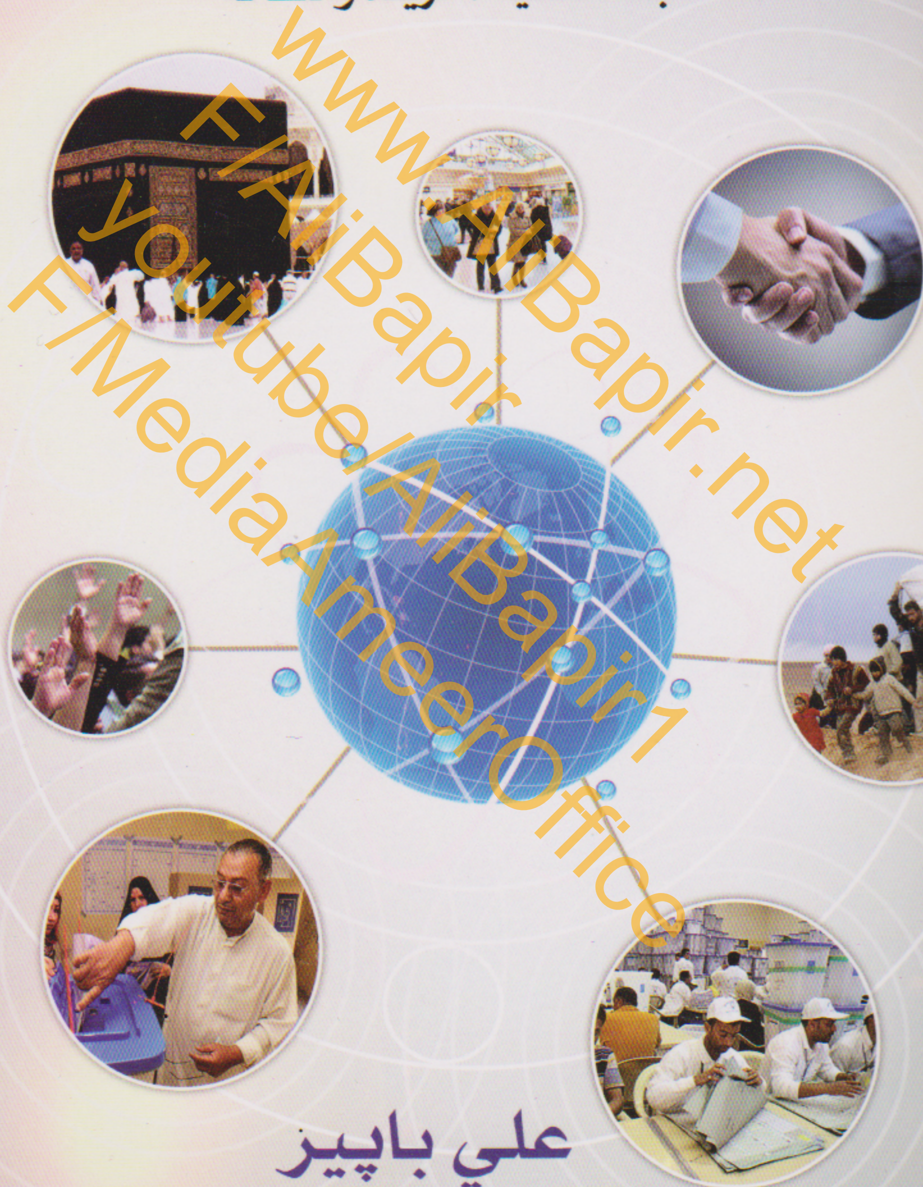
مسائل عصرية رائجة

الطبعة الثانية / مزيدة ومُنقَّحة



علي باپير

دار الحكمة
لندن

مسائل عصرية رائجة

التسامح و التعايش
حقوق الإنسان
الإرهاب
العولمة
العلمانية
الديمقراطية

الطبعة الثانية
مزيدة و مُنقَّحة
1435 هـ 2014 م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَـاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْـيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل 90)

الإهـداء

الـى الـذين لايخوضـون غمـار مسـألة حتـى يستكملوا فهمها على وجهها، وبعد ان يتم لهم فهمها، لا يُلْقون الكلام على عواهنه، وانما عمدتهم الدليل والتثبّت، ويبادرون بالعمل بالحق واستقبال الحقيقة كائناً ما كان مأتاها ومستقاها.

مقدمة الطبعة العربية الثانية

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله محمد وآله المهتدين بهداه

في هذه الطبعة الثانية أدخلنا التغييرات الآتية في كتاب: (مسائل عصرية رائجة):

أولاً: غيَّرنا وعدَّلْنا بعض العبارات بما رأيناه أنه أصح وأصوب، في أكثر من موضع من فصول الكتاب الخمسة.

ثانياً: أَضَفْنا فصلاً سادساً آخر الى فصول الكتاب الخمسة، فأصبحت فصول الكتاب ستة فصول، وعنوان الفصل المضاف: (أسس التسامح والتعايش في القرآن الكريم).

ثالثاً: أَضَفْنا ملحقين للفصل الثاني المخصص لبحث حقوق الإنسان وهما:

1- (الميثاق العالمي لحقوق الإنسان).

2- (الميثاق الإسلامي لحقوق الإنسان).

رابعاً: غيّرنا ترتيب الفصول وأصبح بالشكل التالي:

1- أسس التسامُحِ والتعايش في القرآن الكريم.

2- حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب.

3- الإرهاب في ميزان الشريعة.

4- عولمة الغرب وعالمية الإسلام.
5- العلمانية نظرة واقعية وتقييم شرعي.
6- الديمقراطية في ضوء العقل والشرع.

خامساً: صَلَّحنا الأخطاء المطبعية وغيرها، والتي كانت موجودة في الطبعة الأولى.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب قُرّاءَهُ الكرام، وأن يجعل ثواب ذلك في ميزان حسناتي، يوم لاينفع مال ولابنون الاّ من أتى الله بقلب سليم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله الاّ أنت، أستغفرك وأتوب اليك

9/رمضان/1435هـ
7/ تموز/2014 م
أربيل

تقديم المؤلِّف للطبعة العربية الأُولى

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام من الله تعالى على نبيِّه الأمين، محمَّد المبعوث رحمة للعالمين، وآله أجمعين من الصَّحب والأزواج والقرابة والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين.

أما بعد :

فهذا هو الكتاب الثاني لي بعد كتاب: (مَن هُم عُلماء الإسلام وما هي صِفاتُهم؟!) واللّذين ترجمهما الى العربية مشكوراً الأخ: (إحسان برهان الدين) فَجزاه الله خيراً وبارك فيه[1].

والذي أودُّ قوله هنا في هذا التقديم الموجز هو:

أنَّني على معرفة بما في المكتبة العربية –والحمدلله– من بحوث و دراسات كثيرة وَمتنوِّعة جيِّدة، حول تقييم النظريات والأفكار المستوردة وَتفْنيدِ ما فيها من باطل متصادم مع حقائق دين الله الحق و رسالته الخاتمة النازلة على قلب سيِّد المرسلين وخاتم النبيِّين محمد ﷺ، ولكن الذي دفعني لِتَلْبية اقتراح بعض الأخوة المخلصين بترجمة بعض كُتُبي الى اللغة العربية شيئان: أولهما، أرى بأن في كتبي بعض غناءٍ و إضافةٍ في المجالات التي أكتب فيها، وثانيهما: كي يطّلِعَ القارئون بلغة الضاد من الأخوة العرب وغيرهم على

[1] ثم ترجم لي كتاب آخر وهو: (طريق الصَّلاح والسَّير إلى الله: تزكية النَّفس في ضوء القرآن والسنَّة)، وطبع في (دار الحكمة) بلندن.

شئ من رؤى وأفكار وتجارب التيّار الإسـلامي في كوردسـتان تلـك البقعـة المزَّقة الأوصال وسط الوطن الإسلامي الجَريح!

هذا وبـالُّرغْم مـن أن الأخ المترجـم بَـذَلَ جهـداً كبيــراً في عملـه، ثـم راجعتُ الكتاب المترجم بنفسي، ولكن قلّما يمكن ترجمة ونقل كـلّ الأفكـار والرؤى من لغةٍ الى لغة أخرى، بالصورة التي تُرْضي المؤلِّف و تُقِنعُ القارئ.

وَحَسْبُنا أنَّنا بذلْنا ما في وُسعِنا وهذا جُهْدُ المُقِلّ.

سُبحانَكَ اللهم وَبِحَمدِكَ أشهد الاّ اله إلاّ أنتَ أستَغفِرُكَ وأتوب إليك.

18 جمادي الأولى 1428

2007/5/26

كوردستان العراق / أربيل

مُقدِّمة الطبعة الخامسة (الكردية)

الحمدلله حقَّ حمده والصلاة والسلام على عبده محمد وآلِهِ السّائرين عـلى دَرْبه والمنخرطين في سـلك حِزْبِهِ.

وبَعد:

فهذه هي الطبعة الخامسة لهذا الكتاب في غضون أقلَّ من أربـع سـنوات، وهذا يدلّ على حقيقتين مهمتين:

الأولى: أن التيار الإسلامي في كوردسـتان في حالـة نموٍّ مُطّـرِدٍ وخاصـة وسط الشريحة الأكثر حيوية و نشاطاً في مجتمعنا الكوردستاني، وهي شـريحة الشباب والطلبة من كلا الجنسين.

الثانيـة: أن التيـار العَلْمـانيَّ الـداعي الى النظريـات والأفكـار الغربيـة والشرقية والنَّأْي عن الإسلام بالرَّغْم من تَـبنيِّ كلتـا الإدارتـين الحـزبيتين في (هَوْلير) و (السليمانية) له، وتقديم الدّعم والتمويل له بِسَـخاءٍ بـالغ، لكنّـه يسير نحو التراجع والفشل الذّريع وأزمات مُسـتَفحَلة، ولَـيس بإمكـان أيـة قوة إنقاذه من مصيره المشؤوم الآيل اليه.

وَسـبب ذلـك هـو أن العلمانيـة وسـائر النظريـات والأيـدولوجيات المستوردة، نابعة مـن أرضـية مختلفـة تمـام الإخـتلاف عـن أرضـية مجتمعنـا، وبالتالي فهي لاتجد لها دوافع الوجـود وعوامـل البقـاء فينـا نحـن المسـلمين التابعين لكتاب الله وَسنة رسول الله ﷺ، لِذا فَلَنْ يُجْـديَ النَّصَـبُ والكـدُّ والبَذلُ في سـبيلها، ولا يرجع أصحابها في نهاية المطاف الاّ بِخُفَّيْ حنين.

أسـأل الله تعالى أن يُبارك في جهدي هـذا وَ يجْعَلُـهُ سـبباً لِتَبْصـير عـدد أكبر مِن شباب وَمُثَقّفي شعبنا، وأن يغفر لي عمّا جرى على لساني أو قَلَمي فيه مِن خَللٍ أو زللٍ.

علي باپيـر
14 شوال 1426
16 تشرين الثاني 2005م السليمانية

مقدمــة المتـرجــم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلـى آلـه وصـحبه ومـن والاه... وبعد: فـإن الإسـلام – ولاريـب – يمـرّ بمرحلـة مـن أَدق مراحلـه وأصعبها وأخطرها، ذلك ان الزمان عـاد كهيئتـه يـوم خلـق الله السـموات والأرض واستشرى العداء في طول العالم وعرضه لهذه الشرعة التي ارتضـاها الله سبحانه لعباده، ولقد اتخـذ العـداء أشـكالاً وصـوراً تَجـلُّ عـن الحصـر، تختلف باختلاف الزمان والمكان، تخفت حيناً وتشتدّ أَحايين أُخرى، وقد جاء كل هذا مصداقاً لغربة الإسلام التي أخـبر عنهـا المصـطفي ﷺ في الحـديث الذي بلغ حد التواتر عند بعض العلمـاء وهـو قولـه: ((بـدأ الإسـلام غريبـاً وسيعود – كما بدأ– غريبـاً، فطوبى للغرباء)) (رواه مسلم و غيره).

ولقد دلت تجارب التاريخ المتعاقبة، أن أهـل الإسـلام وأبنـاؤه الخلصـاء لايضعفون بالمحن، ولا يفتّ في عضـدهم الفـتن، نعـم قـد تضـعف نـأمتهم و تعصف رياح العذاب بهم، حتى ليخيّـل لمـن لا يسـتفيد مـن دروس التـاريخ انهم لن تقوم لهم قائمة أبداً، ولكن ذلك محض أباطيل وأسمار، إذ سـرعان مـا يستعيدون عافيتهم ويعوِّضون ركودهم بروح ملؤهـا الجـد والمثـابرة، ودون مَنْ يطرق الشكُّ قَلْبَهُ من هذا، كُتُبَ التاريخ والـتي حفلـت بـذكر مـا حـلّ بالمسلمين من مآسٍ في تاريخهم المديد، أَخصُّ بالـذكر الفواجـع الأليمـة الـتي لحقتهم على يد التتـار، ثم الحروب الصليبية التي كانت ما تفتـأ تنتهـي حملـة حتى تبدأ أُخرى، ناهيك عما جَرَّه القرن العشرين من ويلات على المسـلمين تشيب لها نواصي الأطفال في أغلب بقاع الأرض، وليس أدلّ على ذلك مـن محنة المسـلمين في البوسـنة والهرسـك حيـث أُقيمـت لهـم – منـذ انسـحاب

الجيوش العثمانية من البلقان – تسعة مذابح كانت آخرها في عهد ((ميلوسوفج))، وهذا لا يعدو ان يكون مثالاً، لأن الإِستقصاء – في هذه العُجالة – غير مقدور عليه.

ثم جاء زمان اتخذ فيه العداء صوراً جديدة، فالمعركة هذه المرة لاتدار بالأسلحة، وانما تدار بالأقلام والأفكار، فقد أصبح الإسلام يُقوَّل مالم يَقُلْ، ويحمّل مالا يحتمل، ويعرض ماهو دخيل عليه كأنه من صلبه وأساسه، ساعَدَ عَلى ذلك الجَهْلُ من قبل أبنائه و أعدائه على حد سواء، هذا يدفعه جهله الى الإنحراف والإِبتداع وعدم الأحساس بالمسؤولية، وذلك يدفعه الى العداء الكفرِ والضَّلال.

وفي خضمّ المستجدات الفكرية الحاصلة في العصر الحديث والمصطلحات التي طرأت على مجتمعنا وخصوصاً الوافدة منها من الغرب، استوجب ذلك بإلحاح أن يتصدى لتصحيح المفاهيم وتقويمها في ضوء الإسلام الغيورون من العلماء والمفكرين، وكان لطروء هذا الميدان الحساس، والذي لاتقلُّ خطورته عن الميدان الذي سبقه، مترتباته وآثاره الخطيرة أيضاً، اذ باتت الأفكار تُقحم في رأسك، والتصورات تدخل عليك البيت عنوة عن طريق وسائل الإِعلام المرئية والمسموعة والمقروءة. والحق ان الكتابة في هذا المضمار ليست جديدة، فلقد سبق لأعلام كبار ان كتبوا حول المصطلحات والأفكار الطارئة على المسلمين في العصر الحديث، فقد صنف الأستاذ عباس محمود العقاد كتاباً عن الديمقراطية، وألفَّ الدكتور مصطفي السباعى كتاباً عن الإِشتراكية في الإسلام! كما تناول الشيخ الأَزهري علي عبدالرازق بعض القضايا السياسية في كتابِ المردود عليه ((نظام الحكم في الإسلام)) وغيرهم كثير.

ولكن هؤلاء – مع الأسف الشديد كانوا مِمَّنْ أَخَذَ بأبصارهم وهج الحضارة الغربية وبريق المصطلحات الوافدة، فتحولوا الى مُرَقِّعِين لِلإِسلام! كأن الإسلام مجموعة عورات تعوز مَنْ يُرَقِّعُها، وكان قد مهد لهذا الإِنهزام الداخلي كتابات الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغاني، حيث بذلا جهدهما – وليتهما لم يفعلا – لتطويع الآيات القرآنية للنظريات الغربية الحديثة، فالشيخ محمد عبده مثلاً، كان يَمِيْلُ الى تأويل مالا يقتنع به الغربيّون لِيُقَرِّبه الى أفهامهم فقد كان يفسر ((حجارة من سجيل)) بأنها جراثيم الجدري، وكان يتكلف أشد التكلُّف في التضييق على تعدد الزوجات حتى يكاد يمنعه، وكذلك في الطلاق وقضايا أخرى كثيرة، وكان ذلك غَيْضاً من فيض السيئات التي أَفرزها المنهج الذي اُصطلح على تسميتها بالعقلانية، لكن جيلاً نشأ بعد هؤلاء، كانت همتهم مُحلّقة في فَضاء من العزة والأنفة والإِعتزاز بالإسلام، لقد كان الفارق بين الجيلين عظيماً، فالذين عاصروا بداية الهجمة العاتية للمفاهيم والتصورات المصطلحات الغربية، استسلموا لها وطوّعوا النصوص بما يوافق، أما الذين تلوهم من العلماء والمفكرين منذ منتصف القرن المنصرم ولاحقاً، فقد كانوا ينظرون الى كل ذلك من علوّ الإسلام فلا يرونها الا تخبطات بشرية، وآراء يشوبها النقص ولا يمكن مقارنتها بالوحي المنزَّل.

وربما كان الأستاذ الشهيد سيد قطب وشقيقه محمد قطب من أوائل من جسدوا هذا المسار بكتبهم الكثيرة التي ألَّفوها بهذا الصددوكثيرون جاؤوا بعدهما، لكنني اكتفي بالاشارة الى مؤلفات المؤرخ وَالمفكرالمصري (أَنور الجندي) حيث أَغنى المكتبة الإسلامية بكتبهِ النافعة في هذا المجال.

ويأتي كتاب الشيخ علي باپير هذا، والذي قمت بتعريبه ضمن سلسلة الكتابات التي تسعى الى تنوير الدرب أمام المسلمين، - وَقد أعيد طبعه لحدِّ الآن خمس مرّات باللغة الكردية- فقد تناول الشيخ – وهو علَم من أعلام كردستان المعروفين في ميدان العلم والعمل الحركي- جملة من المصطلحات التي اختلطت بحياة الناس وباتت تتحكم في أدق أمورهم في هذا العصر، وقد عالجها من زوايا متعددة بما يتناسب مع الأوضاع الراهنة في المنطقة والعالم، والحق ان الساحة الفكرية في كردستان والعراق أحوج ماتكون الى كُتُب كهذا، بسبب الخطورة التي تشكلها المعاني والمعطيات التي تفرزها مصطلحات من قبيل العولمة والإرهاب والديمقراطية والتفريعات المنبثقة منها من جهة، ومن جهة أخرى بسبب ندرة الكتّاب والموجهين الناصحين الذين يَحُولون دون وقوع المسلمين الى هاوية الأفكار والتصورات المتناقضة مع مقتضيات دينهم، إذ ان المرحلة التي نمر بها – كما أسلفت – بالغة الخطورة و تقتضي من المسلمين الثبات أمام هذه العاصفة الهوجاء، كما ان من آكد واجباتهم الشرعية أن يحددوا منها موقفهم، ويميزوا بين ما يتعارض منها مع الإسلام وما يتفق، وليس من عاصم- في خضمّ هذا العُباب المتلاطم- الا اللياذ بشرع الله تعالى والإحتماء بركنه الشديد وإلاّ (فقل يازلة القدم)

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

احسان برهان الدين
السليمانية 13 /4 /2006

تمهيد

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه وبعد...

أيّها القارئ العزيز!

إذا تأمل الإنسان في التأريخ البعيد والقريب للبشرية تتضح له سنن الله تبارك وتعالى التي وضعها لحياة الإنسان، تماماً كما تبدو جلية القوانين الكونية الفيزيائية والبيولوجية التي سنّها الله جلت قدرته للكائنات جميعاً. ولهذا يأمرنا الله تعالى في العديد من آيات القرآن بالتفكر والتدبر في الموجودات من حولنا والظواهر الطبيعية المتناثرة في هذا الكون الفسيح، حتى نستجلي سنن الله في الكون المطبوع، كما يقول تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ**﴾ (الأعراف – 185).

ويقول أيضاً: ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾ (الغاشية 17–20).

وفي التفكير في آثار الغابرين والتأمل في قصصهم لأخذ العبرة وتدبر سنن الله في حياة الإنسان، يقول تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأرض فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۞ هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ (آل عمران 137– 138).

واحدى سنن الله وَقوانينه التي تُرى في حياة الإنسـان والشـعوب، والـتي سبق الى ذكرها لأول مرة المؤرخ الألمعي (عبدالرحمن بن خلـدون) في كتابـه الرائع (المقدمة) هي: أن الشعوب المغلوبة مولعة بالإِقتداء بمن وضعوهم قيـد السـيطرة والإِحـتلال، حيـث يقـول: (فصـل: في أن المغلـوب مولـع أبـداً بالإِقتداء بالغالب في شعاره وَزيِّه ونحلتـه وسـائر أحوالـه وعوائـده) المقدمـة (116– 117)، ومع أن ما قاله (إبن خلـدون) لا يتطـرق اليـه الشـك في تصوري، إلاّ ان الشعوب المريدة للحياة والتي تتمتع بالعزم والإِرادة الصلبة، هم الذين لايرضخون ولا يستسلمون للسنن التي تلحـق بهـم الضـرر، بـل كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿نفِرُّ من قدرالله الى قـدر الله﴾[1] فهم يسعون بواسطة الأقدار التي في صالحهم، أن يتجنَّبـوا ويحمـوا أنفسـهم من الأقدار التي تضر بهم.

والذي أريد قولَه بعد هذا التمهيد هنا، هو أن شعبنا عمومـاً قـد وقـع – بنسبة ما – تحت تأثير أهل الكفر، كما هي حال باقي الشـعوب الإسـلامية، وهو بالتالى سعى – ويَسعى – أن يقلدهم ويمشي على آثـارهم، ابتـداءً مـن الملابس وانتهاءً بالتفكير والإعتقاد، كما أشار الى ذلك العلاّمة إبن خلـدون في معرض حديثه عن الشعوب المغلوبة.

فها نحن نرى في وضح النهار أن حشوداً من الدارسين المُعْتَبِرين أنفسـهم مـثقفين ومـتعلمين[2] لا يـترددون طرفـة عـين للإستسـلام الى المفـاهيم والتفسيرات الوافدة من أهل الكفروخصوصاً من الغربيين، سـواء كانـت في

---

(1) رواه البخاري:5729، ويحكى عن الشيخ عبدالقادر الكيلاني ما يقارب هذا المعنى..

(2) وعندنا – بفضل الله تعالى – أناس كثيرون لا يستسلمون لمثل هذه المفاهيم والأفكار.

مجال الفكر وَالإِعتقاد، أو غيرهما من المجالات، حتى وَإِن كانت تلـك الآراء والتفسيرات وليدة واقـع القـوم وظـروفهم الـتي تختلـف عـن ظروفنـا كـل الإختلاف، وإن العبد الفقير عازم – بالإِلتجاء الى قدر آخـر مـن أقـدار الله تعالى– وهو سنة تغيير النفس لتغيير الواقع، والـتي أشـار إليهـا قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعـد– 11) .– نعـم إنَّـني عازمٌ بالإِستناد الى تلك السنة أن أدُلَّ مجتمعي وقومي علـى طريـق يخلِّصـهم من داءِ التقليد وإِعجاب المغلوب بالغالب، وذلك لأنَّني اعتبر نفسـي مخلصـاً لقومي، وانَّني لعلى يقين ان مجتمعنا – وأي مجتمع آخر – قد تنتهي به الحال الى الضياع والإِضمحلال من جرّاء التقليد والتيـه والنظـر الى الأعـداء بعـين الإِعظام، وخصوصاً اذا كان الطرف المُقلّد وَالمولَع بِهِ، هي الحضارة الأوربيـة المتدنية الى مستوى الحيوان!

وجدير بالذكر ان عالم الإجتماع المسلم (ابن خلـدون) قـد عَـدَّ ظـاهرة اندحار الشعوب المقلِّدة أيضاً سنة من سنن الله تعالى في حياة البشر[1] ، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف – إِضـافةً الى خطـواتي الأخـرى في هـذا المجـال – رأيت مـن واجبـي كتابـة سلسـلة مـن المواضـيع، الـتي سـبق وان ألقيتهـا كمحاضرات، تحت عنوان ((قضايا معاصرة)) وكل موضوع بعون الله تعـالى سَيُكَرَّسُ لبحث إِحدى المسائل السائدة في هذا العصـر، والـتي يكثـر عنهـا الحديث والجدال من جميع شرائح المجتمع.

والذي قادني الى اختيار مثل هذه المسائل، هو أن أياً منهـا لَيْسَـتْ نابعـة من واقع قومنـا ومجتمعنـا، وهـبْ ان القضـايا الـتي اضـطر لهـا الغربيـون في

---

(1) أنظر (المقدمة)، ص (117 – 118)، (فصل: في أن الأمة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها، أسرع إليها الفناء) .

ظروف يكتنفها الإضطراب والتخلخل، قد أثمرت في يوم من الأيام خيراً لمبتدعيها ومبتكريها، فان مجتمعنا لَيْسَ في حاجة تضطرهُ الى ذلك، وَكذلك لا تحِلُّ تلك المسائل من مشاكله شيئاً، بل لو وجد فيها خيرٌ قليل فهي تتضَمَّن شروراً كثيرة.

نعم ان كلاً من: التعايش والتسامح وحقوق الإنسان(1) والعولمة والعلمانية، والديمقراطية، والتي سيشكل كل منها حلقة من حلقات هذه السلسلة، لاتمت بِصلَةٍ الى واقع هذا المجتمع في قليل ولا كثير، وعلى فرض ان تكون هذه المسائل تمثل علاجاً لأناس آخرين ومجتمع آخر، فليس من المعقول ان نبادر الى اللياذ بها وتَبَنيِّها، اذ علاوة على عدم جدوى مثل هذه الأدوية – التي ليست في الحقيقة إلاّ أدواءً – فلا يستبعد ان يؤدي الإستعمال الجزائي لها إلى كوارث لا تحمد عقباها! على أمل أن تساهم الكتابة في هذه المواضيع في إضاءة الدرب للكثير من أبناء هذا المجتمع ونجاتهم او الحفاظ عليهم من داء التقليد القاتل كي لاينظروا بأعين غيرهم، ولا يسمعوا بآذان غيرهم،ولا يفكروا بعقول غيرهم، وخصوصاً أناس غارقين في التيه الى أذقانهم كالغربيين.

فهم بالرغم من التطور التكنولوجي والمادي وإشباع الجانب الحيواني المتمثل في الغرائز، الا ان الذي يدقق النظر ويعاين وضع القوم من منظار الإِيمان، بتجرد دون انحياز، يتبين له بما لا يدع مجالاً للريب، ان تلك

(1) اي بالمفهوم الذي يستعمله الغرب كما سنبين ذلك لاحقاً، وليس على إطلاقه، ذلك ان مصطلح (حقوق الإنسان) مصطلح جذاب يأخذ القلوب، اذا لم يكن كلمة مفرغة من معناها.

المجتمعات تعيش في فراغ و فساد وضلال بعيد، ويعلم يقيناً انهم على شفا جرف هار، وأَختتم التمهيد لهذه السلسلة بهاتين الملاحظتين:

الأولى/ مِمّا لا جدال فيه ان كل كلمة أو مصطلح، وخصوصاً إذا ما استحال إلى رمز أو عنوان للمسائل الهامة والطرائق والنظريات الكبرى، لابد من النظر إلى جذورها والإستماع إلى من كانوا وراء ظهورها لأول مرة، لا ان نخترع لها من عند أنفسنا معاني تتَلائم مع أهوائنا ورغباتنا، لأننا في هذه الحال سنكون عُرضة للأخطاء والتخبط.

الثانية/ من المستهجن أن نسارع – دون تحقيق دقيق وعميق في ديننا وتراثنا وثقافتنا وواقعنا، مدفوعين بالعاطفة العمياء– الى تَبنيِّ الكلمات والمصطلحات والنظريات الغربية التي نشأت في واقع مختلف عن واقعنا، فهذا شبيه – كما أسلفنا – بمريض يستعمل دواء مريض آخر، أو بمن يلتجيء الى هذا وذاك ولا يعلم ان ما يطلبه موجود في بيته، والله سبحان وتعالى هو المسؤول أن يُكسب هذا النتاج من البركة ما يجعله محققاً للأهداف التي كُتب من أجلها.

25 / رجب / 1423 هـ
2 / 10 / 2002 أحمداوا

تنبيهات ثـلاثة

1- إبتداء كنت عازماً على طبع كل حلقة من حلقات هذه السلسـلة علـى حدة، ثم آل رأيي الى جمع المواضيع الستة وطبعها في كتاب معاً، لـذلك يلاحظ استعمالي لكلمة السلسلة لجملة البحوث والحلقة لآحادها.

2- كُلُّ موضوع من موضوعات هـذه السلسـلة كـان في الأصـل نـدوة أو محاضرة، لِذا يطغى عليها أسـلوب الخطـاب والحـديث، ولم أجـد داعيـاً لتغيير ذلك، لهذا وجب التنبيه.

3- ان كلاً من المواضيع التي تحولت الى رسائل هنا، قد جـرت فيهـا أسـئلة ومداخلات من قبل الحضور، ولم نر ضـرورة تثبيـت تلـك المـداخلات، وما كان منها متضمناً لجديد قُيِّدَتْ أثناء كتابة هـذه المحاضـرات، ونحـن نشكر جميع أولئك المشاركين على تلك المداخلات.

الحلقة الأولى

أُســس التسامح و التعايش في القرآن الكريم

تمـهـيد

من الجَلـيِّ أن المجتمـع النـاجح الناضـج، هوذلـك المجتمـع الـذي تعـيش مكوِّناتهُ – بمختلف أديانهم و أفكارهم – و شرائِحهُ، بل جميع أفراده، فيمـا بينهم متسـامحين متعـاونينَ، و يتعـاملون فيمـا بينـهم علـى أسـاس العـدل و المساواة و الإِحترام المتبادل.

وههنا نتساءَلُ:

هل في وسع الإِسلام أَن يُبنى علـى أساسـه هكـذا مجتمـع، ومـا الـدليل لإِثبات الجواب بالإِيجاب؟!

نقول: الجواب شيئان:

أولاً: الواقع التأريخي للدولة الإسلامية على مدى أكثر مـن ثلاثـة عشـر قرناً، إذ عاش المسـلمون و غيرهـم مـن اليهـود و النصـارى و المـجوس و البوذيين و الصابئة و غيرهم جنباً الى جنب في ظلِّ الدولة الإِسلامية ولم يَضِقِ المسلمون المتمسِّكون بالقرآن و الإِسلام، ذَرْعاً في يوم من الأيام بغيرهم مـن أهل الديانات الأخـرى، كمـا هـو معلـوم للقاصـي و الـدّاني المطلّـع علـى التأريخ.

ثانياً: تضمُّن القـرآن لجميـع الأُسـس الضـرورية لبنـاء مجتمـع متعـدد (Plural) ناجح متعاون متضامن(1).

(1) جديرُ بالذكر أَنني بحثت هذا الموضوع و المهم تفصيلاً في كتابي: (الإِسلام كما يتجلى في كتاب الله) وخصَّصت له الباب الرابع المعنون: (الإِسلام: نظرة سديدة تجاه الناس و تعامل صحيح معهم) كلّه، و الذي يحتوي عليه المجلد الثامن.

و أما ماهي تلك الأسس التي يقوم عليها بنيان هكذا مجتمع؟ فهو موضوع حلقتنا هذه بإِذن الله تعالى.

وبدءاً أقول:

بما أن الله تعالى أنزل كتابه العظيم على نَبِيِّه الخاتم الكريم ﷺ ليكون آخر نسخةٍ من هدايته للإِنس و الجن، الى أن تُطوى صَفْحة هذه الحياة الدنيا، إذن لابدَّ أن يتضمَّن كلّ الأسس الضرورية لقيام مجتمع متعدّد ناجح، إِذ غير هذا لا يليق بكرم الله الكريم و حكمته و رحمته.

وقد قال النبيُّ الخاتم ﷺ بهذ الصَّدد، مُعَرِّفاً بدين الله الحق الذي جاءَ للبشر كلِّهم: (أحبُّ الدين الى الله، الحنيفية السَّمْحة) رواه البخاري في الأدب المفرد و رواه أحمد و غيرهما.

والحنيفية من (الحَنَفِ) وهو المَيْلُ من الباطل كلِّه الى الحق، و (السَّمْحَة) من السَّمح ومنه السَّماحة، وهي بمعنى (اليُسْر والعطاء والسَّخاءِ و الموافقة و الإِنسجام) (1)

و بالتالي يؤكدِّ رسول الله بأن التديُّن المحبوب المرضيَّ لله تعالى هو الذي يتكون من شِقّين:

الأول: التوحيد الخالص و العبادة الخالصة لله تعالى، إذ هذا هو المقصود الأساس بالحنيف من الدِّين، و الحنيفية من المِلَّة و الطريقة.

الثاني: السّماحة و الأُلْفَة و اليسر و التفاهم و التوافق مع الناس.

(1) أنظر: مختار الصّحاح، ص 151 و ص280، وانظر: المصباح المنير للفيومي، ص 83 و ص150.

وغنيٌّ عن البيان أنه ليس المقصود بالسماحة و الألفة و التوافق مع الناس: التنازل عن الثوابت الشرعية و التخلِّي عنها! اذ المبادئ و الثوابت الشرعية هي التي تجعل المسلمين يتسامحون مع غيرهم و يتآلفون و ينسجمون، في إِطار تحقيق المصالح المشتركة والأهداف الكبرى للمجتمع الإِسلامي.

هذا، وأنا على علمٍ كم أصاب الإِسلامَ و المسلمين من التَشوُّهِ في هذا العصر، في المجال المذكور، من جراء عوامل كثيرة، أبرزها: التصرُّفات الإِفراطية الخارجة عن حدود الشرع، لبعض المجموعات الإِسلامية التي تتبنّ العنف و الشدّة على طول الخط، لإِصلاح المجتمعات الإِسلامية و تغييرها – بزعمهم–، ولهذا رأيت لِزاماً عليَّ تجلية موقف القرآن الكريم في هذا المجال، كي لا يُتَّهم الإِسلام و جمهرة المسلمين الرافضين لتلك التصرُّفات الإِفراطية الهوجاء ظلماً و زوراً.

وبعد التأمُّلِ في كتاب الله المبارك (1)تمكَّنْتُ من استنباط بل اقتباس هذه الأسس الخمسة عشر، والتي أراها كافيةً وافية لقيام مجتمع متعدِّد (Plural) ناجح متسامح متعاون على أساسها:

(1) أخَذْتُ هذه الأسس من كتابي: (قضايا سياسية معاصرة في ضوء العقل و الوحي) بشئ من التصرُّف والإِضافة و الحذف.

1- الله سبحانه و تعالى هو وحده الخالق و الرب و المالكُ للعالمين:

إذ يقرأ المسلمون يومياً في الصلوات الخمس المفروضة عليهم من سورة الفاتحة المباركة: (الحمدلله رب العالمين) الفاتحة -2-.

وسواء كان المقصود ب(العالمين) هو عالم البشر فقط بكلِّ أجياله المتعاقبة، أو عوالم الملائكة و البشر و الجن و الحيوان و النَّبات و الجماد، يشعر المسلمون - في ضوء هذه الآية المباركة- أن الله كما أنه خالقهم هم وربهم و مالكهم و إلههم، كذلك هو ذاته خالق غيرهم و ربهم و مالكهم و إلههم، وأنه لا إمتياز لأحد - أياً كان- على غيره في هذا المجال، عكس ما تَدَّعيه اليهود في(العهد القديم) و (التلمود) بأن (يَهْوى) - أي الله تعالى - هو ربُّ اليهود وحدهم و لا يهتم الاّ بهم، و أنه لم يخلقْ غيرهم من البشر الاّ لخدمتهم، اذ هم (شعب الله المختار)!!

ولا شك أن المسلمين الذين يتلون في كتاب الله الخاتم:

1- (يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم و الذين من قبلكم لعلكم تتقون) البقرة-2-

2- (.. اللهُ ربُّنا وربُّكُم لَنَآ أَعمالُنَا وَلَكُم أَعمالُكُم..) الشورى -15-

3- (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الجاثية -36 , 37-

سيشعرون تلقائياً بالقرب من غيرهم وقُربِ غيرهم منهم، أياً كانوا وأينما كانوا، من حيث كونهم بشراً مخلوقين و مملوكين و مربوبين و مرزوقين لخالق و رب و مالك و رازق واحد، أوجدهم جميعاً و استخلفهم على هذه الأرض لِيُمضوا هذه الحياة المؤقتة الإِبتلائية معاً، كما قال تعالى:

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) الأعراف -10-.

أجل إنَّ هذا الشعور يجعل المسلمين، بَلْهَ لا يَنْجَفِلون عن التعامل مع غير المسلمين، أياً كان دينهم و اتجاههم، بل و يجعلهم مندفعين الى التفاعل الإِيجابيِّ البنّاء والتعاون على البرِّ و التقوى، مع كلِّ أضاف الناس سواء كانوا داخل إِطار المجتمع أو خارجَهُ.

2- البشرية كلّها أسرة واحدة:

كما قال عزَّ من قائل: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) الحجرات -13-.

وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) النساء -1-

ومن الواضح أن إِدراك هذه الحقيقة يُشْعِرِ المسلمين بوحدة النَّسب و الأصل بينهم و بين سائر الناس، أياً كان دينهم و مسلكهم، وهذا هو الذي جعل علياً بن أبي طالب ﷺ يقول لأحد ولاته-وهو الأشتر النَّخعي- موجَّهاً إِياهِ في مجال التعامل مع الناس: (الناس إمّا أَخٌ لك في الدين وإمّا نظيرٌ لك في الخلق)[1]، وأنا كثيراً ما أقول لمن يزورني من غير المسلمين من أهل الكتاب و غيرهم:

[1] أنظر: نهج البلاغة، ص333-348، حيث أورد وصيَّة علي ﷺ وعهده إلى واليه (الأشتر النَّخعي) لما ولاّه على مصر.

﴿نحن و إياكم كلّنا نلتقي في النَّسب البعيد، إذ كلّنا أولاد آدم و حـواء عليهما السلام، و نَنْتَمي الى أسرة واحدة﴾.

وهذه الحقيقة التي يُصَرِّحُ بها كتاب الله المبارك، وان أصبحت في عصرنا هذا من البدهيّات –ولو نظرياً–، لكـن كانـت زمـن نـزول القـرآن، يَـدُور حولها أخذ وردّ كثير، سواء في المجتمع العربي القبلِّي، أو حتى اليونان و الهند و الصيِّن، و تقسيم أفلاطون المجتمع اليوناني الى ثلاثة أقسام مُشبِّهاً كلَّ قسم مـنهم بنـوع مـن المعـادن(1)، كالـذهب و الفضّـة والحديـد، في (جمهوريـة أفلاطون) ممّا لاَ يخفى على أَحد!

وقد ذكر المفسِّرون في سبب نزول الآية (13) مـن (الحجـرات) القصـة الآتية:

﴿لما كان يوم الفتح أَمر رسولُ الله ﷺ بلالاً فَصَعِدَ على ظهـر الكعبـة فأذَّنَ و أراد أن يُذِلّ المشـركين بـذلك، فَلَمَّـا أَذَّن، قـال عتـاب بـن أسـيد: الحمدلله الذي قبض أسيداً قبل اليوم، وقال الحارث بـن هشـام: أَمـا وَجَـدَ محمدٌ غير هذا الغراب الأسود مُؤَذِّناً؟! وقال سهيل بن عمـرو: إنْ يكـره الله شيئاً يُغَيِّرْه، وقال أبو سفيان: أما أنا فـلا أقـول شـيئاً، فـإني إنْ قلـت شـيئاً لتَشهدنَّ عليَّ السماءُ و لَتُخبِرنَّ، فنزلـت هـذة الآيـة: (يَـا أَيُّهَـا النّـاسُ إِنّـا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...)﴾[2]

(1) وقول رسول الله ﷺ: (تجدون الناس معادن كمعادن الذهب و الفضة فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) متفق عليه، إنما يراد به -كما هو واضح في نصِّ الحديث- تنوع خصالهم وليس التقسيم الطبقي الأفلاطوني!.

[2] أنظر: أسباب النزول للواحدي: 224، و أنظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ص 1335، وأنظر الإستيعاب في بيان الأسباب، ج3، ص285، إذ قال المؤلفان: أخرجه البيهقي في

وفي قوله تعالى: (واتقوا الله الذي تساءَلون بـه و الأرحـام) بعـد قولـه: (ياأيها الناس اتقـوا ربكـم الـذي خلقكـم مـن نفـس واحـدة و خلـق منهـا زوجها..) إِشارة واضحة الى أن البشرية كُلّها بينها قرابة و رحم واحـدة، و هي مأمورة بِوَصْلها و الحذر من قطعها.

3- كلُّ البشر خُلِقوا لحكمة واحدة، وهي العبادة لله تعالى:
قال سبحانه و تعالى: (وما خلقت الجِنَّ و الإِنس الاّ ليعبدون) الـذاريات -56-.

كما نرى: حَصَرَ الله تبارك و تعالى حكمتـه في إيجـاد الجـن و الإِنـس في قيامهم بعبادة الله بـالمعنى الشـامل لكلمـة (العبـادة) و الـذي يَتَّسِـعُ لجميـع الأنشطة الفكرية و القلبية و القولية و الفعلية التي يقوم بهـا الـثقلان، ومـن الواضح أن العبـادة لله الأحـد، تتمثّـل في الإِلتـزام بدينـه القـويم و شـريعته السمحاء على المستويين الفردي و الجماعي، وههنا يرِد سؤال:
أو ليس عَدَمُ القيام بعبادة الله و بالتالي عَدَمُ الإِلتزام بشريعته، يعني عـدم تحقيق الحكمة التي خلق الله الثقلين من أجلها؟! ثـم أوَ لا يُعطـي هـذا مُـبرِّراً للمسلمين بمضادَّة و معاداة غير المسلمين، الذين لا يحقِّقون حكمة وجـودهم ولا يلتزمون بشريعة ربِّهم؟!
نقول: كلاّ، ليس عدم قيام غير المسلمين بعبادة الله أو قيامهم بها بصورة غير صحيحة، وعدم التزامهم بشرعته، مبرِّراً لمعاداتهم و مقـاتلتهم مـن قبـل

(دلائل النبوة)(79/5) بسند صحيح إلى عبدالرزاق وليس فيه ذكر لسبب النزول، قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد.

المسلمين، و ذلك لأن محاسبة العباد و محاكمتهم هـي حصـراً حـق الله تعـالى وحده، وليس للناس فيها أدنى نصيب، كما سنشير اليه عند تطرُّقنا للأساس الرابع ، ونتناوله خصيصاً عند حديثنا عن الأساس السادس.

4- حياة الدنيا مَحَلُّ الإبتلاءِ، وليس الثواب و العقاب:

صرَّح كتاب الله الحكيم بهذه الحقيقة في مواضع كثيرة، منها:

1- (إنا جعلنها ما على الأرض زينـة لهـا لنبلـوهم أيهـم أحسـن عمـلاً) الكهف -8-.

2- (الذي خلق الموت و الحياة ليبلوكم أيكم أحين عمـلاً وهـو العزيـز الغفور) الملك -2-.

3- (وهو الذي خلق السموات و الأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً..)هود-7-.

إذن: ليست الكرة الأرضية وحدها، بل الكون كلّه بمثابة قاعـة إمتحـان للأنـس و الجـن، وبَـدَهيٌّ أن الطالـب الـذي يُـراد إمتحانُـهُ و يـدخل قاعـةً الإمتحان، يجب أن تُوفَّر لة كل المستلزمات من القلـم و الأوراق، و الوقـت الكافي، ثم تُقَدَّم له الأسئلة و تعطى له حرية الإِجابة و كيفية الإِجابة.. الخ.

وكذلك الناس في هذه الحياة الإِبتلائية أُعطوا كامـل الحريـة، كمـا قـال سبحانه و تعالى:

(وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فلْيَكفر..) (١) الكهف-29-.

وبناءً عليه فبإمكاننا القول:

إن الله تعالى مَنَحَ الناس من حيث الإِرادة الحرة، حَقَّ اختيار الكفر وإِن أوجب عليهم الإِيمان شرعاً، ولكن لم يضغط عليهم ولم يُجبرهم على الإِيمان، بل لا يحصل الإِيمان أصلاً بالإِكراه و الإِجبار!

وسَنَقِفُ لاحقاً عند الحديث عن (عالمية الإِسلام و عولمة الغرب) وقفة طويلة أمامَ قوله تعالى، في قصةذي القرنين: (..قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) الكهف-86، 87، 88-.

إذْ نرى أن ذا القرنين ذلك الملك الذي يذكره سبحانه و تعالى في مقام الثناء، بعد أن يطلق الله الحكيم يدَه في مجال الحكم عقوبة للظالمين وإثابة المحسنين، يوضِّح منهاجهُ السياسي بقوله:

(أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)

---

(1) قال بعض المفسرين بأن قوله تعالى: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) جاءَ في معرِض تهديد الكفار بعذاب الأخرة! وأنا أقول: 1- ان تهديد الكفار بعذاب الأخرة لا يتنافي مع كونهم أحراراً لإختيار الإيمان أو الكفر، طالما أنه لايوجَد عقابٌ دنيوي بسبب إختيار الكفر. 2- قول تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) يونس-99-، واضح الدلالة على أن الله تعالى أعطى كامل الحرية للناس في مجال إختيار الإيمان أو الكفر، إذ يُنكِرُ سبحانه على رسوله الأكرم ونبيِّه الخاتم قيامَهُ بإكراه الناس على الإيمان!!

إذْ نراه يُقارِنُ بين (مَنْ ظَلَم) و (مَن آمن وعَمِل صالحاً) وليس بين (من كفر) و (من آمن)!

وهذا يعني أن (ذا القرنين) إنّما يعاقب الناس على الظلم و ليس على الكفر، كما أنه يكافئهم على الإيمان، وسبب هذا:

أولاً: الله سبحانه و تعالى مَنَح حرية الكفر و عدم الإيمان للناس من أَجل ابتلائه إيّاهم، كما قال: (إنا هديناه السبيل إِماّ شاكراً وإِما كفوراً) الإنسان –3–، وليس لغيره سَلْب ذلك الحق منهم.

ثانياً: بإمكان الناس التعايش بعضهم مع بعض بالإيمان و الكفر، ولكن الظلم مانع من استدامة التعايش، ولهذا قيل بحق: (قد يدومُ الملك مع الكفر ولا يدوم مع الظلم).

5– قسَّم الله الحكيم الناس بإرادته، الى أهل الإيمان و أهل الكفر:

وهذا أساس مهم آخر من أسس التعايش و التسامح بين المسلمين و غيرهم، في كتاب الله المبارك، كما قال تعالى:

1– (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن و الله بما تعملون بصير) التغابن–2–.

2– (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. الا من رحم ربك و لذلك خلقهم..) (هود118،119)

واضح من هذه الآيات و أمثالها أن الله تعالى اقتضت مشيئته الحكيمة أن يجعل الناس مختارين أحراراً في مجال الإيمان و الكفر، ومن ثم ينقسمون بإرادتهم الى قسمين: أهل الكفر، و أهل الإيمان.

أي إنَّ الله تعالى لم يجبرهم على الكفر أو الإيمان بل خيَّرهم –من حيث الإرادة لا من حيث الشرع– بينهما و أعطاهما إرادة حُرة يختارون أيَّهماشاؤوا: الإيمان أو الكفر.

ومعلوم أن هذا لا يقتضي التسوية بين الكفر و الإيمان، إذ الله تعالى يحب الشكر والإيمان و يُبْغِضُ الكُفر و الكُفران، كما قال:

(.. ولا يرضى لعباده الكفر و أنْ تشكروا يَرضَه لكم..) الزمر–7–، ولكنَّ الله تعالى –كي يتم الإبتلاء– خيَّر الناس من حيث الإرادة و الإختيار بين الكفر و الإيمان، ولم يُلزِمهم أحدهما ولم يُجْبِرهم عليه، ولولا أن الله تعالى شاء أن يُخيِّر الناس بين الكفر و الإيمان، و يُعطيهم حرِّية إختيار أحدهما، لما كان في وسعهم الاّ الإيمان المرضيَّ لله تعالى، مثلهم في ذلك مثل الملائكة الذين: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون﴾ التحريم –6–.

هذا وقد فسَّر بعض المفسِّرين قوله تعالى:(ولذلك خلقهم) بعد قوله: (ولا يزالون مختلفين) بقولهم: (وللإختلاف خلقهم)، كما قال ﴿القرطبي﴾:

﴿قال الحسن ومقاتل وعطاء ويَمان: الإشارة للإختلاف، أي: وللإختلاف خلقهم﴾ (1)

(1) الجامع لأحكام القرآن، ج9ص94.

وقال بعضهم: إِن المقصود بـ(ولذلك) هو أن الله تعالى خلقهم ليرحمهم اذ قوله تعالى:(إلاّ من رحم ربك) هـو أقـرب المـذكورين، ولكـن يبـدو لـي أن الأول أولى بالصـواب، إذ هـو الواقـع المتحقـق، اذ النـاس مختلفـون أيُّمـا اختلاف، وليس كلّهم مرحومين و مستحقين للرحمة الرّبانية.

6- جعل الله سبحانه و تعالى ثواب الإيمان و الإحسان، وعقاب الكفر و العصيان في الإخرة:

وهذا أيضاً أساس مهم آخر من الأسس التي يَتَضمَّنها كتاب الله الحكيم، و التي على أساسها يمكن للمجتمع أن يعيش بمختلف مكوِّناته مـن المسـلمين و غيرهم بوئام و تسامح و تضامن.

وهناك آيات كثيرة مصرِّحة بهذه الحقيقة التي جعلناهـا عنوانـاً للأسـاس السادس من أسس التسامح و التعايش، منها:

1- (وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ. اللَّـهُ يَحْكُـمُ بَيْـنَكُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)الحج -69،68-.

2- (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّـذِينَ هَـادُوا وَالصَّـابِئِينَ وَالنَّصَـارَى وَالْمَجُـوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّ اللَّـهَ عَلَـى كُـلِّ شَـيْءٍ شَهِيدٌ) الحج-17-.

3- (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)الرَّعد-40-.

وجَليٌّ أن هذا الأساس عامِلُ مهمٌ جـداً لجعـل المسـلمين يتسـامحون مـع غيرهـم في إطـار المجتمـع، و يتعايشـون و يتعـاونون معهـم لتحقيـق المصـالح المشتركة، كما أمرهم الله تبارك و تعـالى: (وتعـاونوا علـى الـبرِّ و التقـوى) المائدة-2-.

وذلك لأن الذي يجعل الإِنسان المتديِّن يضيق ذَرعاً بكفر غيره وفجوره، هو شعوره بأنه مسؤول عنه، أو بأن له حق التدخل في عقيدته و خصوصياته، كما حدث هذا في المجتمعات النصرانية في القرون الوسطى من قبل البابوات و القساوسة ضدَّ المفكِّرين و المكتشفين، اذ تصدّوا لهم ولأفكارهم و آرائهم الجديدة المناوئة للكنيسةِ و طقوسها و أفكارها، تعذيباً و قتلاً و حرقاً! (1)

7- الإنسان مكرَّم عند الله تعالى:

كما قال الله تبارك و تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾الإسراء-70-، ومن الجليِّ أن هذا التكريم الربّاني للبشر عام يعمُّ جميع بني آدم ذكورهم وإناثهم، أياً كان دينهم و معتقدهم، و هذا ما يَدُلُّ عليه لفظ (بني آدم) إذ الناس كلهم بنو آدم، مؤمنهم و كافرهم، وكذلك يدل عليه كل من قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وقوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، ولذلك لشمول: (وَحَمَلْنَاهُمْ) و (وَرَزَقْنَاهُمْ) و (وَفَضَّلْنَاهُمْ) لكل البشر، إذ كل البشر (محمول)و (مرزوق) و (مُفضّل) من عند الله الكريمتبارك وتعالى، اذاً: فتكريمُهُ سبحانه كذلك عام شمل به جميعهم من غير استثناء.

وهذا التكريم و التفضيل الرّباني للبشر يَتَجَسَّد في أمور كثيرة، منها:

أولاً: جعل الله تعالى الإِنسان خليفةً في الأرض:

---

(1) وممَّن أُحرق حياً من قبل سلطات الكنيسة: (جيوردانو برونو) و (جيوفروي فالية) و (بومبو نيو راستيكو)و (بارثولوميوليجات) و (إدوارد وايتمان)، أنظر: (الإِلحاد في الغرب) رمسيس عوض، ص 47-49، و (تأريخ الفلسفة الحديثة) يوسف كرم، ص34، و (كتب غيرت العالم) روبرت داونز، ص225-232، وأنظر: العلمانيون والقرآن الكريم، ص251، د.إدريس الطّعان.

كما قال سبحانه و تعالى: (واذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة...) البقرة-30-.

وقال تعالى: (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض..) فاطر-39-.

وقال: (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم..)يونس-14-.

وقال: (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض و رفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم..) الأنعام-165-.

ومعنى استخلاف الله للبشر: أنه سبحانه و تعالى أعطاهم إرادة جزئية حرة، و أطلق يدهم يَتصرَّفون في الأرض كما يشاؤون، إصلاحاً على أساس العلم و العدل - وهو المرضي المحبوب عند الله تعالى - أو فساداً على أساس الجهل و الظلم - وهو المرفوض المبغوض لله تعالى -.

ثانياً: تحميل الله تعالى الأمانة التي عجزت السموات و الأرض و الجبال عنها للإنسان:

كما قال تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) الأحزاب-72-.

وقد اختلف المفسرون حول المقصود ب(الأمانة) في هذه الآية، لكن الذي استقر عليه رأيي في هذا المجال، هو أن المقصود بها: الإرادة الحرة التي يمتلكها الإنسان، وينفرد بها من بين المخلوقات جميعاً، وهي نفسها التي أَهَّلَت الإنسان لخلافة الله تعالى في الأرض.

ثالثاً: خلق الله الإنسان في أحسن تقويم:

كما قال عزوجل: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) التين -4-، ويشمل مفهوم كلمة (التقويم) كلا جانبي الإنسان الجسمي و الروحي،

فالإِنسان يمتاز بخصوصيات روحية و جسمية لا توجد في أى مخلوق آخر سواه.

ومن الواضح أن كلاً من:

1- استخلاف الله تعالى للبشر في الأرض.

2- تحميله إياه الأمانة.

3- خلقه إياه في أحسن تقويم.

يشترك فيه الناس كلهم بلا استثناء، إذ ذكر الله تعالى الإنسان في المجالات الثلاثة بإطلاق ولم يقيِّده بشيء: و عليه:

فكل إِنسان من بني آدم: ذكر أو أنثى، مؤمن أو كافر، تقي أو فاجر، هو:

1- خليفة الله في الأرض.

2- و حامل أمانته.

3- و مخلوق في أحسن تقويم.

ولا شك ان إِدراك هذه الحقيقة له أكبر الأثر على أهل الإيمان و الإِسلام في مجال التسامح و التعايش مع غير المسلمين أياً كانوا، اذ كيف لا يتسامح المؤمن و يتعايش مع خلفاءِ الله في أرضه، وحاملوا أمانته، ومن خلقهم الله تعالى في أحسن تقويم؟!

ونختم هذا الموضوع بحديث نبوي شريف يَدُلُّ أعظم الدلالة على أنه لا فرق في التكريم الرباني للبشر بين المسلمين و غيرهم، من حيث كونهم بني آدم مستخلفينَ في الأرض:

﴿عن ابن عباس رضي الله عنها: مَرُّوا على النَّبيِّ ﷺ بجنازة، فقام لها واقفاً، فقالوا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي! فقال: أليست نفساً؟!﴾ رواه البخاري.

أجل فالبشر كلهم من حيث كونهم بشراً، خلقهم الله في أحسن تقويم واستخلفهم في الأرض وحمَّلهم أمانَتَهُ، و سَخَّرهم ما في السموات وما في الأرض، مكرَّمون عندالله أحياءً و أمواتاً في هذه الحياة الأرضية الإبتلائية، ثم يوم القيامة في دار الجزاء، تتحدَّد مكانة كل منهم عُلوّاً و سفولاً، وصعوداً و هبوطاً، بحسب ما عندهم من الإيمان أو الكفر، و التقوى أو الفجور، كما قال تعالى: ﴿ كلاّ إن كتاب الأبرار لفي علّيين﴾ المطففين -18-، وقال: ﴿ كلا ان كتاب الفجار لفي سجّين﴾ المطففين-7-.

8- كلُّ الأنبياء جاؤوا لتثبيت العدل:

أخبرنا الله تبارك و تعالى أنه أرسل كلَّ أنبيائه الكرام ورسُلَهُ العِظام لتحقيق العدل بين الأنام، العدل الشامل الكامل في كل الأحوال، ومع كل الناس، كما قال سبحانه و تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الحديد -25-.

وقد أمر الله تعالى بنبيِّهُ الخاتم و رسوله الأعظم محمداً، أن يَعلِنَ للناس بأن الله أمره بالعدل بينهم: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ الشورى-15-.

وكذلك أمر الله الحكيم تبارك وتعالى أهل الإيمان، أن يقوموا بالقسط (العدل) أحسن القيام: ﴿يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّهُ أَوْلَى

بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّـهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) النساء-135-

وكذلك حذَّر الله تعالى أهل الإِيمان من اللاإِنجرار وراء الظلم و الجور، والإِبتعاد عن العدل و القسط، حتى مع الأعداء بسبب بغضهم إياهم، حيث قال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)المائدة -8-.

وجديرُ بالذكر أن معنى القسط و العدل متطابقان أو متقاربان جداً، ومعنى العدل و المساواة متقاربان و متداخلان، وعرِّف العدل أو القسط بـ: ﴿إعطاءُ المرءِ مالَهُ وأَخذُ ما عليه﴾ [1]

وتَحلِّي أهل الإِيمان بالعدل الذي جاءَ به كل الأنبياء و الرسُل في تعاملهم فيما بينهم ومع غيرهم، وفي حالتي السِّلم و الحرب، عامل مهم جداً و أساس متين لإرساء التسامح والإحترام المتبادل و التعاون و التضامن في المجتمع الإِسلامي، بكل مكوِّناته و أطيافه المتعدّدة المتنوِّعة.

9- لا إكراه ولا إجبار في مجال الفكر والتديّن:

وهذه الحقيقة تكوِّنُ أساساً آخر من أسس التسامح و التعايش التي يُلْزِمُ كتاب الله تعالى بها المسلمين مع غيرهم، داخل المجتمع الإِسلامي المتعدِّد المكوِّنات، و هناك آيات جمَّة بهذا الصَّدد، منها:

1- (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغَيِّ..) البقرة -256-.

وبتأمّل سبب نزول الآية المباركة يتبيَّن لنا مفهومها بوضوح:

(1) المعجم الوسيط، ص588.

﴿عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المرأة تكون مقلاتـاً فتجعـل على نفسها إنْ عاش لها وَلَدُ أن تُهَدِّدَهُ، فلما أُجليت بنو النَّضير، كـان فـيهم مـن أبنـاء الأنصـار، فقـالوا: لا نَـدَعُ أبناءَنـا، فـأنزل الله عزوجـل: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغَيِّ). أخرجه أبو داود و النسائي و البيهقي في (السنن) و ابن حِبّان وابن أبي حاتم و الضياء في (المختارة) (بت)﴾

و المِقلات: المرأة التي لا تعيش لها وَلد.

إذن: لا يجوز إِكراه غير المسلمين على الإسلام وهـو ديـن الله الحـق، إذ نهى الله الحكم تبارك و تعالى المسلمين الأنصـار عـن ممارسـة الضـغط علـى أبنائهم الذين تهَـوَّدوا –أو تنصَّـروا كمـا في بعـض الروايـات– قبـل مجيء الإسلام، بُغية جَرِّهم جَبْراً الى الإِسـلام، إذْ ديـن الله الحـق في غنـىً عـن أن يفرض على الناس فَرْضاً، ومن البديهيات أن الشـخص الـذي يفـرض عليـه الإِسلام ويُجْبَر عليه، لا يصيرُ مسلماً مؤمناً بل يتحوَّل مـن كفـرٍ علنـيّ إلى كفرٍ سِرِّي، وبالتالى يُصبح منافقاً، و المنافق أَسوءُ حالاً مـن الكـافر الظـاهر، كما قال تعالى عن المنافقين: (ان المنافقين في الـدرك الأسـفل مـن النـار...) النساء–145–.

2– (ولوشاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً أفأنـت تكـره النـاس حتى يكونوا مؤمنين) يونس–99–.

وهذا يعني أن الله تعالى وعلى الرغم مـن أنـه هـو ربّ البشـر وخـالقهم ومالكم، ولكنَّه لم يكرِهْ عباده على الإِيمان المرضيِّ له، ولو أنه أجـبرهم عليـه لآمن كل من على وجه البسيطة، ولم يكـن هنـاك كـافر واحِـد، اذْ لا يقـف

(1) أنظر: المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص257، 258، وأنظر: زاد المسير في علم التفسير لآبن الجوزي، ص 157.

شيء من المخلوقات بوجه إراده الله النافذة في كل شيء، إذن ليس لأحد – أياًكان– ولو كان رسول الله الأعظم ونبيَّه الخاتم ﷺ أن يجبر الناس على الإِيمان بعد أن خيَّرهم خالِقهم وربهم الحكيم، و أَطلق يدهم في هذا المجال.

3– (وما أنت عليهم بمصيطر) الغاشية–22–.

4– (وما أنت عليهم بجّبار) ق–45–.

والآيتان فيهما خطاب مُوَجَّه الى رسول الله ﷺ، وينفي سبحانه عن نبيِّه الخاتم بوضوح تام، كونه مسيطراً على قلوب الناس وإراداتهم، ومتمكِّناً من إِجباره إيّاهم على الإِيمان و الإِسلام، إِذْ وظيفته تجاهم هي التذكير و التنبيه، لاغير، كما قال:

(فذكرِّ إنما أنتَ مذكرِّ. لست عليهم بمصيطر) الغاشية–22،21–.

(وما أنت عليهم بجبّار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ق–45–.

وتأثير إدراك هذه الحقيقة القرآنية على أهل الإسلام من حيث تسامحهم مع غيرهم وانفتاحهم معهم من الوضوح بمكان ولايحتاج الى مزيد بيان.

10– أساس تعامل المسلمين مع غيرهم هو السِّلْم:

هذا هو ما تبنّاه المحققون من أهل العلم، ومخالفة بعض أهل العلم لهذه الحقيقة الناصعة، لاتضر، إذ هناك آيات كثيرة تنصُّ على هذه الحقيقة أو تشير اليها بوضوح، منها:

1– (أُذِنَ لِلّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .الّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقِّ إلاّ أَنْ يقولوا رَبُّنَا اللّهُ) الحج –40،39–.

2– (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) البقرة –190–.

3- (وإن جَنَحوا للسَّلْم فاجنْحَ لها و توكَّل على الله..) الأنفال--.
4- (إلاّ الّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) النساء -90-.

والذين يفهم من هذه الآيات المباركات التي ليست سوى أمثلة في بابَها، هو أنَّ الإِسلام يأمر المسلمين بالسِّلْم و كفِّ اليد عن كل من لا يقاتلهم ولا يعتدي عليهم، بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، ولا يُبيحُ لهم قتال المتاركين الموادعين من أهل الكفر، بَلْه أنه لا يوجِبه عليهم!

بل أمر الله تعالى أهل الإِسلام بحفظ العهد و الميثاق مع أهل الكفر وعدم نَقْضِهِ، حتى و إنْ تعَدَّى أولئك الكفار المعاهَدون على مجموعة من المسلمين خارج إطار الدولة الإسلامية، كما قال تعالى:

(.. وَالّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ..) الأنفال -72-.

وهذا يعني أن الإِسلام يحرص أعلى درجات الحرص على حفظ العهود والمواثيق المبرمة بين المسلمين وغيرهم، والتي تمخَّضَتْ عن السِّلم و الصلح والوئامبينهم.

وأما الذين يرون بأن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم، هو الحرب و القتال – وهذا رأي يتنافى مع القرآن الكريم وسيرة النبيِّ الخاتم – فأعتقد أنّ الذي أدّتى بهم الى تبنّي هذا الرأي، هو الواقع السائد آنذاك، إذ قسِّم العالم كله حينئذٍ إلى دار الإِسلام و دار الكفر، أو: دار السِّلم ودار الحرب!

و معلوم أن هذين المصطلحين: (دار الإِسلام و دار الكفر) وما شابههما من المصطلحات، هو ممّا اصطلح عليه العلماء و الفقهاء لتوصيف وتعريف الواقع المعاش آنذاك و الذي كان مشكلاً من جبهتين: جبهة الإِسلام و جبهة الكفر!

ولكن ممّا لا شك فيه أنَّ ذاك الواقع تغيرّ تَغيرُّاً جذرياً، ويحتاج العالم الآن إلى توصيف و تعريف آخر ينسجم مع الواقع، و على سبيل المثال أقول: كان المسلمون حينذاك يتمتَّعون بالسّلم و الأمان في البلاد التي يطلق عليها اسم ﴿دار الإِسلام﴾ أو ﴿دار السّلم﴾ بعكس دار الكفروالحرب التي كانوا فيها مهَّددين، ولكن الحال انعكست الآن إذ قد يجد المسلم في البلدان التي غالبية أهلها كفار، الأمن و السلام، ولكن يُعاني الأمرَّين في بلده الذي غالبية أهلها مسلمون!

11- الإحسان هو قاعدة تعامل المسلمين مع غير المسلمين:

وهذا أساس عظيم آخر من الأسس القرآنية التى تتمخَّضُ عن التسامح و التعايش و التعاون بين المسلمين وغيرهم داخل المجتمع الإِسلامي.

وهناك آيات كثيرة تفيد هذه الحقيقة نصاً أو إشارة، منها:

1- (لا يَنْهاكُمُ اللّهُ عَنِ الّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) الممتحنة -8-
.

وسبب مجيء هذه الآية المباركة هنا بهذه الصيغة: (لا يَنْهاكُمُ اللّهُ..) هو السياق الذي تتحدّث فيه الآيات، و الجوُّ الذي نزلت فيه، و الذي كان يسوده الصراع و القتال بين المسلمين و المشركين.

والملاحظ أن الله تعالى استعمل لفظين اثنين لترسيم كيفية تعامل المسلمين مع غير المسلمين المسالمين الذين لم يحاربوا المسلمين دينياً ولا دينوياً: (لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ) وهما: (أَنْ تَبَرُّوهُمْ) و (وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ).

وإذ كان (البِرُّ) يُجَسِّدُ الجانب المعنوي من كيفية تعامل المسلمين مع غيرهم، فإن (وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ) يُجَسِّدُ الجانب المادي، ولفظ (الإِحسان) يشتمل عليهما معاً.

وإنما قلنا (وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ) يُعبِّر عن الجانب المادي في التعامل، لأنَّ: (أَقسط اليه) أي (أعطاه قسطاً من مالِهِ) وهذا غير لفظ (أقسط) و الذي يتعَّدى بنفسه، ومعناه (عَدَلَ)، ودليلنا على أن (تقسطوا إليهم) هنا يعني: تساعدوهم مادياً و تعطوهم نصيباً من أموالكم، هو:

أولاً: هذا هو معنى (أقسط إليه)، إذ لفظ (أقسط) اذا تعدّى بنفسه فهو بمعنى (عَدَلَ) (1)، ولكن إذا تعدَّى بـ(إلى) فهو بمعنى (أعطى).

ثانياً: جملة (لا ينهاكم الله..) تمنعنا من أن نقول أن: (تقسطوا إليهم) هنا هو بمعنى: (تعدلوا معهم) وذلك لأن الإِقساط و العدل لا يكون مَنْهيّاً عنه في أي حال من الأحوال، بل هو مأمور به دَوْماً مع القريب و البعيد و الولي و العدوّ، كما قال تعالى: (..وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى..)، ومعلوم أن مفهوم المخالفة لجملة: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم..) اذا فرضْنا أن (تقسطوا إليهم) هو بمعنى: (تعدلوا معهم) سيكون

(1) أنظر: مفردات ألفاظ القرآن، راغب الأصفهاني ص670.

هكذا: ﴿لكن الله ينهاكم عن الذين قاتلوكم في الدين و أخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم و تقسطوا اليهم﴾، ومن الواضح أن العدل و الإِقساط لايكون منهياً عنه قط، مع أحد من الناس في أي حال من الأحوال!

2- (و أحسنوا ان الله يحب المحسنين) البقرة -195-.

3- (وَقُولُوا لِلنّاسِ حُسْنًا) البقرة -83-.

كما نرى عَمَّمَ الله الأمر بالإِحسان قولاً و فعلاً، ولم يَخُصَّه بنوع من الناس -كالمسلمين-، إذاً يجب علم أهل الإِسلام أن يكونوا محسنين قولاً و فعلاً مع الناس كلِّهم، بغضِّ النظر عن دينهم وفكرهم.

4- (وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا) النساء -86-.

والآية المباركة واضحة الدلالة على أن المسلمين مأمورون أن يردّوا على تحية كل من يُحيِّهم بتحيّة، بأحسن منها أو في الأقل بمثلها، أياً كان ذلك المحيِّ، مسلماً أو غير مسلم.

والآن لنستمع لأقوال بعض المفسِّرين في تفسيرهم لهذه الآية:

قال (القرطبي): ﴿واختلف في ردّ المسلم على أهل الذمة، هل هو واجب كالردِّ على المسلمين؟! وإليه ذهب ابن عباس و الشّعْبيُّ وقتادَةُ، تَمَسُّكاً بعموم الآية وبالأمر بالردِّ في صحيح السنّة﴾ (1)

﴿عن الشعبي من أئمة السَّلف أنه قال لنصرانيٍّ سَلّم عليه: عليك السلم ورحمة الله تعالى، قيل له في ذلك، فقال: أليس في رحمة الله يعيش﴾ (2)

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، ج5 ص266.
(2) تفسير القرآن الحكيم، رشيد رضا، ج5ص269.

﴿وقال جمال الدين العاسمي في هذه الآية: واستدَلَّ بها الجمهور علـى رَدِّ السلام على كل مُسَلِمٍ، مسلماً كان أو كافراً، لكن مختلفان في صيغةالردِّ﴾[1]

وفي ضوءِ هذه الآية المباركة يمكننا القول:

يجب على المسلمين أن يربؤوا بأنفسهم مـن أن يكونـوا في مسـتوى أقـل وأنزل من غيرهم في مجال التعامل، اذ المسلمون هم أصح إيمانـاً و عقيـدة، و أرقى تصوّراً، وأنقى قْلباً وأَذكى عقلاً، لذا لا يليق بهم الاّ أن يكونوا أحسن خُلُقاً وأسمى سلوكاً وأرفع موقفاً من غيرهم.

أجل يجب على المسلمين ألاّ يَدَعُوا غيرهم يكونوا أكـرم مـنهم وأحسـن وأفضل في مجال التعامل، كي يكونوا بمستوى دينهم الحق.

12- التعاون و التضامن مع كل من يسعى لتحقيق المصالح العامة و الأهداف المشتركة:

ويمكننا الإِستدلال لهذا الأساس بأدلَّةٍ كثيرة، ولكن نكتفـي بواحـدٍ منهـا فقط و الذي تتضمَّنه هذه الآية المباركة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْـوَانًا وَإِذَا حَلَلْـتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَـدُّوكُمْ عَـنِ الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُـوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) المائدة-2-.

وبيت القصيد عندنا هنا في هذه الآية المباركة، هو هذه الجملة:

[1] محاسن التأويل، ج5ص237.

﴿وتعاونوا على البرِّ و التقوى ولا تعاونوا على الإِثم و العدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب﴾

اذ جاءت هذه الجملة الـمُتَضَمِّنَةُ لأمر الله المؤمنين بالتعاون على البرِّ و التقوى، ونهيه إِياهم عن التعاون على الإِثم و العدوان، في سياق يتحدث عن المشركين الذين كانوا من قبل يصدُّون المسلمين من المسجد الحرام و يمنعونهم عنه، فيقول سبحانه وتعالى مخاطباً أهل الإيمان المتمكِّنين:

لا تتعرَّضوا لشعائر الله كالشهر الحرام و الهدي و القلائد، وكذلك لا تتعرَّضوا لقاصدي البيت الحرام و الحجاّج و المعتمرين، ولا يحملنكم بُغْضُكم إياهم بسبب منعكم عن المسجد الحرام، على الإعتداء عليهم، ثم يقول تعالى: (وتعاونوا على البرِّ و التقوى) ومعلوم أن كلمة (تعاونوا) والتي جاءت على وزن التفاعل، تفيد المشاركة، والمقصود بها هنا حسب دلالة السياق هو اشتراك المسلمين و المشركين لإِنجاز كل ما يُعَدُّ بِرّاً و تقوى، و (البِرُّ) هو كل ينتفع به الناس، كما أن (التقوى) هو ما كان سبباً للتقرُّب الى الله تبارك و تعالى.

ثم ينهى الله أهل الإِيمان عن المشاركة في كل ما هو عكس البرِّ والتقوى وهما الإثم والعدوان، والإثم ضد التقوى والعدوان ضِد البِرِّ.

وفي الختام يحذِّر الله العزيز الحكيم أهل الإِيمان عن التقصير في التعاون على البرِّ و التقوى، و التلبُّس بمشاركة الإثم و العدوان:

(واتقوا الله إنَّ الله شديد العقاب)

وبناءً عليه:

يجب على المسلمين أن يتعاونوا على كل ماهو نافع للمجتمع ومرضيٌّ لله تعالى مع كل الأطراف الساعية للخير بغضِّ النظر عن معتقداتهم وأديانهم

وخلفياتهم الفكرية و السياسية، بل يجب على أهل الإسلام أن يكونوا سبّاقين ومبادرين، ولا يسبقهم أحد في مبادين الخير و الإصلاح. وبديهي أن تحلِّي المسلمين بهذه الصفة الكريمة يجعلهم ينفتحون على غيرهم ويَمدُّون اليهم يد التعاون و التضامن، لتحقيق المصالح العامة والأهداف الجليلة التي تتوقف عليها المجتمع ورقيُّة و تطوّرهُ.

13- الإسلام هو الدين الوحيد المرضيُّ لله تعالى لكل البشر، لذا يجب أن يَسْتَوعِبَ ظِلُّهُ الناس كلَّهم:

وقد جلّت هذه الحقيقة آيات كثيرة، منها:

1- (إن الدين عند الله الإسلام..) الثمرات -19-.

2- (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) آل عمران-85-

3- (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) المائدة -3-.

أجل إن كون الإسلام هو الدين الوحيد الذي ارتضاه الله تعالى للبشر كلهم، والذي لا يقبل الله تعالى في الآخرة من أحد اتّباع غيره من الأديان و المناهج، يَسْتَلْزِمُ كونه مستوعِباً للجميع من حيث استظلالهم بظل الكيان السياسي الذي يُقيمه على الأرض كلها أو على بقعة منها.

وإدراك هذه الحقيقة يجعل المسلمين واسعي الصُّدور ولا يضيقون ذرعاً بأحد من البشر في إطار مجتمعهم وكيانهم السياسي، أياً كان فكرُهُ ودينه، وقد يثور ههنا سؤال أو إشكالٌ في أذهان بعض الناس:

أوَ لا يؤدِّي اقتناع المسلمين بأَنَّ دينهم هو الدين الوحيد الحق المرضيُّ لله تعالى، والذي لا يقبل في الآخرة غيره من أحدٍ، إلى تَعصُّبِهم وانغلاقهم، بدل التسامح والإنفتاح مع الآخرين؟!

نقول: لا، وذلك لأن ذلك الدين الحق، و الذي لا يقبل الله في الآخرة سواه، يسمح بوجود غيره من الأديان و المناهج في هذه الحياة الإِبتلائية، ويعطي أتباعها كامل الحرية في ممارستهم لها، و التزامهم بها، وهذا واضح وضوح الشمس في الظهيرة في سورة الكافرون: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ الكافرون، 1-6.

إذ نرى أنَّ الله تعالى في هذه السورة المباركة يأمر نَبِيَّه الخاتم ﷺ أن يخاطب الكافرين – كل الكافرين[1] بأصنافهم الخمسة: الملاحدة، أهل الكتاب، المشركين، المنافقين، المرتدين – بأن يعلن البراءة من معبوداتهم، كما أنهم بعيدون عن معبوده الحق سبحانه وتعالى. وفي الختام يقول لهم: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) وهذا يعني أن دين الله الحق يمنح حق الوجود لكل الأديان الباطلة التي يدين بها الكافرون، بكل أصنافهم.

هذا وعندما نتأمَّل تأريخ المسلمين على مدى ثلاثةعشر قرناً –وهي المدة التي استغرقتها دولتهم– نرى مصداق ماذكرنا جليّاً كالنَّهار، إذ عاشت مختلف المِلل و النِّحل داخل المجتمع الإِسلامي المترامي الأطراف، و في ظل

---

(1) وذلك بدلالة الألف واللام(أل) المفيد للإِستغراق، في قوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ!)

الدولة الأسلامية الواسعة الأرجاء بأمان و احترام، محفوظة الجانب مُصانة الحقوق.

14- أرسل الله تعالى رسوله الأعظم ونبيَّه الخاتم رحمة لكل العالمين:

كما قال سبحانه و تعالى: (وما أرسلناك الاّ رحمة للعالمين) الأنبياء -107-.

وقال النبيُّ الخاتم صلى الله معرِّفاً بنفسه:

(إنّي لم أُبْعَثْ لعّاناً وإِنَّما بُعِثَتْ رحمةً) رواه مسلم.

(إنَّما أنا رحمة مُهداة)رواه الحاكم و صحَّحه ووافقه الذهبيُّ.

وجَليٌّ أن كون النبيِّ الخاتم و رسول الله الأكرم ﷺ رحمة الله المتجسِّدة للعالمين، يَقْتَضي أن يكون كل العالمين محظوظين به بنحوٍ ما، وهذا يعني أوَّل ما يعني أن يتمكَّن كل الناس من العيش الكريم و الحَياة الحرة السعيدة في ظل الكيان السياسي الذي يَتَبَنَّى الدين الحق والمنهاج الصحيح الذي جاء به النبيُّ الخاتم المبعوث رحمة للعالمين.

وبناءً عليه:

يشعر أتباعُ رسول الله محمد ﷺ ويرون أنفسهم أَنَّهم مُلْزَمون بالتسامح و الإِنفتاح مع كل الناس، أياً كان دينهم، ويجب عليهم أن يُهَيِّؤوا الأرضية داخل المجتمع و الكيان الإسلامي لإِفادَةِ غيرهم وإسعادهم كي يَتحقَّق مصداق كون رسول الله ﷺ رحمةً لكل الناس، ولا يُجَسِّدُ المجتمع والكيان الإِسلامي، عنوانَ النبيِّ الخاتم (وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين) الاّ اذا سوَّى بين مواطنيه من المسلمين وغيرهم في الحياةِ الحُرَّةِ الكريمة اللائقة بالإِنسان المستخلف لله تعالى في الأرض.

إذاً:

كون رسول الله الأعظم و نَبيِّه الخاتم (رحمة للعالمين) أَساس عظيم آخر من أسس التسامح و التعايش التي أتى بها القرآن الكريم للبشرية، كي يبني مجتمعاته عليها، وبالتالي تنعم بالحياة السعيدة الرّاقية، ويشعر كل فرد بوجوده وكرامته و يتمتَّع بحقوقه و حريّاته كاملةً، بغضِّ النَّظَر عن دينه و معتقده.

15- تحقيق المصالح السَّبع الكبرى لجميع الواطنين:

استعمل بعض العلماء بل أكثرهم مصطلح (الضروريات الخمس) وبعضهم (الضروريات الست) لكنِّي آثرتُ استعمال (المصالح السَّبع الكبرى)، لكل الأشياء الضرورية التي لا تستقيم حياة المجتمع الاّ بتوفُّرها لجميع المكوِّنات وكافة أفرادها.

وتلك المصالح السبع الكبرى، أو الكليات و الضروريات السبع، هي:

1/ حفظ الدِّين:

كما قال تعالى: (لا إكراه في الدين) البقرة -156-، وقال تعالى: (لكم دينكم ولي دين) الكافرون -6-

فالإِسلام عندما تكون له السلطة و الهيمنة تُوَفِّر حق التديُّن لكل الناس بمختلف اتجاهاتهم و مشاربهم الفكرية.

2/ حفظ الحياة:

كما قال سبحانه و تعالى، ضمانة لحفظ حياة الناس: (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون) البقرة -179-، وقال: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ

بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) المائدة -45-.

وبما أن كلاً من الآية (179) من (البقرة)، والآية (45) من (المائدة) جاءَتْ في سياق عام، فمفهوهما و حكمهما ليس خاصاً بالمسلمين فحسب، بل شامل لكل الناس، أي لكل من له حياة ونفس و أعضاء.

3/ سلامة العقل و حفظه:

ومن أجل الحفاظ على عقول الناس و سلامتها، حرَّم الله تعالى كل المسكرات بجميع أنواعها المأكولة و المشروبة و المشمومة و المزروقة، كما قال عز وجل:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) المائدة -90-، ومعلوم أن حرمة الخمر -الخمر كلُّ ما خامَرَ العقل وأسكره-(1) شاملة بالإضافة الى استعمالها، لكل أنواع التعامل معها: صناعةً و بيعاً و شِراءً وحملاً و نقلاً.... الخ.

4/ سلامة النَّسل و صيانته:

وحفظاً لسلامة النسل و صيانته حرَّم الله الزِّنى و جعل ضرب مائة جلدة عقوبة لمرتكبيها من الذكور و الإناث، كما قال سبحانه و تعالى: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ...) النور-2-

5/ حفظ الأمن:

(1) أنظر: مختار الصحاح، لفظ: خ م ر، ص189.

وشَرَّع الله الحكيم لحفظ أمن الناس، عقوبة شـديدة لكـل مـن يُخِـلُّ بـه ويُعرِّضه للخطر: جسدياً أو مالياً أو سياسياً أو معنوياً، كمـا قـال الله تعـالى: (إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِـنَ الْـأَرْضِ ذلِـكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ) المائدة –33–.

وعلى رأي أكثرية الفقهاء تُنفَّذُ هذه العقوبات الأربع، على الجناة المُخِلِّين بأمن المجتمع، بحسب الجريمة التى ارتكبوها:

فإذا قَتَلوا ولم يأخذوا المال، قُتِلوا.

واذا قَتلوا وأخذوا المال، قُتِلوا وصُلِّبوا.

واذا أخذوا المال ولم يقتلوا، قُطِعت أيديهم وأرجلهم من خلاف.

واذا لم يقتلوا ولم يأخذوا المال، نفوا وأُبعدوا من بلدهم الى بلد آخر(1).

6/ صيانة العِرْض:

وحفظاً لأعراض الناس حدَّد الله تعالى عقوبة ضرب ثمانين جلدة لكل من يلوك أعراض الناس ويتَّهمهم بالزِّنى، رجالاً كانوا أو نساءً، كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِـدُوهُمْ ثَمَـانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) النور–4–.

هذا وممكن للسلطة السياسية أن تُحدِّدَ عقوبات تعزيرية رادعة، لكل من يُبَهِّتُ الناس –بغير الزِّنى– بمختلف التهم المُخِلَّة بالسمعة و الشرف.

7/ حفظ أموال الناس ومُمتلكاتهم:

(1) أنظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ص 379، 380.

وقد جعل الله العزيز الحكيم عقوبة قطع يد السارق و السارقة، سياجاً لِصَوْن أموال الناس، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ المائدة –38–.

ومن الواضح أن لتنفيذ كل من هذه العقوبات و الحدود، شروطاً لازمة يجب توفّرها، وإلاّ فبدونها لا يجوز تنفيذها وإقامتها، وبسط هذا الموضوع يحتاج الى مكان آخر(1).

ومِمّا يجدُرُ ذكره هنا، أن التعامل مع غير المسلمين في مجال العقوبات غير الجنائية، وبقية مسائل الأحوال الشخصيَّة، يجرى طبقاً لشرائعهم ومناهجهم التي يدينون بها، الاّ اذا راجعوا المحاكم الإسلامية و ارتضوا حكمها و التزموا بها طوعاً، كما قال تعالى:

﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ المائدة –42–.

هذا ومن المؤَكّدَ أن المجتمع الذي تحفظ فيه هذه المصالح و الضروريات السبع الكبرى و تُصان: الدين والحياة و العقل و النَّسل و الأَمن و العرض و المال، فهو مجتمع بإمكانه تحقيق أعلى درجات التعايش والتسامح و التعاون والتضامن.

وختاماً أقول:

هناك قاعدة نبويَّة تبنّاها الفقهاء كافة في مجال التعامل مع غير المسلمين تجمع في طيّاتها كل هذه الأسس الخمسة عشر، وهي:

---

(1) وقد فصَّلْت القول في هذا الموضوع في المجلَّد السابع من كتابي: (الإسلام كما يتجلّى في كتاب الله تعالىٰ).

﴿لهم مالنا وعليهم ما علينا﴾ (١).

ومقتضى هذه القاعدة النبويَّة:

أن غير المسلمين المواطنين في المجتمع الإِسلامي والدولة الإِسلامية لهم كل الحقوق التي للمسلمين، وكذلك عليهم نفس الواجبات التي على المسـلمين، اللهم الاّ ماهو من مختصّات أحد الطرفين الدينية، فهومستثنىً، سواء بالنسـبة للمسلمين أو لغير المسلمين.

(1) أنظر: مجموعة الوثائق السياسيةللعهد النبوي و الخلافة الراشدة، محمد حميدالله، ص188، 189، الوثيقهَا رقم: 96 و 97، (نسختان لمكتوب النبيّ ﷺالى نجران).

الحلقة الثانية

حقوق الإنسان
بين الإسلام والغرب

هـذه الرسالة

قرائي الأحبّــاء!

هذه الرسالة كأخواتها، كانت في الأصل محاضرة أُلقيت في ندوة عقـدت بمدينــة الســليمانية، في قاعــة (الثقافــة) بتــأريخ (1/شــعبان/1423- 2002/1/7، تحت عنوان (حقـوق الإنسـان بـين الإسـلام والغـرب)، ثـم فرّغها بعض المخلصين من إِخوتنا من الشريط، وبعد مراجعة وتصرّف يسير، أُثبِتَتِ المحاضرة كما هي.

نسأل الله أن يجزي إخوتنا المخلصين خير الجزاء، وأن يهب هـذه الرسـالة من الرصانة ما تحقق الغاية التي كتبت من أجلها.

ان حقوق الإنسان، وحريته وكرامته، تعتبر الميزان والمحك لأي دسـتور أو منهج، وقد حَقَّقَـتْ شـريعة الله تلـك الحقـوق والحريـات بصـورة لاتبلغهـا النظريات والمناهج الوضعية الا في الأحلام، فمن يكون أرحم بالعباد، وأشـد حرصاً على حفظ حقـوقهم ومعاشـهم، وأضـمن لحـرمتهم و كـرامتهم، مـن الخالق الوهاب، الرزاق الحي المميت؟!

لكن المهم أن يكون بنو الإنسان على حذر من أنفسـهم، وألاّ يفشـلوا في امتحان هذه الحياة الدنيا، وألاّ يتسبَّبوا في تضييع أنفسهم، أو تحويل أعمـالهم الى هباء منثور، فيتعرضوا لعار الدنيا وخسران الآخرة، كما يقول تعالى عـن الكافر الخاسر: ﴿**خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾(الحج-11)

اللهم انا نسألك بأسمائك الحسنى وصـفاتك العـلا، أن تحسـن عاقبتنـا، وأن تحفظنا من سوء المنقلب. آمين.

المقدمـة

الحمد لله وَالصلاة والسـلام علـى رسـول الله وعلـى آلـه وصـحبه ومـن اهتدى بهداه، ارحب بجميع الحاضرين، وانني لمسرور بمشاركة كل الأخـوة والأخوات .

أعــزائي!

لاشك ان الإنسان أعزُّ مخلـوق علـى هـذه الأرض، بـل انـه مـن المنظـور الإسلامي – كما سنبيّن ذلك لاحقاً – يُعَدُّ مخلوقـاً نـادراً ذا مقـام رفيـع، في الكون كلّه خلقه الله تعالى بمجموعة من الخصوصيات التي لاتوجد في غيره.

وفي عصرنا الذي بلغت الإنسانية فيه مبلغاً عظيماً من الوعي، وتقدمت في كثير من نواحي الحياة والحضارة، فإن أحد المواضـيع الـتي يتفـق الجميـع في ضرورة التأكيد عليها، هـو موضـوع حقـوق الإنسـان، لكـن مـا يـدعو الى الأسف، أن ضباباً يحجب رؤية الناس لموقف الإسلام من حقوق الإنسان، بل هناك من يتهمون الإسلام بأنه لايحترم الإنسان، ولا يأبه بحقوقه! ولكن المقـام السامي الذي أعطاه الإسلام للإنسان كإنسـان و بِغَـضِّ النظـر عـن دينـه و مذهبه و لونه و لسانه...الخ، يستحيل وجود مثله في دين و منهج سواه.

و مما لايقبل النقاش ولا التنكر له عند كل ذي ضمير حي وعقـل سـليم، ان احترام الإنسان، وضمان حقوقه التي لايستطيع بدونها العـيش الإنسـاني الكريم ، يعتبر المحك لتقييم أي دين ومنهج، ولا يتقدم أي نظام أو منهج الا بمقدار نجاحه في إسعاد الإنسان، وتطوير حياته و تحسينها.

وجدير بالذكر أننا سنقدم موضـوعنا هـذا مـن خـلال أربعـة مباحـث في فصلين رئيسييَّن: ففي المبحث الأول من الفصل الأول، سـنحاول أن نعـرف

كيف ظهرت حركة المطالبة بحقوق الإنسان في الغرب وأوربا، والمراحـل الـتي مرت بها، وفي المبحث الثاني منه سنعرض بعض ملاحظاتنا عن نظرة الغربيين الى حقوق الإنسان.

أما في الفصل الثاني، فسنتناول الحديث عن موقف الإسـلام مـن حقـوق الإنسان، و سنوضح في المبحث الأول منه نظرة الشريعة وقواعـدها لحقـوق الإنسان، ثم نتحدث في المبحث الثاني عن حقوق الإنسان في ظل الشـريعة، وكيف تضمن تلك الحقوق؟

هذا وسَنُدْرِجُ في ملحقين نصَّ كلٍّ من:

1- الإعلان العامي لحقوق الإنسان.

2- الإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان.

في نهاية هذه الحلقة الثالثة.

الفصل الأول

حقوق الإنسان من المنظور الغربي

المبحـث الاول

نظـرة تاريخية لحركة المطالبة بحقوق الإنسان

متى اتفق الغرب على ضمان حقـوق الإنسـان، هـل كـان هـذا الإتفـاق موجوداً أساساً، أم انهـم وصـلوا الى تلـك القناعـة بعـد مسـاعٍ وجهـود و ثورات وعناء؟! فلنصغ الى التاريخ:

لم تكن شعوب أوربا كأمة في القرون الوسـطى، تتمتـع بأيـة حقـوق أمـام حكامها، هذه حقيقة ناصعة في غير حاجة الى برهـان، وذلـك لأن القياصـرة والإمبراطورات والملوك الروميين – أي جميع الدول الأوربية بما فيها أمريكـا – كانوا حينذاك يحكمون شعوبهم على أسـاس نظريـة الحـق الإلهـي، والـتي نبعت منها الثيوقراطية التي تأتي في مقابل الديمقراطية... فالديمقراطية معناهـا حكم الشعب، والثيوقراطية معناها حكم الله، وكان ملوك الغرب وحكامهـا – بلا استثناء – يحكمون رعاياهم علـى هـذا الأسـاس ويعتـبرون أنفسـهم نواب الله على الأرض، نعم فهذه هي الحقيقـة، فالبـابوات والحكـام كـانوا يحسبون أنفسهم ظل الله على الأرض، وطبقة الأكليروس الـتي تعـني رجـال الدين – وقد سبق لنا إشباع القول في أنه ليس هناك في الإسلام شـيء اسمـه رجال الدين، لأن جميع الرجال المسلمين يجب أن يكونـوا للـدين رجـالاً، في كتاب (علماء الإسلام: مَنْ هم و مـاهي صـفاتهم؟)، كـانوا متضـامنين مـع الإمبراطور والملك، فكانوا يسـرقون معـاً أمـوال النـاس ويبتـزّونهم. فكـلا الجانبين كان كالمارد الجبار يُرْعِبُ الشعب، أحدهما باسم السياسة والحكـم،

والآخر باسم الدين والكنيسة. ومعاً كانوا أَحكموا قبضتهم حول أعناق الناس، فمن الذي كان يجرؤ على انتقاد نظام الحكم، والأنظمة الحاكمة آنذاك كلها كانت دكتاتورية! وفي مثل هذه الأوضاع، بدأت الحركة تدب بين الناس رويداً رويداً، فالله تعالى قد فطر الناس بضمائرهم و عقولهم أن يشعروا بالحق والباطل، بالظلم والعدل، بالحسن والسيء، فبدأت الجماهير تُبْدي امتعاضها شيئاً فشيئاً، وغدا الحكماء والكتاب والنوابغ قادة الناس في هذا المسار، الى أن وصل الأمر الى اندلاع مجموعة من الثورات – وليس هنا مجال تفصيلها – ففي سنة (1776)م قامت ثورة في أمريكا تطالب بالإستقلال لأمريكا، وكانت في ذلك الوقت مستعمرة للإنكليز، وتزامنت مع هذه الثورة ثورة أخرى طالبت بعدم التميز العنصري، والتمييز على أساس اللون، لأَن معظم المجتمع الأمريكي كانوا من السود، والألوان الأخرى، وكان البيض حينذاك أقلية.

وفي سنة (1789) قامت الثورة الفرنسية المشهورة، وكان من شعاراتها: إِشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس، أي ادفنوهما معاً.

ومعلوم أن أُناساً يخرجون من تحت الظلم والإِضطهاد، يفكرون قبل كل شيء بالحرية، كما يقال عندنا نحن الكرد، لو سئل الجائع عن نتيجة (2+2)، لقال: (4) أرغفة، وكما يقول المثل العربي: صاحب الحاجة أعمى الاّ عن حاجته.

فالناس في الغرب عندما تخلصوا من نير كلا طاغوتي الدين المزعوم والدنيا الغاشمة، أي الإمبراطورات والبابوات، تنادوا بصوت واحد مطالبين بالحرية، أي حرية؟ حرية التفكير والتعبير، حرية العقيدة، الحرية الشخصية، الحرية الإِجتماعية، الحرية الإِقتصادية، الحرية السياسية.. الخ.

و بإختصار: إذا تتبعنا مسار حركة حقوق الإنسان في الغرب، لأمكنّا تلخيصه بهذه النقاط:

- تحدثنا عن ثورة سنة (1776)م في أمريكا، وقد نجحت الثورة وحصل الأمريكيون على الإستقلال، فكتب رجل باسم (توما جيفرسون) وثيقة أسماها (إِعلان حقوق الإنسان) وقد أُعلنت هذه الوثيقة رسمياً فيما بعد، والتي تضمنت الإِستقلال السياسى، والحرية والمساواة الإِجتماعية.
- ثم اندلعت في سنة (1789)م الثورة الفرنسية، وكان أحد شعارات الثورة هو المطالبة بحقوق الإنسان، وقد كتب أحد علماء فرنسا ومحسنيهم وهو (أمانوئيل جوزيف) وثيقة أيضاً إبان الثورة طالب فيها بحقوق الإنسان.
- في سنة (1791) عرضت فرنسا الدستور بعد الثورة، لأنه لا تسير الشؤون بغير دستور وقانون، والا لقام كل من مكانه يضع من عنده قانوناً، لذلك كان لابد من وجود (قانون أساسي) يكون مرجعاً لاستنباط القوانين، وحين ذاك أعلنوا وثيقة (أمانوئيل جوزيف) فاعتمد مع الدستور.
- وفي القرن التاسع عشر، أقر جميع الدول الغربية أو غالبيتها بحقوق الإنسان، أو بمعظم حقوق الإنسان، ولكن الى ذلك الوقت كانت حقوق الإنسان مسألة داخلية، ولم تتحول الى مسألة دولية.
- بعد الحرب العالمية الثانية التي استغرقت من (1939–1946) والتي قتل فيها أكثر من (50,000.000) شخصاً، وكانت تلك كارثة حلت بالإنسانية، لذلك اجتمعت مجموعة من العلماء والمفكرين والمحسنين من أجل الإنسانية، وكانوا قد تحدثوا قبل ذلك في سنة (1945) ووصلوا الى شيءٍ ما، فكان أن أعلنوا في (1948/12/10) الوثيقة التي عُرفت

بـ(الإِعلان العالمي عن حقوق الإنسان)– وسنورده نصِّه كملحقٍ في نهاية هذه الحلقة، وسنعرض ملاحظاتنا عنها قريباً – ونستطيع ان نقول ان هذه الوثيقة كانت في مجال المطالبة وضمان حقوق الإنسان، خطوة مهمة، وإنجازاً كبيراً، فأُعلنت الوثيقة بعد ذلك عن طريق الأمم المتحدة، التي خَلَفَتْ (عصبة الأمم) التي فشلت في فضّ النزاع بين الدول المتحاربة، أو السيطرة على الحرب والسلم، فحُلَّت تلك المنظمة، وحلت محلها (منظّمة الأمم المتحدة) التي هي الأخرى تسير نحو الفشل بفعل الضغوطات التي تمارسها عليها بعض الدول العظمى وخصوصاً أمريكا، اذ تكاد هذه المنظمة تكون مفرّغة من محتواها –ان لم تكن قد فُرِّغَتْ فعلاً من محتواها– وتكون غطاءً لتنفيذ قرارات بعض الدول المتسلطة وَخصوصاً أمريكا.

- في (1976/12/16)م أَرفقت الأمم المتحدة اتفاقيتين مع الوثيقة كشرح وملحق باسم(الحقوق المدنية والسياسية)و (الحقوق الإقتصادية وَالإِجتماعية والثقافية). وأجمعت دول المنظمة في (1977/10/13) ان تضم الإتفاقيتان مع أصل الوثيقة، وان تطالب الدول الأعضاء بتنفيذها أيضاً.
- وفي عهد (جيمي كارتر) في أواخر السبعينات، بدأت أمريكا تؤكد أكثر من ذي قبل على حقوق الإنسان، طبعاً حقوق الإنسان بالمفهوم الغربي، والمطالبة بها والتأكيد عليها وفق الميكانيكية الأمريكية، والتي نرى آثارها اليوم! فهم كلما غضبوا على دولة قالوا عنها: لماذا لا تراعي حقوق الإنسان؟ وعندما يرضون عن دولة يَغُضُّون الطّرْفَ عنها، وهذه سياسة معهودة منهم. تسمى: (سياسة الكيل بالمكيالين)، ومنذ التاريخ الذي بدأت فيه أمريكا فتح الملفات للدول، فإنَّ أي دولة لا تراعي حقوق

الإنسان، ولا تحترم رعاياها، تُسارع أمريكا – استناداً الى مصالحها – إمّا أن تبحث لها عن ذرائع وحجج، إِن كانت لهـا مصـلحة في ذلـك، أو أن تغض طرفها عنها، ان كانت مصالحها في غير ذلك.

- بعد انهيار الإِتحاد السوفيتي السابق في (1991)م وبَدْءِ عهد سلطة القطب الواحد، التي تسـمى: (النظـام العـالمي الجديـد)، وخصوصـاً بعـد مـؤتمر (المنظمات غير الحكومية لحقـوق الإنسـان) في فينـا سـنة (1993)، نُشـر الإعلان الخاص حول حقوق الإنسان، وجرى ذلك تحـت رعايـة وضـغط الولايات المتحدة، والتي تولّتْ بنفسـها الإِشـراف علـى المؤتمر والتأكيـد على حقوق الإنسان (وبالمفاهيم الأمريكيـة الـتي تحـددها بنفسـها). منـذ ذلك التاريخ، قررت أمريكـا أن تضـع العقوبـات الإِقتصـادية والتجاريـة وغيرها على كل دولة لا تراعي حقوق الإنسان، مع الأخذ بنظر الإعتبـار ان هناك دولاً أخـرى كإسـرائيل، وغيرهـا، لا تضـع أيَّ إعتبـار لحقـوق الإنسان، ولكنها بسبب قربها من أمريكا، أو بسبب أنه ليس من مصلحة أمريكا محاسبتها، فلا تراها تذكر.

المبحث الثانـي

ملاحظات حول مسـار حركـة حقوق الإنسان وفحوى هذا المسـار من المنظور الغـربي

يجدر بي ابتداءً أن أقول إنَّني كمسلم عندما أنظر الى تأريخ البشرية، أرى حركات حقوق الإنسان، والإتفاقيات التي عقدت والإعلانات التي نشـرت، كانت عموماً خطوات في مصـلحة الإنسـانية، بغـض النظـر عـن الأهـداف السياسة الإستعمارية التي كانت تقف خلفهـا، أو الأهـداف الشـوفينية الـتي شكلت دافعاً من دوافعها، فالمهم اذا قال أحَدٌ: يجب أن يحـترم الإنسـان وألاّ يُظْلَم ويُضْطَهد ويُهان، فينبغي علينا أن نشكر ذلك الشخص ونشدّ على يديه، وما من شك أن تلك الحركات المطالبة بحقوق الإنسان كان لها تأثيرها – قل أو كثر – على سياسات الدول، فقد حمل كثيراً من تلك الدول على مراجعة نفسها والتقليل من غرورهـا وتجبرهـا، تحـت وطـأة الضـغوط الـتي تمارسـها المنظمات المنادية بحقوق الإنسان و تلك السلطات التي اتخـذت مـن حقـوق الإنسان شعاراً –ولو كان وراءه ما وراءه –لممارسة الضغوط على الآخرين.

ووثيقة (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) المكون من (30) فقـرة، والـتي سنوردها في ملحق خاص في نهاية هذه الحلقة، اذا قرأها الإنسـان بإنصـاف وتمعن فيها، فإنه يرى بأنها لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية – عدا فقـرات

قليلة منها – أي مع الآيات القرآنية أو الأوامر النبوية أو القواعد الشرعية، نعم فيها بعض الفقرات المتعارضة مع الشريعة، وسنبيّن سبب ذلك لاحقاً، والاّ فمعْظم فقراتها تتناسب مع الشرع، وخصوصاً ما تنص على كون الناس سواء من حيث إنسانيتهم، وان بني الإنسان يجب أن يتساووا أمام العدالة، وأنه يجب احترام كل انسان، وانه لايجوز اضطهاد الإنسان، ولا يجوز حبس أحد بلا دليل، ولا تعذيبه ولا ترويعه، وأنه لا يجوز ممارسة الإضطهاد الطبقي والإضطهاد القومي والديني ضد أحد... الخ. فهذه البنود لا شك في أنها قضايا مطلوبة، وقد أكدت ضرورتها شرائع الله كلّها.

ملاحظات على النظرة الغربية لحقوق الإنسان

1/ عندما يذكر كلمة (حق) ينقدح في الذهن بصورة تلقائية السؤال عن الأساس الذي يستند اليه ذلك الحق، فإذا ادَّعى انسان أن له حقاً، قيل له ما دليلك؟ واذا طالب شخص بحقه من شخص آخر، قيل له على أيِّ أساس تطالبه؟ ووثيقة (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) التي هي عبارة عن المطالبة بحقوق الإنسان بفهم غربي وأوربي، لم تضع لذلك أي أساس أو مستند، ولم تذكر أي دليل يوضح: لماذا تجب المحافظة على حقوق الإنسان، ولماذا يملك الإنسان حق الحياة والإستقلال والتملك وتكوين البيت والإحترام.. الخ، كل ذلك على أي أساس يستند؟ فهي إذاً مجرّد دعاوى لا يعضدها دليل، فهذه نقطة ضعف في وثيقة كهذه.

2/ ان مطالبة الغربيين بحقوق الإنسان لم تكن في الحقيقة (فعلاً) بل كان (رد فعل) ولو دققنا النظر في الوثيقة، لتبيَّن لنا بوضوح أن ذلك لم يكن قناعة الغربيين أنفسهم بكرامة الإنسان وحرمته وحقوقه، بل كان وراء ذلك

أشياء أخرى:! جاء في ديباجة الإعلان ما نَصُّهُ: (لما كان الإقرار بما لجميع أعضاء الأُسرة البشرية من كرامة أصليةٍ فيهم، ومن حقوق متساوية وثابتة، يشكِّلُ أساس الحرية والعدل والسَّلام في العالم، ولما كان تجاهل حقوق الإنسان و ازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال أثارتْ بَرَبَرِيَّتُها الضمير الإنساني... و لما كان التقاء الجميع على فهمٍ مشترك لهذه الحقوق والحريات أمراً بالغ الضرورة، لتمام الوفاء بهذا التعهُّد، فإن الجمعية العامة تَنْشُر على المَلأ هذه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بوضعه المثل الأعلى المشترك الذي ينبغي أن تبلغَهُ كافة الشعوب وكافة الأمم..)! اذاً فمعنى هذا – لمن تدبّر – أن الإنسان ليس صاحب حرمة وكرامة في ذاته، فَتُوَفَّر له حقوقه، بل إن الحقوق تضمن حتى يقطع دابر الحروب والفوضى وعدم حدوث الإقتتال مرة أخرى – ويشير الى الحرب العالمية الأُولى والثانية – وحتى تعيش الدول في سلام ووفاق، لذلك يجب احترام الإنسان وكفالة حقوقه، بمعنى: أن احترام الإنسان وتَكَفُّلَ حقوقه، لم يُجْعَل أساساً، بل الهدف هو شيء آخر، فاحترام الإنسان وضمان حقوقه وسيلة، وهو لا يتوافق مع ما عليه الإنسان في ذاته من مقام ومرتبة عالية.

3/ في وثيقة الإِعلان العالمي لحقوق الإنسان، جاء ذكر المُضْطَهَدين (بفتح الدال) ولم يرد ذكر المُضْطَهِدين (بكسر الدال)، ولم يميز بينهما، ولكن ينبغي التساؤل: أَلا يحق تمييز الذين داسوا على حقوق الإنسان عبر التأريخ، أفراداً وجماعات، وهضموا حقوق الإنسان من الناحية الإجتماعية والإقتصادية، والسياسية والقومية، أو من ناحية اللون والجنس واللغة، من المظلومين و المضطَهَدين الذين سُحِقوا و سُلِبَتْ حقوقهم؟!

لابد من التمييز بين هؤلاء و هؤلاء، وَ الإسلام بخلاف هذا وضع النقاط على الحروف بجلاء، في مثل هذه القضايا.

4/ لم يُحَدَّدْ أيُّ أساس أو مرجع لتحديد حقوق الإنسان، من الذي يحدد هذه الحقوق؟ بأي مقياس حُددت هذه الحقوق؟ أبتأمل طبيعة الإنسان؟ أم غرائزه، أم بمقياس الفلسفة، أو الدين، أو الجماهير، أو العرف والعادة؟ وما هي المصادر والأسس التي بامكاننا استنباط حقوق الإنسان منها؟ لأنه اذا اجتمع أُناسٌ وطالبوا بحقوق الإنسان، قيل لهم: مَن الذي أعطاك هذا الحق وعلى أي أساس؟!

5/ ان غالبية فقرات الوثيقة – كما أسلفنا – تتضمن قضايا رائعة وجذابة، ولكن آلية تنفيذها لم تحدد، ولذلك فإن دول المعسكر الشرقي وَالدول الإِشتراكية وفي مقدمتها الإِتحاد السوفيتي السابق،كانت لها تحفُّظات كثيرة على ترقيع وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والوثائق التي أُلحقت بها، وتحفظاتهم كانت وجيهة ومعقولة، فهم كانوا يقولون: النظام الرأسمالي يطالب باحترام الإنسان ومراعاة حقوقه، ولكن ما جدوى وثيقة كهذه والطبقة الرأسمالية والبرجوازية مُحْكِمةٌ قَبْضَتَها حول خناق الناس عن طريق الإِضطهاد الإِقتصادي والسياسي، والتمويه الإِعلامي، ما جدوى تلك الوثائق، والطبقية لا زالت موجودة، والإِضطهاد لا يزال موجوداً؟!

6/ ان فقرات الوثيقة تضمنت أهدافاً جيدة ومقبولة – عدا فقرات منها – لكنها تفتقر الى ضمانة وسند قوي، يكون من شأنه تجسيد ماورد فيها على واقع العالم، وخصوصاً بعد أن أعطت الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية، وهي الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن – وهي: أمريكا

وَروسيا وَالصين وَفرنسا وَبريطانيا – حق نقض القرارات المسمّى بـ(الڤيتو) ومجلس الأمن –كما هو معروف– مكوَّن من (15) عضواً، خمسة منها أعضاء دائميون، وينتخب الباقون بشكل دوري، وقد نقضت أمريكا – لحد الآن – (75) قراراً من قرارات مجلس الأمن، فكلما لم يَرُقْ لها قرار، سارعت الى انتقاده ونقضه، وهكذا يفشل القرار، وخصوصاً القرارات التي تضر بإسرائيل، وأي قرار يضر بمصالح الولايات المتحدة، فقد صدرت قرارات عديدة حول الحد من إنتاج الصواريخ البالستية والحد من إنتاج المعامل التي ينبعث منها الدخان الكثيف، فتتسبب في تلويث البيئة والتأثير على طبقة (الأوزون)، ولكن لم تلتزم أمريكا بأي منها! وكذلك بدرجة أدنى كل من بريطانيا و روسيا و فرنسا و الصين، وفق الحق المُعطْى لهم، أو الحق الذي أعطوه لأنفسهم في نقض القرارات!

7/ لقد أعلنت الوثيقة تحت عنوان ضخم: (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) ولكن يتبادر الى الذهن هذا السؤال: هل تستحق الوثيقة هذا العنوان الضخم؟ وهل حضر ممثلوا البشرية جمعاء، ليوقعوا على بنود الوثيقة الثلاثين؟ أم انحصر الأمر في دول الغرب فقط؟ فالعالم الإسلامي – عدا من التحق فيما بعد بهم كملحق – كان غافلاً لم يُحْسَبْ له أي حساب، كما أن الدول الشرقية تحفظت على تلك الوثيقة عموماً. فالحقيقة اذاً ان الإسم أكبر من الفحوى بكثير، كما قال أحد الكتاب الإسلاميين وأجاد بقوله: لو كان عنوان الوثيقه هو (الإعلان الأوربي لحقوق بعض الناس) لكان أصوب وأكثر توافقاً مع المضمون!

هذه كانت ملاحظاتنا عن النظرة الأوربية لحقوق الإنسان، لهذا فإنني أنصح جميع الأخوة والأخوات، ألاّ يقعوا تحت تأثير الشعارات البراقة المرفوعة

لإثارة الإِنتباه، فمثلاً أدعوهم ألاّ يستسلموا سريعاً لقضايا كالعولمة والديمقراطية.. الخ بل أدعوهم ان يتعمقوا ويدقّقوا فيها النظر، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الاسراء-36) والعلماء المسلمون وضعوا قاعدة مهمة وهي (الحكم على الشيء فرع من تصوره). أي إِنَّه لايحق لك ان تقرر في مسألة ما دون معرفتها وفهمها، لأن كل قرار نابع من الجهل وعدم المعرفة، فسيكون قراراً خاطئاً، كما أن الأساس الأعوج لا يبنى عليه الا جدار أعوج.

الفصل الثاني

حقوق الإنسان و واجباته في الإسلام

تمهـيـد

تحدثنا عن المنظار الذي ينظر الأوربيون مـن خلالـه الى حقـوق الإنسـان، وعرضنا ملاحظاتنا حول ذلـك، والآن حـان الوقـت لمعرفـة نظـرة الشـريعة المعصومة الى الإنسان، وما هى حقوقه و واجباته التي حددتها لـه؟ أرجـو أن تلاحظوا أنَّني استعملت كلمة (واجبات) لأن كل ما يقال عنها (حقـوق) في الإسلام، هي واجبات قبل أن تكون حقوقاً، والواجب فيه الإِلزام، اما الحـق ففيه المطالبة، والإلزام أقوى كما هـو معلـوم، لأنـه في هـذه الحالـة يجـب أن يكون هناك دافعٌ يحمل الإنسان على مراعاة حقوق الآخرين، بمعنـى التزامـه بواجباته المدنية، ومن واجب الإنسان نفسه كذلك أن يطالب بحقوقـه، كمـا سنبين ذلك لاحقاً، وسنتعرض لتفصيل هذه المسألة في مبحثين:

المبحـــث الاول

قواعـد حقوق الإنسان و واجبـاته فـي الإسلام

هَلُمَّ نتعرفْ على الأسس التي بنيت عليها حقوق الإنسان وواجباته، وقـد سبق أن أحد عوامل القصور وَالخلل في النظرة الأوربية الى حقـوق الإنسـان أنها لا تستند الى قاعدة أو فلسفة واضحة، ولكن الحال في الإسـلام مختلـف تماماً، حقوق الإنسان في الإسلام، ليست حلقـة مقطوعـة من سلسـلة، ولا نتيجة من غير مقدمـة، ففـي الإسـلام قبـل أن يجـري الحـديث عـن حقـوق الإنسان، هناك حديثٌ عن أشياء أخرى، ثم تـأتي حقـوق الإنسـان لتعـرض نفسها كنتيجة منطقية وطبيعية لِما جرى بحثه سابقاً.

إذاً: على أيِّ قاعدة يبنـي الإسلام حقوق الإنسان؟!

نقــول في الجواب:

إِن الأساس الذي تستند اليه حقوق الإنسـان والمنبـع الـذي تنبثـق عنـه، يكمن في أن للإنسان والحياة والكائنات مالكاً، فهـذه الـدنيا – كمـا يقـول المثل الكردي: – ليست مدينة بلا صاحب، وهذا المالك الذي هـو صـاحب الإنسان، والحيـاة، والكائنـات جميعـاً، هـو الـذي يحـدد واجبـات الإنسـان وحقوقه وكرامته ومقامه.

وهكذا بِإمكاننا إِرجاع مصدر حقوق الإنسان وأساسه في شريعة الله تعالى الى جذرين مهمين:

الأول: خالقية الله وربوبيّتهُ، ومالكيته للكائنات.

الثاني: عبودية الإنسان لله تعالى، وتكريم الإنسان من قبل خالقه.

ومعلوم ان هذين الجذرين اللّذَيْن يشكلان قاعدة حقوق الإنسان في الإسلام، خاصان بالإسلام دون غيره من المناهج والسبل، وليس هذا ميزة الإسلام وخصوصيته الوحيدة، بل هناك خصوصية مهمة أخرى للإسلام وهي أَنه لم يرفع حقوق الإنسان كشعار براق لكي يقول الناس: نشهد بالله أن هذا الكلام جميل! فكم من قائل للكلام الحسن، لكنك اذا نظرت الى فعاله لم تر تجسيداً ولا مصداقاً له، فترجمة القول بالعمل من شأنها أَن تُجَسِّده في الواقع، وحينئذ يستفيد منه الناس.

لهذا فالإسلام إِضافةً الى دفاعه عن حرمة الإنسان وكرامته وحقوقه، فإِنه يأمر المسلمين كذلك ان يهيئوا الأرضية والبيئة التي يمكن للإنسان أن يُحترم فيها وتراعى حقوقه، وهنا تظهر إِحدى حِكَمِ وجود الدولة في الإسلام، واذا قال قائل: وما حاجة الدين الى السياسة والدولة؟ ما حاجة الدين الى السلطة؟ نقول في جوابه: الدين يحتاج الى دولة وسياسة وحكومة، حتى يهييء البيئة التي يعبد الله فيها حق عبادته، وكي لا يعبد الناس بعضهم بعضاً، ولا يكونوا عبيداً أو خدماً لغيرهم، وأن يعيشوا معاً إِخواناً، فإِمّا أُخوَّة في الدين، أو أُخوة في البشرية ومدارة في العيش معاً.

فنظرة الإسلام الى حقوق الإنسان نظرة واقعية، تهيء البيئة المناسبة التي يحصل فيها الإنسان على حقوقه بصورة فعلية، لهذا فمسألة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، ومسألة تكوين الدولة والحكم والسياسة، وقضية أن تكون للمسلمين كيان، كل هذه القضايا مرتبطة بالإِيمان والعقيدة مباشرة، ومرتبطة بـ(لااله الا الله)، اذ ذلك الخالق الرَّب سبحانه هو صاحب هذه الكائنات، وهو الذي يحدد الحلال والحرام لعباده، وكذلك الحسنة والسيئة والواجبات والحقوق.

وقد أثبتت التجارب أن الإِستبداد الداخلي والعدوان الخارجي، أكبر عائق أمام حقوق الإنسان، ولنأخذ الشعب الكوردي مثلاً، عندما كان البعثيون يُظِلّون هذا الشعب بظلهم الكئيب، أو في الأماكن الأخرى مثل تركيا التي ما كانت تعترف حتى السنوات الأخيرة أن هناك شعباً يسمون كورداً، - ونحن نتساءل: اذا كان الإنسان لا يُعترف بوجوده، هل يُعْتَرُف بحقوقه، اذا كان في مكان ما لايزال الكورد لا يعتبرون شعباً ولا قومية ولا مواطنين أصلاً، أهؤلاء يُعترف بحقوقهم؟ بالتأكيد لا- أجل فالشعب الكوردي في ظل مثل تلك الأوضاع المأساوية. لايمكن أن يتمتّع بِحقوقه المشروعة كغير من البشر، لذا: فأهمية وجود كيان إِسلامي تكمن في السعي لضمان حقوق الإنسان والقضاء على الإِستبداد الداخلي، وقطع الطريق على العدوان الخارجي، وهناك تسنّى لحقوق الإنسان أن تتفتح براعمها، وأن تُزْهِرَ وتُثْمِرَ شجرتها، ولأحد أن يتساءل هنا: لماذا لا يُرى مصطلح حقوق الإنسان في القرآن والسنة؟! وهذا كلام صحيح، ولكن نقول: إن محتوى هذا المصطلح موجودة بصورة تفصيلية، كحق الله على عباده، وحق العباد على الله، حق المسلم على المسلم، وحق الراعي على الرعية، وحق الشعب على الحكومة...الخ. وكلمة (حق الإنسان) وإن لم يأت لها ذكر في

النصوص الشرعية إلا أن القرآن والسنة يتضّمنان ذلك، وهناك عوامل عديدة لعدم وجود هذا المصطلح في النصوص الشرعية، منها:

أولاً: حقوق الإنسان – كما قلنا – يجب أن تكون لها قاعدة تُبنى عليها، لماذا ينبغي أن يكون للإنسان حقوق؟! لماذا لا يجوز أن يضطهد الإنسان؟ لماذا يجب أن يكون حراً في اختيار عقيدته؟ لماذا ينبغي ألاّ يمنع من التعبير؟ لماذا يجب إرساء الحريات الشخصية؟ لابد أن تكون هناك أسُسٌ تستند اليها هذه القضايا!

فالإسلام أقرّ بذلك الأساس، وهو عبارة عن احترام كرامة الإنسان، وان الله خلق الإنسان لعبادته واتخذه خليفة، لا أن يكون عبداً أو خادماً للطواغيت والمستبدين، لهذا فلا يجوز لأحد أن يُذِلَّ عِبادَ الله لاباسم السياسة، ولاالدين، ولا الدنيا، وهناك في هذا الصدد، كلمة مشهورة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه قالها لعمرو بن العاص و ابنه، كان عمرو رضي الله عنه والياً على مصر، فتسابق ابنه بفرسه مع فارس قبطي، فسبق القبطي ابن عمرو بن العاص، فأَنْزَلَ ابنُ عمر والقبطيَّ من فرسه، وجلده قائلاً: (خُذْها وأنا ابن الأكرَمَيْنِ)، أي إنَّ والدي هو عمرو بن العاص ووالدتي المرأة الفلانية، وأنت رجل قبطي نصراني، والقبطي يعلم أن العهد عهدُ عمر بن الخطاب، لذلك شَدَّ الرحال الى المدينة المنورة، وهكذا الإنسان يجب أن يدافع عن حقه، فقد علم هذا الرجل ان هناك حكماً إسلامياً سيأخذ له حقه، ذهب الرجل وبثّ شكواه الى الفاروق عمر رضي الله عنه، فبعث الخليفة وراء عمرو وابنه على جناح السرعة، وطلب أن يجلب معهما السوط الذي ضُرب به القبطي، فحضرا، وحاكمهما عمر، وَثبتتْ دعوى القبطي، فأعطاه عمر السوط وقال: إِضربه كما ضربك،

فانهال القبطيُّ على ابن الوالي ضرباً كما ضربه هو، ثم قال عمر للقبطي: أَدِرْها على صلعة عمرو، وكان عمرو أحد الأصحاب الكرام، و والي مصر، وهنا تدخل الأصحاب وقالوا: يا أمير المؤمنين، إنما ضربه ابنه وليس عمرو، فقال القبطي: ليس لي حق عند والده، وقد أخذت الحق ممن ضربني، فقال عمر: لا، إنما ضربك معتمداً على مقام أبيه، لكن الأصحاب تَشَفَّعوا عند الخليفة فَشَفَّعَهُمْ فيه، وقال عمر بن الخطاب قولته المشهورة: ((متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أُمهامتهم أحراراً))[1].

اذاً فالإنسان، محترم، حر، خلقه الله تعالى حراً، لذا يجب إعطاؤه حقوقه، ولم يتم التأكيد على الحقوق، لأَن الإنسان اذا كان مكرماً ومعتبراً، فحقوقه مكفولة أيضاً.

ثانياً: لم تُعرض حقوق الإنسان وواجباته في الإسلام كشعار عام، وبراق وخداع يموِّه على الناس، بل عرضت بصورة تفصيلية، حتى يمكن تنفيذها عملياً، فقد ذكر في الشريعة الإسلامية بوضوح، حق الحاكم على شعبه، وحق الشعب على حاكمه، حق المرأة على زوجها، وحق الزوج على زوجه، وحقوق الآباء على الأبناء، وحقوق الأبناء على الآباء، وحق الجار على الجار، والضيف على صاحب الدار، و...الخ، فكل حق من تلك الحقوق، ورد مفصلاً، وليس كشعار عام، لا يُهتدى الى طريقة تنفيذه.

[1] أنظر: حسن المحاضرة (578/1)، وانظر: (حقوق الإنسان في الإسلام، دراسة مقارنة مع الإعلان العالمي و الإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان) للدكتور محمد الزحيلي،ص378.

ثالثـاً: الذي يُقال له (حق) في الغرب، يطلق عليه في الإسلام (وظيفـة)، وفي ذلك حكمة كبيرة، لأن الإنسان اذا تعرَّض للمضايقة ربما استغنى عن حقوقه ورضي من المغنم بالسلامة! لكنه عندما يكون مكلفاً بواجب على كاهله، فربما يحمله الخوف من عقاب الله، ألاّ يُفَرِّط فيه وأن يواصل سعيه لأداء ما عليه، ولا بأس أن نستشهد بمثال لتوضيح هذا الكلام، مثلاً يقول الله تعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾ (البقرة -194)، أي اذا احتُلَّ وطَنُكَ، فاطرد المُحْتَلَّ، واذا اغتُصِبَ بَيْتُك، فاسترجعه، وإذا شَتَمك فَرُدَّ عليه شتيمته، وبِإمكانك في بعض الحالات أن تعفو عنه، وَ إذا أراد قتلك، فلا تَدَعْه وبادر أنت الى قتله، فالنبي ﷺ جعل الدفاع عن النفس واجباً شرعياً، يقول ﷺ ((من قتل دون مظلمته فهو شهيد)) (رواه النسائي وصححه الألباني).

سواء كان الإعتداء قومياً، أو إِقتصادياً، أو سياسياً، أو شخصياً، أو من ناحية الشرف، واذا ظلمت من أي ناحية من النواحي ودافعت عن نفسك، وقُتلت أثناء دفاعك، فقد متَّ ميتة شريفة وبلغت رتبة الشهادة، ويقول النَّبِيُّ ﷺ في حديث آخر: ((من قُتل دون ماله فهو شهيد)) (رواه البخاري).

بل إن علماء الإسلام يقولون: إذا أُخذ منك دينار بظلم، فهل من الأفضل أن تعطيه الدينار وتُكْفى شرَّه، أو ألاّ تعطيه وتدافع عن مالك؟ أكثرهم على أن تدافع ولا تعطيه مالك، وبالنسبة لكيفية الدفاع، يقولون: تبدأ بالتهديد، فإذا ارتدع، وإلاّ فحاوِلْ أن تصيبه أو تنال منه، فإذا لم يرتدع ولم يتركك بهذا أيضاً، فمن حقك أَن تقتله، ويذهب دمه هَدَرا، ولا قصاص عليك،

وهو يصبح من الهالكين، وأنت من المأجورين، لماذا؟ لأَنك دافعت عن مالك.

ويقول النبّي ﷺ ((من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)) (رواه أبو داود وصححه الألباني).

اذاً: فضمان الحقوق في الإسلام واجب، واذا قَصَّر الإنسان فيه كان آثماً، وهو ليس شيئاً بإمكانك ان تَغُضَّ عنه طرفاً، والله يعاقبك على التقصير والتفريط، وَالذي يترك الظالمين ليُحرِقوه بنارهم، يحرقه الله تعالى بناره يوم القيامة، لأنه لم يكن صاحب موقف بوجه الظالمين، وهذا ثابت بنص القرآن، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (هود –113).

سواء كان ظلمهم سياسياً أو إقتصادياً أو إجتماعياً أو قومياً، لا تميلوا اليهم ولا تقربوا منهم، لا تكونوا من أتباعهم، ولا خدمهم، والاّ أحرقتكم نارُ جهنم، وان الله تعالى سيعاقبكم على تفريطكم في حقوقكم.

أُســس واجبــات وحقوق الإنسان في الإسلام

أشرنا فيما مضى، الى الأسس الثلاثة الـتي بنـى الإسـلام عليهـا واجبـات الإنسان وحقوقه:

أولاً: ان الله وحده هوالخالق المبدع، مالك الإنسان والحياة والكائنات.

ثانياً: ان الإنسان مخلوق نادر اختير لخلافة الله على الأرض.

ثالثاً: الناس سواسية في الأصل والطبيعة والحقوق.

والآن الى شيء من التفصيل لهذه الأسس الثلاثة:

الأســاس الأول: ان الله سبحانه هو خالق كل شيء وربُهُ ومالكه:

أكدت هذا المعنى آيـات كـثيرة، كقولـه تعـالى: ﴿**اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾(الزمر-62) أو قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الفاتحة -2) أو قوله تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ**﴾ (آل عمران- 26).

فالله هو المبدع والخالق والمالك الوحيد لكل شيء في الدنيا، اذاً: فـلا يحق ولا يجدر بغيره، أن يحدِّد للناس حقوقهم وواجباتهم.

وفي هذا حكمة بالغة، لأن الله تعـالى اذا أعطـى عبـده وخليفتـه علـى أرضه حقاً، فليس من حق أحد لا باسم الـدين أوالسياسـة أو المصـلحة العامة أو أي مسمى آخر، أن يسلبه ذلك الحق الذي وهبـه الله لـه، أمـا العباد أنفسهم اذا اتفقوا فيما بينهم علـى بعـض الحقـوق، فـالأمر آنئـذٍ يحتمل الأخذ والرد والمساومة.

الأساس الثـاني: إن الإنسان ذو كرامة و لَهُ مقام رفيع:

ان من دواعي الأسف ان الكثيرين لايدركون حقيقة المقام العالي والمرتبة الباذخة التي حظي بها الإنسان في الإسلام، وان أشدَّ الناس جهلاً بهذه الحقيقة، هم بعض المثقفين من أَبناء شعبنا، الّذين لم يطّلِعوا على القرآن والسُنة، أو أنهم عُمِّيَ عليهم، أم خُدعوا ولُبس عليهم، فأعاقتهم هذه العوائق عن دراسة القرآن والسنة، لمعرفة هذه الحقيقة، والحق أن أية فلسفة أو منهاج أو فكرة إِنسانية، لم تسمو الى ما أعطاه الإسلام للإنسان، من المقام الرفيع والمرتبة السَّنيَّة، وأين الثّرى من الثريّا! فشتّان شتّان، وسنحاول أن نلخّص في عشر نقاط موجزة الاشارة الى ما أولاه هذا الدين للإنسان من تكريم و تَبْجيل:

1/ الإنسان عبد لله تعالى:

والكثيرون – واعجبي – يعتبرون هذا إهانة للإنسان! ولكن لا، ان الإنسان لا ينجو من العبودية لغيره من الخَلْق، الا عندما يكون عبداً لخالقه، لا يستطيع أن يخلع سلاسل الطواغيت وأغلالهم من يده ورجله ورقبته، إلاّ بعد أن يصبح عبداً لله، لأن الله خالق الجميع، يمتاز على مخلوقه بأنه خالقهم من العدم، وكل من عداه سبحانه فمخلوق، لذلك فلا يحق لأحد أن يسخر إِنساناً خادماً له، أو عبداً له، نعم، نقولها بملء أفواهنا، لا ينجو الناس من ذل العبودية والسخرة والعمالة لبعضهم البعض، الا بالعبودية الخالصة لله تعالى، كما يقول عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات–56) والله تعالى غني عن عبادتنا له، ولكننا اذا لم نكن عبيداً له، غدونا عبيداً

للطواغيت، لِذا فعبوديَّتنا المُشَرِّفة لخالقنا و ربِّنا ومالكنا، هي أساس حُرِّيتنا و كرامتنا.

ألم تكن نظرية (الماركسية واللينينية) في الإتحاد السوفيتي السابق صنماً يُعبد من دون الله؟ ألم تكن جثة (لينين) المحنَّطة تعبد في قصر الكرملين؟ ألم يكن (ماركس) يُعبد كصنم؟ والبيت الأبيض، وقرارات الكونغرس، وَ آراء (جورج W بوش) وباقي القيادات الأمريكية، ألا ينظر الى كل أولئك كالكتاب المقدس؟! والإنسان لايمكنه العيش دون أن يكون له معبود يعبده، فإذا لَم تَعْبُدِ المعبود الحقيقي وهو (الله) لُذتَ بالمعبودات المزيَّفة، أو إنّك سَتَعْبُد إنساناً مثلك، سواء كان حياً أو ميتاً، أو إنّك ستعبد النجم والقمر والشمس، أو ستعبد حزباً، أو دولة، فالمهم أن الإنسان لا يستقيم حاله دون معبود.

2/ **الإنسان خليفة الله تعالى:**

ويعني ذلك ان الله تعالى استخلف الإنسان على هذه الأرض، وأعطاه حرية التصرّف فيها، ولكن بعد أن بيَّن له غاية وجوده وأعطاه المنهج الذي ينبغي له السَّير عليه، وَحذَّرَهُ منْ مغبَّة الإنحراف عنه.

يقول تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً﴾** (البقرة -30)، ويالها من مقام رفيع! وهل ثَمَّ مقام أرفع من هذا، ان مرتبة الإنسان تأتي بعد الله تعالى، لأن خليفة الله هو من ينوب عن الله على الأرض لعمارتها، كما ورد ذلك في آية أخرى سنستشهد بها لاحقاً.

3/ **إن الله تعالى خلق الإنسان بصورة فريدة، ونفخ فيه من روحه سبحانه:**

كما يقول تعالى: ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر-29)، والروح مخلوق خاص سماها الله تعالى بنفخته الخاصة، وهذا سرّ لا يعلمه الاّ الله تعالى، كما يقول سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الاسراء-85). والمهم أَن ذلك مقام رفيع وهبه الله تعالى للإِنسان، وفضّله بذلك على جميع الكائنات، فالله تعالى لم يقل عن أي من مخلوقاته الأخرى: أنه نفخ فيه من روحه.

4/ ان (آدم) أبو البشرية هو من سجدت له الملائكة، وهي ليست سجدة عبادة، وانما سجدة تكريم وتشريف:

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ﴾ (البقرة-34)، ويقول في آية أخرى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (الحجر-30).

5/ والإنسان حاملُ أمانة الله تعالى:

كما يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان﴾ (الاحزاب-72).

وهل هناك مقام أشرف من هذا المقام؟ إِنَّ الأَمانة التي أُلقيت على السماوات والأرض والجبال، عَجَزَتْ جميعها عن القيام بأعبائها، ولكن الإنسان اضطلع بحملها، وكان أهلاً لها، فما هي تلك الأمانة؟! الرّاجح في تفسير هذه اللفظة عند كثير من محقِّقي المفسِّرين أن المقصود بها هو: أن يعيش الإنسان على هذه الأرض بإِرادته واختياره، والهيئة التي أمر الله تعالى بها ويرضى عنها، ولكن الإنسان أُعطي كلا الإختيارين:

إختيار مرضاة الله، وَاختيار مَسْخطته، هذه هي الأَمانة الملقاة على عاتق الإنسان، السير على طريق الغواية، أو اختيار درب الهداية[1].

6/ والله جل جلاله وكّل عمارة الأرض الى الإنسان:

كما يقول تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأرض وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود- 61)، هناك من يظنون بأنه اذا ذكرت الديانة وجب الإمساك عن ذكر الدنيا، والله قد أوكل عمارة الأرض بالإنسان، وَأوجب ذلك على جميع الناس!!

7/ وسخّر الله تعالى الكون كلّه للإنسان:

كما تَدُلُّ عليه آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرض جميعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الجاثية- 13) ، وهناك من يتوهم أن أهل الدين يستاؤون من صعود الإنسان على القمر، أو الوصول الى المريخ في المستقبل، أو الى أيِّ جُرم آخر! ولكن على العكس من ذلك، فالإنسان اذا كان قد سما الى الفهم الأمثل للقرآن، ونظر من منظاره، فسيعلم أن الله تعالى سخر السموات والأرض للإنسان كي ينتفع منها، وعلى هذا، فلو تمكّن الإنسان من الوصول الى أبعد من القمر والمريخ، فمعناه حينئذٍ أنه سار في المجال الذي سخره الله له.

8/ والإنسان كريم على الله تعالى:

---

[1] أنظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ص673، إذ هو فسَّر(الأمانة) هنا بـ (إمتثال الأوامر واجتناب المحارم..)، وإنما يتمكَّن الإنسان من إمتثال الأوامر واجتناب المحارم، بإرادة الحرة.
وفسَّر ابن كثير (الأمانة) هنا بـ (الفرائض) مستنداً إلى رأي ابن عباس رضي الله عنهما، أنظر: المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص1108، كما وفسَّرها (الشيخ حسنين مخلوق) بـ (التكاليف والفرائض، أوكل مايُؤْتَمَنُ عليه من أمرٍ ونهيٍ، وشأن دينٍ ودنيا)، أنظر: (صفوة البيان لمعاني القرآن) ص538.

كما يقول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ (الإسراء–70) إن الله سبحانه وتعالى كرَّم الإنسان مع أن في علمه أن من بين البشر (هابيل وقابيل)، وَفيهم الكافر والمسلم، إذاً فتكريم الإنسان مسألة عمومية، وجميع بني الإنسان مكرمون في ذوات أنفسهم، ثم أين يكمن التكريم؟ انه في قوله تعالى: ﴿**وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ ففي الإنسان مجموعة من الإستعدادات والمؤهّلات لا توجد في غيره من المخلوقات، وهذا هو تكريمه سبحانه للبشر عموماً.

9/ والإنسان مخلوق في أحسن تقويم:

كما يقول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾(التين– 4) أي انه ليس هناك مخلوق آخر خُلق على الهيئة الحسنة التي خُلق عليها الإنسان.

10/ والإنسان حرٌّ مختارٌ:

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾ (الكهف –29)، وهذا من أكبر التكريم للانسان، فرغم أن الله تعالى لا يرضى بالكفر، الاّ انه لم يمنع عباده من اختيار ذلك الطريق أيضاً، لأن الإنسان لا يمكنه إثبات وجوده الا عندما يتمتع بالحرية.

الأساس الثالث:- المساواة بين الناس بكل أطيافهم وأجناسهم ولغاتهم المختلفة، وفي أنهم كلهم عبيد لله ذووا طبيعة واحدة، خلقوا لحكمة وغاية واحدة:

وهناك العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النَّبوية، تشير الى هذه المساواة إشارة واضحة، منها قوله تعالى:

1- ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ (التين- 4).

2- ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ (الاسراء-70) .

3- ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ (الحجرات – 13)

4- (كلكم لآدم وآدم خلق من تراب) (رواه أحمد وغيره). وهنا أود الإِشارة الى ميزتين أخريين للنظرة الإسلامية لحقوق الإنسان على النظرة الغربية، وهما :

الأولى: ليس إقرار الإسلام لحقوق الإنسان وضمانه لها، نتيجة لجهود أحد، فالله تعالى أنزل من جملة ما أنزل من قرآنه الآيات المتعلقة بهذه المسألة، فلم تعد بحاجة الى ثورات تندلع، او اجتماعات تُعقد، مطالبة بحقوق الإنسان، لأن الله تعالى هو خالق الناس، وهو الذي ضمن ابتداءً كرامة الإنسان وحرمته.

الثانية: لم يكتف الإسلام بالتحدث عن واجبات الإنسان وحقوقه كشعار، وإِنما أرسى لها آلية التنفيذ وسبل الضمان أيضاً، والإِيمان من أكبر تلك الضمانات، وكذلك الدولة التي يتحتم عليها الوقوف بما أوتيت من قوة، مع حرمة الإنسان وكرامته وحقوقه، والوقوف بوجه كل من يدوس تلك الحقوق تحت أية ذريعة من الذرائع.

المبحـث الثـاني

واجبـات الإنسان و حقوقه الأسـاسية في الإسلام

ليس في مقصودنا – ولـن نسـتطيع – في هـذا المبحـث، استقصـاء جميـع الحقوق التي رسمها الإسلام للإنسان، بل سنكتفي بِإشارة خاطفـة وملخصـة لأساسياتها:

أولاً: ضـمان حيـاة حـرة :

من الحقوق الأساسية التي أكد عليها الإسـلام، هـو ضـمان الحيـاة الحـرة والعزيزة للإنسان، استناداً الى أن الله تعالى خلق الإنسان لكي يختبره، وجعل الإختبار في فرض العبودية عليه، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾(الذاريات–56) ، ولا تتم تلك العبوديـة الا بـالإِلتزام بـدين الله تعالى: ﴿**اهدِنَـا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ** ﴾ (الفاتحة– 6).

وفي سبيل تمكن الإنسان من أداء اختباره بصـورة حسـنة، فقـد وهبـه الله تعالى حرية الإرادة ليختار مايشاء: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُـؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾(الكهف–29)، لهذا فلو أن الإسلام تأتّـتْ لـه فرصـة بنـاء دولة تَخْضَعُ لها جميع شعوب الأرض، لخـوَّل جميـع النـاس – دون التضـييق على أحد – حرية الإِختيار ما بين الإسـلام والكفـر، وَلَـوفّر أسـباب الحيـاة الحرة لكلا الصنفين على قدم المساواة، وذلـك لتتحقّـق حكمـة الله تعـالى في

خلقه للناس ألا وهي الإبتلاء: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك -2).

وهنا يمكن لأحد أن يتساءل: كيف تَدَعُ الدولةُ الإسلامية أن يبقى الناس على الكفر ويعيشوا تحت ظلها، أو ليست الجزية تؤخذ من أهل الكتاب من اليهود والنصارى و غيرهم فقط؟ وبغية الإجابة على هذا السؤال، أرى من المناسب أن أُجري تحقيقاً مختصراً، سبق و أن تناولت ذلك في بعض كتبي ومحاضراتي الأخرى، عن مسألة الجزية: هل تؤخذ فقط من أهل الكتاب ويتركون في العيش تحت ظل الدولة الإسلامية، أم ان ذلك الحكم ليس مختصاً بأهل الكتاب، وانما هو شامل لجميع الناس بما في ذلك أهل الشرك والإلحاد والزندقة؟ و بداية أصرِّح بما أعتقده في هذا المجال و أقول:

أرى أن الناس جميعاً يمكنهم العيش في ظل الدولة الإسلامية كائنةً ما كانت أديانهم وأفكارهم، وإنَّ بإمكانهم التمتع بحياة كريمة، والإستفادة من فرصة الإختبار في ظل الدولة والحكومة الإسلامية، وفي تصوري ان كل رأي غير هذا، هو رأي خاطيء و متعارض مع الكتاب والسنة، ثم هناك مسألة أخرى سبق وأن نَبَّهْتُ عليها وهي: أنَّ إعطاء الجزية من قبل المواطنين غير المسلمين في الدولة الإسلامية ليس شيئاً حتماً لازماً وشرطاً لامندوحة منه، بل هو شيء جائز في الأصل و كيفية التعامل معه يقع ضمن مايتفق عليه بين الطرفين: الدولة والمواطنين غير المسلمين، وقد أشبعت هذه المسألة بحثاً في كتابي:(الإسلام كما يتجلّى في كتاب الله) المجلد الثامن. وفيما يلى طائفة من الأدلة التي تثبت هذا الرأي الذي اخترناه:

1/ يقول تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة-256)
وقد أطلنا الحديث عن هذه الآية في السابق، ولا أرى داعياً للتكرار،

وخلاصـة ذلـك أن الإِكـراه ممنـوع في الإسـلام لغـرض فـرض الـدين والعقيدة.

والعقيدة لا يمكن فرضها بالإِجبار، لأن المُجْبَر سيكون عُرْضَةً للنفـاق، ومعلوم أن كفر النفاق والكفر الخفي شرٌّ وأضرُّ لأهل الإسلام من الكفر المعلن، لذلك فقد اشتد وعيد الله تعالى للمنافقين، وقد خُصِّصَتْ مساحة واسعة من آيات القرآن للكشف عـن مكائـد المنـافقين، ويكفـي ان الله سبحانه قد وضع الدرك الأسفل من النار للمنافقين: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِـي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾** (النساء-145) اذاً فلا يجوز حصر الكافر مابين اختيار الإسـلام مُكْرَهـاً والإضـطرار الى النفـاق، ومـا بـين القتـل، بـل للجميع حق البقاء على معتقـداتهم و أفكـارهم، شـريطة الإتفـاق مـع الدولة بدفع الجزية أو الموادعة أو غيرهما مـن صـور الإتفـاق، ليكونـوا مواطنين مكرمين تحت ظلّ الدولة الإسلامية.

2/ صرح الله تعالى في آيات كثيرة، بإعطائه حرية الإِختيار لعباده بين الكفـر و الايمان، وصرح كذلك بأنه لا يجوز إِكراه الناس حتى يكونوا مؤمنين، لنتأمل قوله تعالى: **﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِـي الأَرض كُلُّهُـمْ جَمِيعًـا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾** (يونس-99) وخاطب الله نبيـه الخاتم بقوله: **﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنـتَ مُـذَكِّرٌ ۞ لَّسْـتَ عَلَـيْهِم بِمُصَـيْطِرٍ﴾** (الغاشية21-22) ويقول أيضاً **﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾** (ق -45).

اذاً فحتى النَّبـي ﷺ، لم يُسَلّطْ على الكافرين، ولم يُعْـطَ سـوى حـق التذكير والإنذار.

3/ ان الله تعالى أعلن في القرآن أن الناس منقسمون الى مسلمين وكفار: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ (التغابن –2).

اذاً فمشيئة الله تعالى اقتضت وجود الكافرين والمسلمين، ثم انه لم يرد في أي نص من النصوص الشرعية، أن الكافرين يستأصلون ويبادون، بل حتى عندما أَمَرنا الله تعالى بإعداد القوة ضد الكافرين، كانت الحكمة هي إرعابهم و إخافتهم وليست إفناؤهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الانفال– 60).

4/ ومن حقنا أن نتساءل: اذا كانت الدولة الإسلامية تُخَيِّرُ أهلَ الكفر بين الإسلام الظاهري والقتل، فمتى وأين سيتم ابتلاء الله لعباده والتي ورد في كثير من الآيات القرآنية، ليس كغاية وحكمة من خلق الإنسان، فَحَسْبُ، بل لحكمة وغاية للوجود كله، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (هود– 7)، وواضحٌ أن اختبار الإنسان بلا تخيير حقيقي له، يصبح اسماً بلا مسمى، وهذا لا يليق بدين الله المُبـرَّءِ من الخلل والزلل، ويتعارض – بالتالي – مع الحكمة من خلق الإنسان.

5/ والنبي ﷺ كان من عادته اذا أرسل سرية أو جيشاً من أصحابه للقتال أن يعظهم ويُوَجِهِهم، وأن يُخَيِّروا أعداءهم من الكفار المحاربين أم ثلاث خياراتٍ، كما ورد في هذا الحديث: ((واذا لقيت عدوك من

المشركين فادعهم الى ثلاث خصال(1).. فإنْ أبَواْ فَسَلْهُم الجزية...)) (رواه مسلم:4497، عن سليمان بن بريدة عن أبيه).

وهذا الحديث يُثْبِتُ أَن المشركين أيضاً تؤخذ منهم الجزية، كما تؤخذ من أهل الكتاب، ولا فرق بينهم في ذلك، وبالتالي تسمح لهم الدولة الإسلامية بالعيش الكريم في ظلها.

6/ وورد هذا الحديث عن أخْذُ الجزية من الفرس، وهم بلا شك ليسوا من أهل الكتاب: ((قال مغيرة بن شعبة لعامل كسرى بين يدي معركة نهاوند: أمرنا نبيُّنا رسولُ ربنا ﷺ أن نُقاتِلَكُمْ حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدُّوا الجزية)) (رواه البخاري:3159).

7/ وورد هذا الحديث عن أخذ الجزية من مجوس هجر:

((..ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ أخَذَها – أي الجزية – من مجوس هجر)) (رواه البخاري:3156،3157).

وغني عن البيان ان المجوس كانوا عبدة النار، ولم يكونوا على أي دين من الأديان السماوية، ومع أننا في غِنىً – بعد كلام الله رسوله

(1) وهي – كما ورد في أصل النص – الإسلام، والجزية، والقتال، فلا يجوز الثاني الاّ عند فقد الأول، ولا يجوز الثالث الاّ عند انعدام الثاني ، وهذا هو نص الحديث: [عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سريَّةٍ أوصاه في خاصَّتِهِ بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: أُغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا مَن كفر بالله، أُغزوا ولاتغلُّوا، ولاتغدروا، ولاتَمثُلُوا *1*، ولاتقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوَّك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصالٍ –أوخلال- فأيَّتهنَّ ماأجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبلْ منهم، وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إنْ فعلوا: فك فلهم ماللمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبَوْا أن يتحوَّلوا منها فأخْبرهم أنَّهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولايكون لهم في الغنيمة و ألغي شيء، الا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبَوْا فَسَلْهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، فإن هم أبَوْا فاستعن بالله و قاتلهم...] رواه مسلم:4497.

1 مَثَلَ بالقتيل: جَدَعَهُ، ومَثَلَ بِهِ: نكَّل به والإسم: المُثْلَة، مختار الصحاح، ص530.

ﷺ – عن أي دليل آخر، ولكننا – زيادة في الإِطمئنان – سنعرِّجُ على أقوال بعض العلماء ذات الصلة بموضوعنا:

أ– قال الإِمام النووي رحمه الله عند شرحه لحديث (سليمان بن بريدة): (هذا مما استدل به مالك والأوزاعي وموافقوهما في أخذ الجزية من كل كافر عربياً كان أو أعجمياً، كتابياً أو مجوسياً أو غيرهما)[1]

ب– ويقول الصنعاني رحمهُ الله في شرح الحديث نفسه: (في الحديث دليل على أن الجزية تؤخذ من كل كافر كتابي أو غير كتابي، عربي أو غير عربي، لقوله (عدوَّك) وهو عام. وأما الآية فأفادت أخذ الجزية من أهل الكتاب، ولم تَتَعرَّضْ لأخذها من غيرهم أو لعدم أخذها، والحديث بين أخذها من غيرهم..

وأما عدم أخذها من العرب فلِأنَّها لم تُشْرَعْ الاّ بعد الفتح، وقد دخل العرب في الإسلام ولم يبق منهم محارب، و استمر هذا الحكم بعد عصره ﷺ ففتحت الصحابة رضي الله عنهم بلاد فارس والروم وفي رعاياهم العرب خصوصاً الشام والعراق، ولم يبحثوا عن عربي من عجمي، بل عمموا حكم السبي والجزية على جميع من استولوا عليه، وبهذا يعرف أن حديث بريدة كان بعد نزول فرض الجزية، وفرضها كان بعد الفتح، فكان فرضها في السنة الثامنة عند نزول براءة)[2]

ج– وكذلك يعتبر العلاّمة ابن القيم من المناصرين للرأي الذي اخترناه فهو يقول: (وقال طائفة في الأمم كلها اذا بذلوا الجزية قُبِلَتْ منهم. أهل الكتابَيْنِ بالقرآن، والمجوس بالسنة، ومن عداهم مُلْحَقٌ بهم، لأن

[1] شرح صحيح مسلم، ج7 ص 313.
[2] أنظر: سبل السلام، ج4، ص47.

المجوس أهل شرك لاكتاب لهم، فَأَخْذُها منهم دليل على أَخْذِها من جميع المشركين، وانما لم يأخذْها ﷺ من عُبّاد الأوثان من العرب، لأنهم أسلموا كلُّهم قبل نزول آية[1] الجزية، فإِنَّها نزلت بعد تبوك وكان رسول الله ﷺ فرغ من قتال العرب واستوثقت كُلُّها له بالإسلام، ولهذا لم يأخذها من اليهود الذين حاربوه، لأنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت، أخذها من نصارى العرب ومن المجوس، ولو بقي حينئذ أحد من عبدة الأوثان، بَذَلَها لَقَبِلَها منه، كما قَبِلَها من عبدة الصلبان والنيران، وهذا القول أصح في الدليل كما ترى)[2].

د/ والشوكاني كذلك من المؤيدين لهذا الرأي، ويقول: (قوله (فَسَلْهُم الجزية) ظاهِرُهُ عدم الفرق بين الكافر والعجمي والعربي وغير الكتابي)[3]. ويقول أيضاً (ظاهر الأدلة يقتضي أن بذل الجزية من أي كافر يوجِبُ الكَفَّ من مقاتلته... فإِنَّ قوله: (كان رسول الله) يدل على أن هذا كان من شأنه في كل جيش يَبْعَثُهُ..)[4] ، ويقول أيضاً: (والحاصل: أن من ادَّعى أن طائفة من طوائف الكفار لا يجوز ضرب الجزية عليه، بل يُخَيَّرُ بين الإسلام والسيف، فعليه الدليل، ولا دليل تقوم به الحجة الا ماورد في المرتد)[5]، وأُشير في نهاية هذا التحقيق الى أن حديثاً للنبيِّ ﷺ ، قد يثيرُ قلقاً وتردُّداً لدى البعض، من رجاحة

(1) المقصود بها الآية (29) من (التوبة) والتي هذا نصُّها: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ }.

2 أنظر: زاد المعاد في هدى خير العباد، ج5، ص91،92.

3 أنظر: نيل الأوطار، ج7، ص45.

4 أنظر: السَّيلُ الجرّار، ج4، ص570،571.

5 المصدر السابق.

الرأي الذي اخترناه، وهذا هو نص ذلك الحديث، ((أُمـرت أن أُقاتِـل الناس حتى يشهدوا أن لا الـه الا الله وأَنّ محمـداً رسـول الله، وقيمـوا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مِنِّي دِمـاءَهم وأمـوالهم إلاّ بحـق الإسـلام وحسـابهم علـى الله تعـالى)) (رواه البخـاري:25، ومسلم:22).

وظاهر الحديث يشير الى أن الناس مُخَيَّرون بين الإسلام والبروز الى ساحة القتال! ولكنّنا نقول بإيجاز: هذا الحديث مجمـل، وتفصـيله ورد في نصوص أخـرى، كمـا بيّنّـا هـذا في السـابق، فالنـاس دومـاً كـانوا يوضـعون بـين خيـارات ثلاثـة: إمّـا الإسـلام، أو الجزيـة، أو القتـال، والعلماء مُجْمِعُون على أن النصوص المجملة يجـب ان تُفهَـمَ في ضـوءِ النصوص المُفصَّلة، كي نتجنب الوقوع في الخطـأ، ولهـذا السـبب فقـد وضع علماء الأصول هذه القاعدة: (يُحْمَـلُ المُجمَـل علـى المُفَصَّـل)، ويغلب على ظنـي في نهاية الفقرات التي سبقت، أنه قد تبين أرجحيـة الرأي الذي اخترناه، وقد أيَّدَه – غير مالك وَالأوزاعي وابـن القـيم و الشوكاني والصنعاني – كثير من العلماء المعاصرين أيضاً(1) .

نعم أيّها الأخـوة !

كل الأقليات الفكرية والدينية بما فيهم الزنادقـة والملاحـدة، ولـيس أهـل الكتاب وحدهم، بِإمكانهم العيش بسلام في ظل الدولة الإسلامية، شـريطة الإتفاق والتفاهم معها ببذل الجزية أو غير ذلك، ولهم ان يبقوا علـى ديـنهم وتصورهم، ولكن عليهم ان يحترموا دستور الدولة وقوانينها وآدابها العامّة.

(1) أنظر (آثار الحرب ..) د. وهبة الزحيلي ص (701،702) و (الجهاد والقتال في السياسة الشرعية) د. محمد خير هيكل ، (1464).

والله تعالى جلت عظمته يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ (التغابن -2)، نرى أن الآية قدمت الكافر هنا، فما الحكمة من ذلك؟ قد يكون هناك من يتصور أن الإسلام اذا أصبح حاكماً، فلن يُبْقِيَ على كافر في الأرض، وهذا تصور خاطيء، لأن الله سبحانه قد حسم الأمر في الآية، حيث قال: إن الله خلقكم جميعاً، فمنكم كافر، ومنكم مؤمن. ولم يقل: يجب أن تبيدوا الكافرين! بل اعتبر وجود الصنفين شيئاً طبيعياً.

وعندما تحدث تعالى عن القوة والجهاد، قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الانفال-60) ولم يقل: تبيدون به... ولكنه قال ترهبون به... أي تمنعونهم بإعدادكم للقوة لئلاّ يتعدوا عليكم ويصبحوا عائقاً يعيقون مسيرة دعوتكم الإسلامية، وإلاّ فلا عليكم منهم، لأن الله لم يخلق الدنيا للمسلمين فقط.

ولا بأس أن أروي هذه الطرفة عن المؤرخ والرحالة المشهور (ابن بطوطة) يُقال أنه في رحلاته كان اذا وصل الى مكان، سأل الناس عن سكانه؟ فإذا قيل له: سكّانه مسلمون، قال: عمَّرها الله، واذا قيل سكانه كافرون، قال: دَمَّرها الله.

وتصور ابن بطوطة (رحمه الله) كان خاطئاً، لأن غاية الإسلام أن تُعمَّر الأرض جميعاً، سواء كان قاطنوها مسلمين أو كفاراً، فالمهم ألاّ يَصُدَّ الكافر الناس عن نظام الحكم الإسلامي، ولايناصبه العداء، وأن يستطيع المسلم اذا كانت له السلطة، أن يُعَمِّمَ دعوته في أرجاء الأرض، ثم الناس أحرارٌ يؤمنون أم لا، كما قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ...﴾ الكهف-29-.

فأمريكا اليوم تريد فرض أفكارهـا وقيمهـا علـى الـدنيا بأسـرها، مـع أن أفكارها و قيمَها نتاج أذهان مجموعة من البشر، ولكن الله تعالى إذ يرفض أن تُفْرَض شريعتَهُ على غـير المسـلمين، فقـد أوجـب علـى المسـلمين وأَلـزمَهم عرضها على الناس كلهم في الأرض كلِّها، من دون إكراه أو إجبـاره وهـي تحترم جميع الأقليات الفكرية والدينية وتَضْمَن للناس سعادة الدنيا والآخرة[1].

وإن من مقتضيات الحياة الحرة، أن يكون للإنسان حرية التفكير، وحريـة التعبير، وحرية العقيدة والتصور، والحريات السياسية والإجتماعية والشخصية والإِقتصادية، وسائر الحريات التي سنمرُّ عليها – فيما يلي – مرور الكرام.

ثانيـاً: ضـمان وحماية الضـروريات السَّـبع:

إِصطلح علماء الأصول في الشـريعة الإسـلامية علـى استعمال مصـطلح يســمونه (الضــروريات الســت) أو (الضــروريات الخمــس) وأنــا أقــول (الضروريات السَّبع) وهي أشياء ضرورية يتحتم على المجتمع المسلم والدولة المسلمة تضمينها، لكل مواطنيها بلا استثناء(2) وهي عبارة عن: حـق الـدين، وحق الحياة، وحق النسل، وحق العرض، وحق العقـل، وحـق المـال، وحـق الأمن، وهذه الأشياء السَّبعة يحتاجها كل انسان، وبدونها لا تستقيم الحياة.

1/ حق التديّن: لا ينحصر معنى الدين في الرسالات التي اُبْتُعِثَ الأنبياء بها، فهذا هو الدين الحق، بل إِن هذه الكلمة تشمل كل مـنهج يعمـل وفقـه

---

[1] ومن الواضح أن مهمة عرض الإسلام على الناس كلهم، أصبحت في هذا العصر بفضل الثورة المعلوماتية ووسائل الإعلام المتطورة، سَهْلاً مَيْسوراً على أهل الغيرة والـهمَّة من أهل الإسلام.

(2) أنظر (نظرية الإسلام وهديه) لأبي الأعلى المودودي، ص(308)، الذي يقول بهذا الصدد (والاسلام لا يفرق في هذا الباب بين سكان الدولة المسلمين وأهل الذمة، وهذا يضمن لكل رجل من أهل الذمة – كما يضمن لكل رجل من المسلمين – بأن الدولة لن تحرمه من المأكل والملبس والمسكن).

الإنسان في حياته، فإذا كان مما أنزلَهُ الله تعالى، فهو الدين الحق، وان كان منسوخاً أو محّرفاً أو مشوهاً، كالديانة اليهودية والنصرانية، أو أي دين إلهي آخر محَّرف، فهو دين باطل، إذ هذه الأديان وان كانت في أصلها صحيحة، إِلا أَنها نسخت بالإسلام بالإضافة الى كونها محرَّفة، وان كان من صنع الإنسان، كالعلمانية، والرأسمالية، والليبرالية والماركسية، والسوشيالية...إلخ – إذ لاشك بأنَّ هذه أيضاً أديان لكنها من نتاج العقول البشرية أنفسهم، فنطلق عليها اسم الأديان الوضعية، و(حق التديُّن) هو أن يكون الإنسان حراً في ظل الدولة الإسلامية، يختار أيَّ دين يفضِّله، وألاّ يُفْرَض عليه منهج ودين معين بالإِكراه، وألاّ يمنع أحد من ممارسة شعائره الدينية.

2/ **حق الحياة:** وهو ضمان الحياة الآمنة لرعايا الدولة الإسلامية، وحمايتها من كل أنواع المخاوف والإعتداءات، وحرمة الإعتداء على النفس بالقتل من هذا القبيل، ولهذا فرض الله الإقتصاص من القاتل العمد، إلاّ أن يعفو عنه وليُّ المقتول، كما في الآية (179) من (البقرة): (ولَكُمْ في القِصاصِ حَياةٌ ياأُولي الألباب لَعَلَّكُم تَتّقون).

3/ **حق النسل:** وهو ان لكل مواطن الحق ان تُهَيَّأَ له الظروف التي يستطيع من خلالها تكوين الأسرة والنسل، ومن قبيل حماية هذا الحق شرع تحريم الزنا وما شابهه.

4/ **حق العِرْض:** والمقصود به أنّ كل مواطن يجب أن يكون محفوظ العرض والكرامة والشخصية في ظل الدولة الإسلامية، وشرع تحريم القذف والغيبة والنميمة والتنابز بالألقاب، حماية لهذا الحق، سواء اذا مورس ضد مسلم أو غير مسلم، فالذي يرضى بالإِنضواء تحت الراية الإسلامية، فلا

تؤثر نوعية منهجه في استفادته من هذا الحق، ومادام الله تعالى قد خيّره بين الإِيمان والكفر، فليس من حق أحد – البتّة – أن يمنعه أو يعتدي على شخصيته وكرامته، فهو في هذا الحق المشترك مع المسلم سواء.

5/ حق العَقْل: لكل مواطن في ظل الدولة الإسلامية تنمية قدراته العقلية، وضمان حمايته من كل ما من شأنه الإِضرار به أو الحد من نشاطه، ولهذا حُرِّمت المواد المُسْكِرَة والمُخَدِّرة في الإِسلام، لبقاء العقل سليماً معافىً ، لأن الإنسان لا يميّز عن ذوات الأربع الاّ بعقله.

6/ حق المال: ولا بد أن تكون أموال الناس محفوظة في ظل النظام الإسلامي، فللمواطنين حق الكسب والحصول على المال الحلال، وكذلك تجب حماية أموالهم، ولهذا وضعت العقوبة الشديدة لردع السارق من مد يده الى أموال الناس، والغريب أن البعض يشفق على يد السارق، ولا يشفق على المسروق منه، ولا يضع حرمة لأموال الناس التي يكْتَسِبونها بعرق الجبين وشق الأنفس، فيأتي السارق ليسرقها ظلماً، ونحن نقول لأمثال هذا: هلاّ أشفقت على أموال الناس من المتعدّي عليها، بدل أن تذرف دموع التماسيح على دنيء تكفيه كلمة (السارق) عاراً وشناراً! وقد أكد النبـيّ ﷺ أيما تأكيد على هذا في آخر حجة في حياته، والتي سميت بحجة الوداع، وقد حضرها أكثر من (100.000) من صحابته الكرام. يقول ﷺ ((أيها الناس إِنَّ دماءكم و أموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بَلّغتُ؟ اللهم فاشهدْ)) (رواه مسلم:2941، وأبوداود:1905 وغيرهما[1]).

(1) وانظر لتفصيل خطبة حجة الوداع: (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النَّبوي والخلافة الراشدة) لمحمد حميد الله، ص360-368، الوثيقة رقم:287/ألف (خطبة حجة الوداع).

7/ حق الأمن: ولكل المواطنين في الدولة الإسلامية كلُّ الحق في الحياة الآمنة بالمعنى الواسع الشامل لكلمة (الأمن): نفسياً وجسدياً ومالياً وأُسَرياً..إلخ، ولهذا شرع الله تعالى عقوبة الحرابة والإفساد في الأرض لمنع العابثين بأمن الناس و إستقرار البلاد، كما في الآية (33) من (المائدة): (إنَّما جزآؤُا الَّذينَ يُحاربونَ اللّٰهَ وَرسولَهُ ويَسعَوْنَ في الأرضِ فَساداً أنْ يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقَطَّعَ أيديهِم ,أرجُلُهُم مِنْ خِلافٍ أو يُنْفَوْا مِنَ الأرضِ ذلِكَ لَهُم خِزْيٌ في الدُّنيا ولَهُم في الآخرة عذابٌ عظيم)

ثالثاً: الحقوق الشخصية والخاصة:

كل انسان في ظلِّ الإسلام لابدّ و أنْ تضمن له حقوقه الشخصية(1) وهي كثيرة منها: حرية اختيار العقيدة، وحرية التفكير والتعبير، حتى ان كثيراً من العلماء والمفكرين مثل: (المودودي(2)، وسيد قطب) وآخرون، يعتقدون ان أهلَ الكتاب والذمِّيين لهم الحق في الدعوة لمعتقداتهم، اذا كانوا يعيشون في ظل الدولة الإسلامية، على ألاّ يتحدثوا عن الإسلام بسوء، ولهم أن يدعوا لعقائدهم بصورة موضوعية، وقد جاء وفد نجران في زمن النبيِّ ﷺ الى المسجد النبّوي في المدينة، وقام خطيبهم يدافع عن عقيدتهم النصرانية، وقرأ

---

(1) أعني هنا الإنسان على اطلاقه، مسلماً أو غير مسلم، ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً.

(2) يقول أبو الأعلى المودودي: (الذي يظهر من هذا بوجه قاطع ان كل طائفة من طوائف البلاد إذا كانت لا توافق آراؤها آراء الأمة الإسلامية، لا تحول الدولة الإسلامية دون إظهار آرائها، واما إذا حاولت نشر أفكارها وحمل الجمهور عليها بالطرق الإرهابية والعمل على قلب نظام البلاد بالقوة، فهناك تؤاخذها الدولة وتجازيها على أعمالها) أنظر: (نظرية الإسلام وهدية)، ص(307).

عليهم النبيُّ ﷺ آيات الله عن الإسلام[1] ، وفي مسجد رسول الله ﷺ نفسها هاجم شاعر المشركين الإسلام بشعره، فطلب النبيُّ ﷺ من حسان بن ثابت –وكان شاعراً– أن يجيبه فأجابوهم شعراً بشعر، وخطبة بخطبة، وكلاماً بكلام، كما طلب منهم النبيُّ ﷺ، وقد حَدَث هذا والإسلام في أوج سلطته![2] ومن ضمن الحريات الشخصية، حرية اللباس، مع مراعاة الآداب الشرعية العامة في المجتمع المسلم، وحرية المأكل والمشرب، وحرية السفر والتنقل، وحرية السكن، وحرية التنزه والسفرات، فهناك من يشيعون عن الإسلاميين بأنهم إذا استولوا على سدّة الحكم، فسيمنعون حتى البسمات، والسفرات، والملابس الزاهية والطعام الشهي!!

ولكن هذا إختلاق لا أساس له من الصحة، لأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الاعراف– 32)، نعم مَنْ حرَّم الزينة والطيِّبات، ألم يخلق الله تلك المباهج والملذات لعباده؟ ولكنه تعالى يطالبنا أن نحصل عليها بصورة شرعية، وأنْ نستعملها بما يوافق الشرع.

رابعاً: الحقوق الإقتصادية:

لكل إنسان – في ظل الشريعة الإسلامية– حق التملُّك، والله تعالى يقول: ﴿فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة– 279).

---

[1] أنظر: السيرة النبوية لإبن هشام، ج2، ص308-314.

[2] أنظر: السيرة النبوية لإبن هشام، ج4، ص324-328، ط:2006، دار ابن الهيثم.

ولكل إِنسان كذلك أن يتكسب ويجمع الأموال كما يشاء على ألاّ يخالف الشرع، لذلك فـ(الربا) محرّم في الإسلام، وكذلك الإحتكار والغصب والسرقة، لأَنها تضرُّ بالمصلحة العامة للمجتمع.

وللإسلام موازنة عجيبة بين الحرية الشخصية ومصلحة المجتمع، بخلاف الأَنظمة الرأسمالية والإشتراكية، فالمجتمع في النظام الرأسمالي يداس من قبل الفرد، حيث إِنَّ الفرد له تكثير أمواله كيف يشاء، وبما يُعْجِبهُ من الوسائل، بالتجارة بالأشياء الممنوعة وَالمحرَّمة، وَ بالتجارة بالأجساد وأعراض الناس، وبأي شيء يحلو له، فالمهم أن يجمع المال الكثير، فالإنسان كفرد في النظام الرأسمالي، حرٌّ يفعل ما يشاء.

والنظام الإِشتراكي على العكس تماماً، فالفرد مسحوق تحت أقدام المجتمع بحجة المصالح العامة، وهكذا تُصادَرُ جميع الحريات، ولكن الإسلام شيء آخر، اذ أَنَّه يحترم الفرد ويكفل له حرياته، ولكن ليس على حساب مصالح المجتمع.

والفرد في الدولة الإسلامية اذا كان عاجزاً على تدبير أمور معاشه، فالدولة في هذه الحالة مكلفة بضمان حاجاته الضرورية، أورد (أبو يوسف) في كتابه (الخراج) هذه القصة: ((مَرَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد بسبب الجزية والحاجة والسن فقال: (ماأنصفناك كنّا أخذنا منكَ الجزية في شبيبتك، ثم ضَيَّعْناك في كِبَرِكَ) ثم أجرى عليه من بيت المال مايُصْلِحهُ ووضع عنه الجزية و عن ضَرَائِبِه))[1] ، أجَلْ إنّ رعايا الدولة الإسلامية وإن كانوا كفرة، لا يجوز أن تضطرهم الحاجة الى الإِستجداء والتسوُّلِ.

---

[1] الخراج، لأبي يوسف، ص126، و (منتخب كنز العمال من مسند أحمد (309/2)).

خامسـاً: الحقـوق الإجتماعـية :

من الحقوق الإجتماعية لكل فرد في الدولة الإسلامية، أن يتزوج و يُكوِّن الأسرة، ويحافظ على صحته وسلامته، وأن يتمكّن من تحقيق نشاطاته الإجتماعية، ولا شك أن الضروريات السَّبْع، شاملة لمثل هذه المسائل أيضاً.

سـادسـاً: الحقوق السياسـية :

للفرد في ظل الكيان الإسلامي حق ممارسة النشاط السياسي، وهـو ثلاثـة أنواع أساسية:

1/ وأول حق سياسي هو أن ينظر الى الأقـوام – كـأقوام – بمنظـار واحـد، وليس هناك في الشريعة أقليات قومية، وإنمـا هنـاك أقليـات دينيـة وفكريـة، ولكن لمـاذا لا توجـد أقليـات قوميـة؟ لأن الإسـلام ينظـر الى الأقـوام بعـين المسـاواة، فلـيس العربـي أفضـل مـن الكـردي، ولا الكـردي أفضـل مـن التركي... لخ، كما قال رسول الله ﷺ في خطبته المشهورة بِحَجَّة الـوداع: (ياأيهاالناس إنَّ ربك واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تُراب، أكرمكم عند اللـَّهِ أتقاكم، وليس لعربي على عجميٍّ فَضْلٌ إلاّ بالتقوى، ألا هَل بَلـَّغْتُ؟ اللّهم فاشهدْ، قالوا: نعم، قال: فَلْيُبَلِّغ الشاهدُ الغائِبَ)[1].

فإِذا كانت الأكثرية في الدولة الإسلامية مسـلمين، وكانـت هنـاك أقليـة يهودية أو مسيحية أو زرادشتية أو زنادقة، فحتى وفق المنهج الديمقراطي فإِن الأقلية حسب الدساتير العامة تكون خاضـعة للأكثريـة(٢)، فـالحق السياسـي

[1] رواه مسلم:2941، وأبوداود:1905.

(2) لاشك أن المنطقة التي تقع تحت سلطة الحكومة الإسلامية تسري عليها أحكام الشريعة دون الإعتبار لأن يكون المسلمون فيها أكثرية أو أقلية.

الأول اذاً هو الحق القومي، أي إن الأقوام جميعهم ينظر اليهم بعين المساواة.

2/ ثم حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لأهل الذمة –أي المواطنين غير المسلمين– أيضاً، فهم اذا ما رأوا مايخالف الحق والعدل، فلهم أن يمنعوا من ذلك، ويرى كثيرٌ من علماء الإسلام أن مجلس الشورى في الدولة الإسلامية، لابد أن يكون فيها نوابٌ عن جميع الأقليات الدينية، كاليهود والنصارى والصابئة والزرادشتين..إلخ، حتى يتمكّنوا من إيصال أخبار جماعتهم ومطالبهم الى المجلس ويدافعوا عن حقوقهم.

3/ وهناك حق سياسي آخر، وهو التعاون مع الحكام، وتقويم أخطائهم، وفي حالة بقائهم على إعوجاجهم، إتخاذ الموقف تجاههم، كعزل الحاكم وإبعاده من المؤسسات الحكومية، فالدولة إنما نَصَبَتْ ذلك الحاكم كي يقوم بتطبيق الشريعة..

4/ ومن الحقوق السياسية أيضاً أنْ تُسْنَد المسئوليات والوظائف الى الناس بحسب كفاءاتهم، وليس على أساس اللون واللغة والقرابة والدين والطائفة..الخ، ولا فرق في هذا بين المسلمين وغيرهم من المواطنين، باستثناء المناصب والوظائف التي خَصَّتها الشريعة بالمسلمين، أو بغير المسلمين.

5/ ومن الحقوق السياسة الأخرى، أن الناس سواسية أمام القانون، وليس لأحد درجة أو إمتياز على غيره، ومن كان مقامه أو منصبه أكبر من غيره، فيستلزم ذلك أن يكون التزامه أكثر من غيره بالنظام والقانون.

فهذه خلاصة عن الحقوق الأساسية للإنسان وواجباته في شريعة الله تعالى، وجدير بالذكر أنّنا انتهجنا في إشارتنا الى الواجبات والحقوق وخصوصاً الحقوق السياسية، أسلوب الإيجاز والإقتضاب، وإلاّ فالمسألة في حاجة الى تحقيق وإيضاح أكثر من هذا، وخصوصاً تأصيل مامرّ بنا بالنصوص الشرعية.

وأختتـــم هـــذه النـــدوة بهـــذه الملاحظـات الثلاث:

أولاً/ إن مما لا يليق بالإسلام الذي لقب نبيُّـهُ ﷺ (رحمة للعالمين) ألاّ يراعي حقوق الناس كبشر جميعاً بلاتمييز، أنظر الى قوله تعالى: ﴿**وما أرسناك إلاّ رحمةً للعالَمين**﴾ الأنبياء/ من الآية 107، فالعالمين هو كـل العـوالم وأقـلُّ ذلـك أن يشـمل أهـل الأرض جميعـاً، واذاً فلـو طبقـت شـريعة محمـد المصطفى ، فإن كل أهل الـدنيا سيسـتفيدون منهـا مسـلمهم وكـافرهم، وسيحترمون وتُكْفَلُ حقوقهم.

ثـانياً/ اذا كانت المصانع ترفق مع منتجاتها ما تسـميه بــ(الكتلوك) فـإنَّ الله سبحانه وتعالى – وله المثل الأعلى – قد خلق الإنسان وهو وحـده أهـل لتحديد الواجبات والحقوق له، وكما أنَّ أيّة آلة مهما كانت متطـورة اذا لم تُراع التعليمات المرفقة معها من قبل الشركة، ستعْطَبُ سريعاً وَستصبح كَسِقَطِ المتاع بلا نفع، كذلك الإنسان لا يتمتع بالمقام الرفيع الذي وهبهُ الله تعالى له، الا اذا سار وفق المنهج الذي رسمه الله تعالى له.

ثالثـاً/ وختاماً أقول: إنَّ عبودية الإنسان لله، تُحرِّره من عبوديـة العبـاد، ولا يمكن للإنسان العيش دون أن يكون له معبود، سواء كان معبوداً حقيقيـاً وهو الله تعالى، أو معبوداً باطلاً، كالأصـنام والطواغيـت المسـتبدين! ولا يتسنى للانسان أن يكون مكرَّماً موقّراً سالماً من الهواجس وهمـوم الـدنيا الاّ بعبوديته لِلهِ تعالى.

ندعوا الله جلّ في عليائـه أن يهـدي مجتمعنـا وَسـائر المجتمعـات المسـلمة للإنضواء تحت ظلال الشريعة الوارفة، وأن نسعى لتنفيذ ما على كواهلنا من واجبـات، وضـمان الحقـوق الـتي رسمهـا الله تعـالى لنـا في شـريعته العادلـة السَّمحاء.

الملحق: 1

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

اعتمد ونشر على الملأ بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 217 ألف (د-3) المؤرخ في 10 كانون الأول/ديسمبر 1948

الديباجة

لما كان الإقرار بما لجميع أعضاء الأسرة البشرية من كرامة أصيلة فيهم، ومن حقوق متساوية وثابتة، يشكل أساس الحرية والعدل والسلام في العالم، ولما كان تجاهل حقوق الإنسان وازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال أثارت بربريتها الضمير الإنساني، وكان البشر قد نادوا ببزوغ عالم يتمتعون فيه بحرية القول والعقيدة وبالتحرر من الخوف والفاقة، كأسمى ما ترنو إليه نفوسهم.

ولما كان من الأساسي أن تتمتع حقوق الإنسان بحماية النظام القانوني إذا أريد للبشر ألا يضطروا آخر الأمر إلى اللياذ بالتمرد على الطغيان والاضطهاد.

ولما كان من الجوهري العمل على تنمية علاقات ودية بين الأمم،
ولما كانت شعوب الأمم المتحدة قد أعادت في الميثاق تأكيد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية، وبكرامة الإنسان وقدره، وبتساوي الرجال والنساء في الحقوق، وحزمت أمرها على النهوض بالتقدم الاجتماعي وبتحسين مستويات الحياة في جو من الحرية أفسح،
ولما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالعمل، بالتعاون مع الأمم المتحدة على ضمان تعزيز الاحترام والمراعاة العالميين لحقوق الإنسان وحرياته الأساسية.
ولما كان التقاء الجميع على فهم مشترك هذه الحقوق والحريات أمرا بالغ الضرورة لتمام الوفاء بهذا التعهد.
فإن الجمعية العامة:
تنشر على الملأ هذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بوصفه المثل الأعلى المشترك الذي ينبغي أن تبلغه كافة الشعوب وكافة الأمم، كيما يسعى جميع أفراد المجتمع وهيئاته، واضعين هذا الإعلان نصب أعينهم على الدوام، ومن خلال التعليم والتربية، إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات، وكيما يكفلوا، بالتدابير المطردة الوطنية والدولية، الإِعتراف العالمي بها ومراعاتها الفعلية، فيما بين شعوب الدول الأعضاء ذاتها وفيما بين شعوب الأقاليم الموضوعة تحت ولايتها على السواء.
المادة 1
يولد جميع الناس أحرارا ومتساوين في الكرامة والحقوق. وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء.
المادة 2

لكل إنسان حق التمتع بجميع الحقوق والحريات المذكورة في هذا الإعلان، دونما تمييز من أي نوع، ولا سيما التمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو الرأي سياسيا وغير سياسي، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي، أو الثروة، أو المولد، أو أي وضع آخر . وفضلا عن ذلك لا يجوز التمييز علي أساس الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي للبلد أو الإقليم الذي ينتمي إليه الشخص، سواء أكان مستقلا أو موضوعا تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أم خاضعا لأي قيد آخر علي سيادته .

المادة 3

لكل فرد حق في الحياة والحرية وفى الأمان على شخصه .

المادة 4

لا يجوز استرقاق أحد أو استعباده، ويحظر الرق والاتجار بالرقيق بجميع صورهما .

المادة 5

لا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو الحاطة بالكرامة.

المادة 6

لكل إنسان، في كل مكان، الحق بأن يعترف له بالشخصية القانونية .

المادة 7

الناس جميعا سواء أمام القانون، وهم يتساوون في حق التمتع بحماية القانون دونما تمييز،، كما يتساوون في حق التمتع بالحماية من أي تمييز ينتهك هذا الإعلان ومن أي تحريض على مثل هذا التمييز .

المادة 8

لكل شخص حق اللجوء إلى المحاكم الوطنية المختصة لإنصافه الفعلي من أية أعمال تنتهك الحقوق الأساسية التي يمنحها إياه الدستور أو القانون.

المادة 9

لا يجوز اعتقال أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفا.

المادة 10

لكل إنسان، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، الحق في أن تنظر قضيته محكمة مستقلة ومحايدة، نظرا منصفا وعلنيا، للفصل في حقوقه والتزاماته وفى أية تهمة جزائية توجه إليه.

المادة 11

1-كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئا إلى أن يثبت ارتكابه لها قانونا في محاكمة علنية تكون قد وفرت له فيها جميع الضمانات اللازمة للدفاع عن نفسه.

2- لا يدان أي شخص بجريمة بسبب أي عمل أو امتناع عن عمل لم يكن في حينه يشكل جرما بمقتضى القانون الوطني أو الدولي، كما لا توقع عليه أية عقوبة أشد من تلك التي كانت سارية في الوقت الذي ارتكب فيه الفعل الجرمي.

المادة 12

لا يجوز تعريض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو في شؤون أسرته أو مسكنه أو مراسلاته، ولا لحملات تمس شرفه وسمعته. ولكل شخص حق في أن يحميه القانون من مثل ذلك التدخل أو تلك الحملات.

المادة 13

1- لكل فرد حق في حرية التنقل وفى اختيار محل إقامته داخل حدود الدولة
.

2- لكل فرد حق في مغادرة أي بلد، بما في ذلك بلده، وفى العودة إلى بلده .

المادة 14

.1لكل فرد حق التماس ملجأ في بلدان أخرى والتمتع به خلاصا من الاضطهاد
.

.2لا يمكن التذرع بهذا الحق إذا كانت هناك ملاحقة ناشئة بالفعل عن جريمة غير سياسية أو عن أعمال تناقض مقاصد الأمم المتحدة ومبادئها .

المادة 15

1- لكل فرد حق التمتع بجنسية ما .

2- لا يجوز، تعسفا، حرمان أي شخص من جنسيته ولا من حقه في تغيير جنسيته .

المادة 16

1-للرجل والمرأة، متى أدركا سن البلوغ، حق التزوج وتأسيس أسرة، دون أي قيد بسبب العرق أو الجنسية أو الدين .وهما متساويان في الحقوق لدى التزوج وخلال قيام الزواج ولدى انحلاله .

2- لا يعقد الزواج إلا برضا الطرفين المزمع زواجهما رضاء كاملا لا إكراه فيه .

3- الأسرة هي الخلية الطبيعية والأساسية في المجتمع، ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة .

المادة 17

1-لكل فرد حق في التملك، بمفرده أو بالاشتراك مع غيره .
2- لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفا .

المادة 18

لكل شخص حق في حرية الفكر والوجدان والدين، ويشمل هذا الحق حريته في تغيير دينه أو معتقده، وحريته في إظهار دينه أو معتقده بالتعبد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حده .

المادة 19

لكل شخص حق التمتع بحرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفى التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين، بأية وسيلة ودونما اعتبار للحدود.

المادة 20

1-لكل شخص حق في حرية الاشتراك في الاجتماعات والجمعيات السلمية .
2- لا يجوز إرغام أحد على الانتماء إلى جمعية ما .

المادة 21

1- لكل شخص حق المشاركة في إدارة الشئون العامة لبلده، إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون في حرية .
2- لكل شخص، بالتساوي مع الآخرين، حق تقلد الوظائف العامة في بلده .

3-إرادة الشعب هي مناط سلطة الحكم، ويجب أن تتجلى هذه الإرادة من خلال انتخابات نزيهة تجرى دوريا بالاقتراع العام وعلى قدم المساواة بين

الناخبين وبالتصويت السري أو بإجراء مكافئ من حيث ضمان حرية التصويت .

المادة 22

لكل شخص، بوصفه عضوا في المجتمع، حق في الضمان الاجتماعي، ومن حقه أن توفر له، من خلال المجهود القومي والتعاون الدولي، وبما يتفق مع هيكل كل دولة ومواردها، الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي لا غنى عنها لكرامته ولتنامي شخصيته في حرية .

المادة 23

1- لكل شخص حق العمل، وفي حرية اختيار عمله، وفي شروط عمل عادلة ومرضية، وفي الحماية من البطالة .

2- لجميع الأفراد، دون أي تمييز، الحق في أجر متساو على العمل المتساوي .

3- لكل فرد يعمل حق في مكافأة عادلة ومرضية تكفل له ولأسرته عيشة لائقة بالكرامة البشرية، وتستكمل، عند الاقتضاء، بوسائل أخرى للحماية الاجتماعية .

4-لكل شخص حق إنشاء النقابات مع آخرين والانضمام إليها من أجل حماية مصالحه.

المادة 24

لكل شخص حق في الراحة وأوقات الفراغ، وخصوصا في تحديد معقول لساعات العمل وفي إجازات دورية مأجورة .

المادة 25

1- لكل شخص حق في مستوى معيشة يكفى لضمان الصحة والرفاهة له ولأسرته، وخاصة على صعيد المأكل والملبس والمسكن والعناية الطبية وصعيد الخدمات الاجتماعية الضرورية، وله الحق في ما يأمن به الغوائل في حالات البطالة أو المرض أو العجز أو الترمل أو الشيخوخة أو غير ذلك من الظروف الخارجة عن إرادته والتي تفقده أسباب عيشه .

2-للأمومة والطفولة حق في رعاية ومساعدة خاصتين .ولجميع الأطفال حق التمتع بذات الحماية الاجتماعية سواء ولدوا في إطار الزواج أو خارج هذا الإطار.

المادة 26

1- لكل شخص حق في التعليم. ويجب أن يوفر التعليم مجانا، على الأقل في مرحلتيه الابتدائية والأساسية. ويكون التعليم الابتدائي إلزاميا. ويكون التعليم الفني والمهني متاحا للعموم. ويكون التعليم العالي متاحا للجميع تبعا لكفاءتهم .

2-يجب أن يستهدف التعليم التنمية الكاملة لشخصية الإنسان وتعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية. كما يجب أن يعزز التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الأمم وجميع الفئات العنصرية أو الدينية، وأن يؤيد الأنشطة التي تضطلع بها الأمم المتحدة لحفظ السلام .

3-للآباء، على سبيل الأولوية، حق اختيار نوع التعليم الذي يعطى لأولادهم.

المادة 27

1-لكل شخص حق المشاركة الحرة في حياة المجتمع الثقافية، وفى الاستمتاع بالفنون، والإسهام في التقدم العلمي وفى الفوائد التي تنجم عنه .

2-لكل شخص حق في حماية المصالح المعنوية والمادية المترتبة على أي إنتاج علمي أو أدبي أو فني من صنعه.

المادة 28

لكل فرد حق التمتع بنظام اجتماعي ودولي يمكن أن تتحقق في ظله الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحققا تاما.

المادة 29

1-على كل فرد واجبات إزاء الجماعة، التي فيها وحدها يمكن أن تنمو شخصيته النمو الحر الكامل.

2-لا يخضع أي فرد، في ممارسة حقوقه وحرياته، إلا للقيود التي يقررها القانون مستهدفا منها، حصرا، ضمان الاعتراف الواجب بحقوق وحريات الآخرين واحترامها، والوفاء بالعادل من مقتضيات الفضيلة والنظام العام ورفاه الجميع في مجتمع ديمقراطي.

3.لا يجوز في أي حال أن تمارس هذه الحقوق على نحو يناقض مقاصد الأمم المتحدة ومبادئها.

المادة 30

ليس في هذا الإعلان أي نص يجوز تأويله على نحو يفيد انطواءه على تخويل أية دولة أو جماعة، أو أي فرد، أي حق في القيام بأي نشاط أو بأي فعل يهدف إلى هدم أي من الحقوق والحريات المنصوص عليها فيه.

الملحق : 2

إعلان القاهرة حول حقوق الإنسان في الإسلام

تم إجازته من قبل مجلس وزراء خارجية منظمة مؤتمر العالم الإسلامي ،القاهرة، 5أغسطس 1990

الديباجة

تأكيدا للدور الحضاري والتاريخي للأمة الإسلامية التي جعلها الله خير أمة أورثت البشرية حضارة عالمية متوازنة ربطت الدنيا بالآخرة وجمعت بين العلم والإيمان، وما يرجى أن تقوم به هذه الأمة اليوم لهداية البشرية الحائرة بين التيارات والمذاهب المتناقضة وتقديم الحلول لمشكلات الحضارة المادية المزمنة.

ومساهمة في الجهود البشرية المتعلقة بحقوق الإنسان التي تهدف إلي حمايته من الاستغلال والاضطهاد وتهدف إلي تأكيد حريته وحقوقه في الحياة الكريمة التي تتفق مع الشريعة الإسلامية.

وثقة منها بأن البشرية التي بلغت في مدارج العلم المادي شأنا بعيدا، لا تزال، وستبقي في حاجة ماسة إلي سند إيماني لحضارتها وإلي وازع ذاتي يحرس حقوقها.

وإيمانا بأن الحقوق الأساسية والحريات العامة في الإسلام جزء من دين المسلمين لا يملك أحد بشكل مبدئي تعطيلها كليا أو جزئيا، أو خرقها أو تجاهلها في أحكام إلهية تكليفية أنزل الله بها كتبه، وبعث بها خاتم رسله وتمم بها ما جاءت به الرسالات السماوية وأصبحت رعايتها عبادة، وإهمالها أو العدوان عليها منكرا في الدين وكل إنسان مسؤول عنها بمفرده، والأمة مسؤولة عنها بالتضامن، وأن الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي تأسيسا علي ذلك تعلن ما يلي:

المادة 1

أ- البشر جميعا أسرة واحدة جمعت بينهم العبودية لله والبنوَّة لآدم وجميع الناس متساوون في أصل الكرامة الإنسانية وفي أصل التكليف والمسؤولية دون تمييز بينهم بسبب العرق أو اللون أو اللغة أو الجنس أو المعتقد الديني أو الانتماء السياسي أو الوضع الاجتماعي أو غير ذلك من الاعتبارات. وأن العقيدة الصحيحة هي الضمان لنمو هذه الكرامة على طريق تكامل الإنسان.

ب- أن الخلق كلهم عيال الله وأن أحبهم إليه أنفعهم لعياله وأنه لا فضل لأحد منهم علي الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح.

المادة 2

أ- الحياة هبة الله وهي مكفولة لكل إنسان، وعلى الأفراد والمجتمعات والدول حماية هذا الحق من كل اعتداء عليه، ولا يجوز إزهاق روح دون مقتضٍ شرعي.

ب- يحرم اللجوء إلي وسائل تفضي إلي إفناء الينبوع البشري.

ج- المحافظة علي استمرار الحياة البشرية إلي ما شاء الله واجب شرعي.

د- سلامة جسد الإنسان مصونة، ولا يجوز الاعتداء عليها، كما لا يجوز المساس بها بغير مسوغ شرعي، وتكفل الدولة حماية ذلك.

المادة 3

أ- في حالة استخدام القوة أو المنازعات المسلحة، لا يجوز قتل من لا مشاركة لهم في القتال كالشيخ والمرأة والطفل، وللجريح والمريض الحق في أن يداوي وللأسير أن يطعم ويؤوى ويكسى، ويحرم التمثيل بالقتلى، ويجب تبادل الأسري وتلاقي اجتماع الأسر التي فرقتها ظروف القتال.

ب- لا يجوز قطع الشجر أو إتلاف الزرع والضرع أو تخريب المباني والمنشآت المدنية للعدو بقصف أو نسف أو غير ذلك.

المادة 4

لكل إنسان حرمته والحفاظ علي سمعته في حياته وبعد موته وعلي الدول والمجتمع حماية جثمانه ومدفنه.

المادة 5

أ- الأسرة هي الأساس في بناء المجتمع، والزواج أساس تكوينها وللرجال والنساء الحق في الزواج ولا تحول دون تمتعهم بهذا الحق قيود منشؤها العرق أو اللون أو الجنسية.

ب- علي المجتمع والدولة إزالة العوائق أمام الزواج وتيسير سبله وحماية الأسرة ورعايتها.

المادة 6

أ- المرأة مساوية للرجل في الكرامة الإنسانية، ولها من الحق مثل ما عليها من الواجبات ولها شخصيتها المدنية وذمتها المالية المستقلة وحق

الاحتفاظ باسمها ونسبها.

ب- على الرجل عبء الإنفاق علي الأسرة ومسئولية رعايتها.

المادة 7

أ- لكل طفل عند ولادته حق علي الأبوين والمجتمع والدولة في الحضانة والتربية والرعاية المادية والصحية والأدبية كما تجب حماية الجنين والأم وإعطاؤهما عناية خاصة.

ب- للآباء ومن يحكمهم، الحق في اختيار نوع التربية التي يريدون لأولادهم مع وجوب مراعاة مصلحتهم ومستقبلهم في ضوء القيم الأخلاقية والأحكام الشرعية.

للأبوين على الأبناء حقوقهما وللأقارب حق على ذويهم وفقا لأحكام الشريعة .

المادة 8

لكل إنسان التمتع بأهليته الشرعية من حيث الإلزام والالتزام وإذا فقدت أهليته أو انتقصت قام وليه – مقامه.

المادة 9

أ- طلب العلم فريضة والتعليم واجب على المجتمع والدولة وعليها تأمين سبله ووسائله وضمان تنوعه بما يحقق مصلحة المجتمع ويتيح للإنسان معرفة دين الإسلام وحقائق الكون وتسخيرها لخير البشرية.

ب- من حق كل إنسان علي مؤسسات التربية والتوجيه المختلفة من الأسرة والمدرسة وأجهزة الإعلام وغيرها أن تعمل علي تربية الإنسان دينيا ودنيويا تربية متكاملة متوازنة تنمي شخصيته وتعزز إيمانه بالله واحترامه للحقوق والواجبات وحمايتها.

المادة 10

الإسلام هو دين الفطرة، ولا يجوز ممارسة أي لون من الإكراه علي الإنسان أو استغلال فقره أو جهله على تغيير دينه إلى دين آخر أو إلى الإلحاد .

المادة 11

أ- يولد الإنسان حرا وليس لأحد أن يستعبده أو يذله أو يقهره أو يستغله ولا عبودية لغير الله تعالى.

ب- الاستعمار بشتى أنواعه وباعتباره من أسوأ أنواع الاستعباد محرم تحريما مؤكدا، وللشعوب التي تعانيه الحق الكامل للتحرر منه وفي تقرير المصير، وعلى جميع الدول والشعوب واجب النصرة لها في كفاحها لتصفية كل أشكال الاستعمار أو الاحتلال، ولجميع الشعوب الحق في الاحتفاظ بشخصيتها المستقلة والسيطرة علي ثرواتها ومواردها الطبيعية.

ج- للأبوين على الأبناء حقوقهما وللأقارب حق على ذويهم وفقا لأحكام الشريعة.

المادة 12

لِكلِّ إنسان الحق في إطار الشريعة في حرية التنقل، واختيار محل إقامته داخل بلاده أو خارجها، وله إذا اضطهد حق اللجوء إلى بلد آخر وعلى البلد الذي لجأ إليه أن يجيره حتى يبلغه مأمنه ما لم يكن سبب اللجوء اقتراف جريمة في نظر الشرع.

المادة 13

العمل حق تكفله الدولة والمجتمع لكل قادر عليه، وللإنسان حرية اختيار العمل اللائق به مما تتحقق به مصلحته ومصلحة المجتمع، وللعامل حقه في

الأمن والسلامة وفي كافة الضمانات الاجتماعية الأخرى. ولا يجوز تكليفه بما لا يطيقه، أو إكراهه، أو استغلاله، أو الإضرار به، وله –دون تمييز بين الذكر والأنثى– أن يتقاضى أجرا عادلا مقابل عمله دون تأخير وله الإِجارات والعلاوات والفروقات التي يستحقها، وهو مطالب بالإخلاص والإتقان، وإذا اختلف العمال وأصحاب العمل فعلى الدولة أن تتدخل لفض النزاع ورفع الظلم وإقرار الحق والإلزام بالعدل دون تحيز.

المادة 14

للإنسان الحق في الكسب المشروع، دون احتكار أو غش أو إضرار بالنفس أو بالغير والربا ممنوع مؤكدا.

المادة 15

أ– لكل إنسان الحق في التملك بالطرق الشرعية، والتمتع بحقوق الملكية بما لا يضر به أو بغيره من الأفراد أو المجتمع، ولا يجوز نزع الملكية إلا لضرورات المنفعة العامة ومقابل تعويض فوري وعادل.

ب– تحرم مصادرة الأموال وحجزها إلا بمقتضى شرعي.

المادة 16

لكل إنسان الحق في الإنتفاع بثمرات إنتاجه العلمي أو الأدبي أو الفني أو التقني. وله الحق في حماية مصالحه الأدبية والمالية العائدة له على أن يكون هذا الإنتاج غير مناف لأحكام الشريعة.

المادة 17

أ– لكل إنسان الحق في أن يعيش بيئة نظيفة من المفاسد والأوبئة الأخلاقية تمكنه من بناء ذاته معنويا، وعلى المجتمع والدولة أن يوفرا له هذا الحق.

ب- لكل إنسان على مجتمعه ودولته حق الرعاية الصحية والاجتماعية بتهيئة جميع المرافق العامة التي تحتاج إليها في حدود الإمكانات المتاحة.

ج- تكفل الدولة لكل إنسان حقه في عيش كريم يحقق له تمام كفايته وكفاية من يعوله ويشمل ذلك المأكل والملبس والمسكن والتعليم والعلاج وسائر الحاجات الأساسية.

المادة 18

أ- لكل إنسان الحق في أن يعيش آمناً على نفسه ودينه وأهله وعرضه وماله.

ب- للإنسان الحق في الاستقلال بشؤون حياته الخاصة في مسكنه وأسرته وماله واتصالاته، ولا يجوز التجسس أو الرقابة عليه أو الإساءة إلى سمعته وتجنب حمايته من كل تدخل تعسفي.

ج- للمسكن حرمته في كل الأحوال ولا يجوز دخوله بغير إذن أهله أو بصورة غير مشروعة، ولا يجوز هدمه أو مصادرته أو تشريد أهله منه.

المادة 19

أ- الناس سواسية أمام الشرع، يستوي في ذلك الحاكم والمحكوم.

ب- حق اللجوء إلى القضاء مكفول للجميع.

ج- المسؤولية في أساسها شخصية.

د- لا جريمة ولا عقوبة إلا بموجب أحكام الشريعة.

هـ- المتهم بريئ حتى تثبت إدانته بمحاكمة عادلة تؤمن له فيها كل الضمانات الكفيلة بالدفاع عنه.

المادة 20

لا يجوز القبض على إنسان أو تقييد حريته أو نفيه أو عقابه بغير موجب شرعي .ولا يجوز تعريضه للتعذيب البدني أو النفسي أو لأي من أنواع المعاملات المذلة أو القاسية أو المنافية للكرامة الإنسانية، كما لا يجوز إخضاع أي فرد للتجارب الطبية أو العلمية إلا برضاه وبشرط عدم تعرض صحته وحياته للخطر، كما لا يجوز سن القوانين الاستثنائية التي تخول ذلك للسلطات التنفيذية.

المادة 21

أخذ الإنسان رهينة محرم بأي شكل من الأشكال ولأي هدف من الأهداف.

المادة 22

أ- لكل إنسان الحق في التعبير بحرية عن رأيه بشكل لا يتعارض مع المبادئ الشرعية.

ب- لكل إنسان الحق في الدعوة إلي الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفقا لضوابط الشريعة الإسلامية.

ج- الإعلام ضرورة حيوية للمجتمع، ويحرم استغلاله وسوء استعماله والتعرض للمقدسات وكرامة الأنبياء فيه، وممارسة كل ما من شأنه الإخلال بالقيم أو إصابة المجتمع بالتفكك أو الانحلال أو الضرر أو زعزعة الإِعتقاد.

د- لا يجوز إثارة الكراهية القومية والمذهبية وكل ما يؤدي إلي التحريض على التمييز العنصري بكافة أشكاله.

المادة 23

أ- الولاية أمانة يحرم الإِستبداد فيها وسوء استغلالها تحريما مؤكدا ضمانا للحقوق الأساسية للإنسان.

ب- لكل إنسان حق الإِشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده بصورة مباشرة أو غير مباشرة، كما أن له الحق في تقلد الوظائف العامة وفقا لأحكام الشريعة.

المادة 24

كل الحقوق والحريات المقررة في هذا الإعلان مقيدة بأحكام الشريعة الإسلامية.

المادة 25

الشريعة الإسلامية هي المرجع الوحيد لتفسير أو توضيح أي مادة من مواد هذه الوثيقة.

الحلقــة الثالثة

الإرهاب في ميزان الشّـريعَة

الإرهاب في ميزان الشـريعة

تمهيد

قرائـي الأحبــة !

الرسالة التي في متناول أيديكم هي الحلقة الثالثة ضمن ((قضايا معاصرة)) وهـي في الأصـل محاضـرة ألقيـت في نـدوة عقـدها مركـز الجماعـة لـي في السليمانية في 4/جمادي الثانية (1423- 15/8/2002) في قاعة (الثقافة)، ثم تجشم أحد إخوتنا عناء تفريغها من الشريط الصوتي، فيما أعـاد كتابتهـا ورتبها أخٌ آخر، وقد راجعتها ختاماً وتصرفت في بعض الكلمـات والجمـل تصرفاً يسيراً، وفيما عدا ذلك فقد أثبتُّها كما هي تماماً، فجزى الله الأخـوين على صنَيعهما، وجعل هـذا النّتَـاج – مسموعاً ومرئيـاً ومكتوبـاً – مَـدعاة لإِزالة الغشاوة عن أعين الكثيرين من الذين فهمـوا – يـا للأسـى – مسـألة الإرهاب بخطأ بالغ، فهم يعتبرون ذلـك مرتبطـاً بالإسـلام بصـورة مباشـرة، والحال ان هذا المصطلح لايمتّ الى الإسـلام والمسـلمين بـأدنى صـلة لامـن حيث الإِصطلاح الفكري والسياسي، ولا من حيـث الجـوهر أو المضـمون، وبالتالي فليس له في الشريعة مكان، كما هـومبين في هـذه الرسـالة ومثبـت بأدلة شرعية وعقلية دامغة.

الــمقــدمــة

أرحِّب –بـادئ ذي بـدء– بجميـع الحضـور، وأخـص بالـذكر الأسـاتذة الكرام، نسأل الله تعالى ان يجعل مجلسنا هذا مفعماً بالخير لدنيانا وأخرانا.

أعزائــي!

تعد مسألة الإرهاب من أكثر المسائل المثارة في أيامنا، ولا يخفى ان شـريعة الله لم تترك مسألة مُهمَّةً لم تضع فيها النَّقاط على الحروف، علمـه مَن علمـه وجهله من جهله، ومِن منطلق أن مسألة الإرهـاب تَتَضـمَّن ولايـزال تمويهـاً كثيراً، وهناك أناس غافلون أو متغافلون يريدون ان يجعلوا الإرهـاب مرادفـاً للإِسْلام، وبحسب اطلاعي في الكتـاب والسـنة، وبـالنظر الى تـأريخ الدولـة الإسلامية، إعتبارًا من اليوم الذي وضع رسول الله ﷺ حجر الأسـاس لهـا وحتى نهايتها على يد (كمال أَتاتورك) بتخطيط من الإِمبرياليـة العالميـة سـنة (1924)، يلاحظ ان الإسلام والمجتمع الإسلامي والدولة الإسـلامية كانـت بريئة من الإرهاب، فيا عجباً مـا الـذي يحـدو بـالبعض في سـبيل الإِسـتبراء والتنزُّه من تهمة الإرهاب، ان يبتعدوا من الدين مـن أساسـه ومـن الإسـلام بِرُمتَّهِ، وعلى أحسن الأحوال اذا لم يرفضوا الإسلام جملـة، فـلا أقـلَّ مـن ان يعتبروه حالة شخصية تشمل الإيمـان والعقيـدة لـذات الشـخص، ويتوجـب عليه الإبتعاد عن العمل الإسلامي، وتجنُّب الجهـاد في سـبيل الله وإن تَحَـتَّمَ، كي يضمن براءة ساحته من التهمة المشارة اليها آنفاً.

وانّني سأتناولُ – بإذن الله تعالى – موضوع الإرهاب من خلال خمس وقفاتٍ وبالصورة الآتية:

تشمل الوقفة الأولى تعريف الإرهاب من الناحية اللغوية والمصدر الذي انبثقت عنه كلمة (Terror) والمكان الذي ظهرت فيه لأول مرة، ومتى استخدمت هذه الكلمة كمصطلح سياسي رُوِّج له.

اما الوقفة الثانية فسأتناول فيها الحديث عن ان جوهر الإرهاب ومضمونه ليس خاصاً بأيِّ مجتمع أو جهة معينة.

وسنكرّس الحديث في الوقفة الثالثة عن نظرة الى تأريخ ومجريات الأحداث فيما بين المسلمين ومن عاداهم، وسيتضح لنا عظم الفارق بينهم وبين غيرهم، حيث لن يكون نصيب المسلمين مما نحن بصدد الحديث عنه الاّ أقل من القليل، وان من الإجحاف ان يوضعوا في كفة الميزان مع غيرهم.

وَسَنُثْبِتُ في وقفتنا الرابعة من هذا الموضوع أنَّ الإرهاب لايمكن ان يكون له موطيء قدم في شرع الله سبحانه وتعالى/ وفي وقفتنا الخامسة والأخيرة، نختم الحديث عن هذا الموضوع بالإجابة على بعض الأسئلة، وحلّ لبعض الإشكالات، بذكر حكم الشرع بخصوص الجهاد، والإغتيالات، وقتل المدنيين والمواطنين العزّل، وما الهدف من سعي البعض لإِلصاق تُهْمَةِ الإرهاب بالإسلام بذريعة تلك التصرفات؟!

الوقـفـة الأولـى

تعـريف الإرهــاب

لا يمكن للإِنسان ان يكون له موقف منطقي واضح من قضية ما، إلا بعد التعرّف عليها، فالحكم على الشيء – كما يقول الأصوليون – فرع عـن: تصوره، ومن هنا – أيضاً – نفهم المغزى مـن كـلام أهـل أصـول المنـاظرة: (تحريرُ محلِّ النِّزاع). فأحياناً يحتدم الخصام بين طرفين ثم يتبيّن انهما لم يتمكنـا من فهم بعضهما البعض، وقَديماً قيل بحق: «فهم السؤال نصف الجواب».

إذن فلننظــر الى المصــدر الــذي وردت منــه كلمــة الإرهــاب، أو «Terror»:

اتفقت جميع المعاجم اللغوية كالمعجم الوسيط[1] وقـاموس (مجمـع اللغـة العربية)[2] وقاموس (أوكسفورد) البريطاني و(لغة نامه)[3] لِمؤلِّفِهِ (دهخـدا) الذي يعد أكبر قاموس باللغة الفارسية، وكذلك معجم (العميـد)[4] وسـائر المعاجم الأخرى، على ان أصل كلمة «Terror» يرجع الى اللغة الفرنسية، ويقولون بأَن هذه الكلمة تعني: الإِخافة والإرهاب وتهديد الناس، وقد تصل الى القتل والإبادة، هذا هو المدلول اللغوي لهذه الكلمة التي رغم كونهـا –

(1) ص (376).
(2) الذي نقل منه المعجم الوسيط .
(3) ج (2) ص (6683).
(4) ص (431) ط / 8 .

كما قلنا– فرنسية الأصل، إلا أنها استعملت في اللغات الأخـرى كمـا هـي كلمات أُخرى، وَ روّج لها ترويجا عجيبـاً.

الآن دعونا نتعرف على المعنى السياسي الذي تتمخض عنه هـذه الكلمـة في القـاموس السياسـي، فنقـول: الإرهـاب باختصـار عبـارة عـن: العنـف السياسي بسبب استعمال السلاح، والى هذا التعريـف مـال (قـاموس مجمـع اللغة العربية) الشهير.

وكـذلك (المعجـم الوسـيط) حيـث بعـد أنْ أرْجَـع كلمـة (تـيرور) الى (الإرهاب) قال: {أرهب فلان فلانا يُرْهِبُه أي، خوّفه وفَزَّعه... والإرهابيّون وصف يطلق على الذين يسلكون سبيل العنف والإرهاب لتحقيـق أَهـدافهم السياسية}. إذن فالإرهابي هو الذي ينتهج العنف والقتل والتعذيب والإِخافة طريقاً لبلـوغ مآربـه السياسـية، فمـن كـان هكـذا، فهـو إرهـابي ومنهجـه الإرهاب، كائناً من كان ذلك الشخص مسلماً أو كـافراً، شـرقياً أو غربيـاً، فالحكم في هذه الأصناف حكم واحد، مادام الوصف منطبقاً عليهم.

وقد ورد تعريف مادة (تيرورزم) في قاموس (العميـد) كمـا يـأتي: {هـو منهج لأفراد يستخدمون أُسلوب القتل والتهديد وإيجاد المخـاوف والقلاقـل والإرهاب بأي صورة سَنَحَتْ لهم، و يرون كل ذلك مشروعاً لا بأس بـه في سبيل تغيير دفة الحكم أو الوصول الى مقاليد السلطة}.

لكن متى كان ظهور الكلمة لأول مرة؟!

جاء في كتاب (تأريخ جهـان)(1)، وكـذلك أشـارت الى ذلـك القـواميس اللغوية، أن أول ظهور لكلمـة (تـيرور) كانـت في سـنة 1793م في فرنسـا ذلك ان الثورة الفرنسية حدثت في سنة 1789، وقد اسـتولى علـى الحكـم

(1) وهو كتاب فارسي ضخم و قرأته في (CD).

بعد مدة من اندلاع الثورة رجل يُدعى (روبسبير) وقد امتدتْ فترة حكمه مابين (1794□1793) وكان يقتل كل من يتهم بعداء الثورة، حيث بلغ مجموع الذين اشتبهوا بعدائهم للثورة وقتلوا: (35.000) شخصاً، وكان من ضمن من قتلوا (دانتون) وكان من مُنَظِّري الثورة الفرنسية المحبوبين، وكذلك (لويس السادس عشر) الذي كان ملكاً لفرنسا، وكان الذين يقتلون يُذبحون بآلة تسمى (گيوتين) وهي آلة رسمت لها بعض القواميس صورة، حيث يمدد المعتقل كالجنازة على طوله، توجَدُ عند رأسه حديدة موصولة بمفتاح كهربائي، تفتح عند الضغط عليه لتقطع رأس المعتقل، وهكذا قتلوا (35) ألفاً، والغريب أن (روبسبير) نفسه أعدم بهذه الآلة، وبذلك انتهى عصر الإرهاب أو (عهد التيرورزم) كما يسميه الفرنسيون.

اذن، فنحن لو نظرنا الى تلك الكلمة وذلك المنهج نظرة واقعية، سواء من الجانب اللغوي، أو كمصطلح سياسي، يتضح لنا أن الكلمة لاتمتّ الى العالم الإسلامي ولا المشْرق بأدنى صلة، بل إنها كلمة غربيّة، وتحديداً فهي كلمة ومصطلح فرنسي. هذا فيما يخص مفهوم كلمة (**Terror**) وكيفية ظهورها ككلمة ومصطلح سياسي، فهي لا ربط لها البتة لا بالإسلام ولا بالعالم الإسلامي ولا بالأُمّة الإسلامية، وأما فيما يخصُّ فحوى الإرهاب و مَغْزاه، فَسَنَبْحثه في الوقفة الثانية.

الوقفـة الثـانـيـة

إن فحوى الإرهاب وجوهره هو أنَّهُ ظاهرة عالمية عامة وقديمة

تحـدثنا فيمـا سـبق عـن كلمـة (**Terror**) ككلمـة ومصـطلح سياسـي وأسلوب للتعامل، أما الإرهاب جوهراً ومضموناً فهو ظاهرة عالميـة وعامـة، أي انه ليس – ولم يكن – خاصاً بشعب ومجتمـع ومكـان و زمـان، بـل هـو ظاهرة قديمة، ذلك أن المعنى الذي ينطوي عليه الإرهـاب و التيرورزم، هـو فرض التصورات على الآخـرين بـالقوة والإِكـراه، دون ان تكـون لهـم بهـا قناعة، و أن تُجْبرهم عليها و تَقْمَعهم وتدوس إرِادتهم، هـذا هـو الإرهـاب، والإرهـابي شـخص أو طـرف مـا يسـعى لفـرض تصـوراته و قناعتـه علـى الآخرين، سواء كانت تصورات دينية، أو سياسية، أو فلسـفية، او مذهبيـة، أو أية تصورات أُخرى، فمن سعى لفرض قناعة، أو قناعة كتلة، أو هيئـة، أو جماعة أو دولةٍ عن طريق القوة والإِكراه على غيرك، فلا ريب بأن هذه حالـة من الإرهاب.

ونحن لو ألقينـا نظـرة علـى التـأريخ، لوجـدنا ان هـذه الممارسـة كانـت موجودة دوماً، لماذا؟ لأنهـا متعلقـة بغريـزة الشـهوة وَالعصـيان والغـرور في الإنسان، وهذه الغريزة موجودة ضمن مجموعة من غرائز الشـر في الإنسـان، كما ان هناك غرائز أخرى خيرة ممزوجـة بأعماقـه، ليكـون مـؤهلاً للتجربـة والإِختبار بوجود كلتا حالتي الخير والشر فيه، كما يقول تعـالى عـن الـنفس البشرية: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾(الشـمس –8)، فالله جلت قدرته جعـل طبيعة النفس الإنسانية على صورة قادرة على القيام بالشر كل الشر والخـير كل الخيـر.

إن الإنسان مخلوق نادر– حقاً – بين المخلوقات، وهو يتمتع – دون غيره – بمساحة فسيحة ورحبة للسّمو أوالتّدنّي، فالملائكة كتب عليهم البقاء في المستوى الرفيع الذي وهبهم الله تعالى، والأَشجار والأحجار وكذلك الأحياء والنجوم والكواكب ماكثة في حالاتها، لا تتمتع بفسحة تتنقل من خلالها سمواً وانحطاطاً، أما الإنسان فانه قادر على الرفعة والسمو الى درجة من الطهر والإحسان، يستحق سجود الملائكة له، وبإمكانه – بالمقابل– ان ينحطّ الى الحضيض: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۞ إِلاّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ (التين: 4–6) أي أن الإنسان خلق على أحسن وأجمل هيئة [1]، بحيث يتمكن من خلافة الله على الأرض، بمعنى تحقيق شريعة الله على الأرض كما أشار الى ذلك (القاسمي) و (القرطبي) و (سيد قطب) في تفاسيرهم [2] ويتمكن كذلك بسبب إرادته الحرّة – بدل السموّ – أن يَتَدنّى حتى يصل الى مستوى الشيطان، بل أحط من الشيطان نفسه، ليصل الى أسفل سافلين: (**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**)، وان إحدى الغرائز الشريرة التي خلقها الله في الإنسان ليبتليه بها، هي غريزة التمرد والغرور، كما يقول تعالى: ﴿**كَلاّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ (العلق 6 – 7).

ولو نظرنا الى مجريات سِيَرِ الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، لوجدنا ان معارضيهم كانوا غالباً يتكونون من طبقتين، طبقة المُتْرَفين والمُسْرِفين الذين

(1) ليس المقصود من التقويم الهيئة والشكل الجسمي فقط، وانما المقصود بذلك الهيئة والتركيبة النفسية و المعنوية التي يتميز بها الانسان عن سائر مخلوقات الله.

(2) (تفسير القاسمي) ج/1 ص(95)، و (الجامع لأحكام القرآن) ج/1 ص (223)، و (في ظلال القرآن) ج/1 ص (560).

عصوا الله تبارك وتعالى بسبب أموالهم وثرواتهم، واستعمل للطبقة الأخرى وصف المستكبرين، وقد استعمل الله لأناس يقع عليهم الحيف كلمة (المستضعفين)، وهنا كل من (المستضعفين)و (المستكبرين) دخل عليهما (س) الطلب، ليظهر أَنهم ليسوا ضعفاء في الأصل وانما ضُعِّفوا، كما ان المستكبرين ليسوا في الأصل كباراً، وانما كَبّروا أنفسهم، ولا تتعارض آية: ﴿وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفًا﴾ (النساء -28)، مع ماكن بصدد بحثه وإثباته، لأن المقصود بالضعف هنا هو الضعف المتعلق بالجنس والنساء، أما المقصود بالضعف الذي يُلْحِقُهُ الجبابرة والفراعنة بالمغلوبين على أمرهم، فهو الذي ينشأ من الجبروت والهيمنة اللّتين يستضعفون الناس بهما، ولنَنْظُر في الآية (34) من سورة (سبأ)، وقد وردت الآية نفسها في سورة (الزخرف) بطريقة أخرى، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إلاّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(سبأ- 34)، وقال تعالى في (الزخرف): ﴿وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ في قَرْيَةٍ مِنْ نَذيرٍ إلاّ قالَ مُتْرَفوها إنّا وَجَدْنا ءَاباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنّا على ءاثارِهِمْ مُقْتَدون﴾ -23-

نعم أيها الأخوة !

يجب ان نعلم جميعاً هذه الحقيقة: أنَّ من أوائل الأعداء الذين ناوءوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ووقفوا في وجوههم هم المترفون، الذين كوّنوا ثرواتهم من المال الحرام، وَ أعْلَوا قصورَهم و ناطحاتِهم على حساب الفقراء والمحرومين، وعندما أرسل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وَ قرعوا أسماع المترفين بأَذان الحرية وتحرير المستضعفين، لاشك أنهم لم يحلو لهم ذلك الأذان، إذ لم يكونوا مستعدِّين للتنازل عما كانوا يعيشون فيه من الترف

والثروة وَ بهرج الحياة، لذلك ركبوا مركب الشر وتصدوا لسبيل الأنبياء عليهم السلام، أما الطبقة الثانية فهم كما أشرنا آنفاً، كانوا من الذين استكبروا ونظروا الى أنفسهم نظرة الإعظام، و كما ان المترفين كانوا في ثراء فاحش عن طريق المال الحرام والأساليب المخالفة للشرع، فكذلك المستكبرون نالوا السيطرة على رقاب الناس عن طريق الظلم والإجحاف، كما يقول تعالى: **﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾** (**الأعراف – 88**)، وكما ترون: فإن أعداء الأنبياء عليهم السلام يقولون لهم ولأتباعهم بصفاقة وصراحة متناهية: ليس لكم حتى حق التفكير بحريتكم، وليس لكم ان تتبعوا منهجاً غيرما نحن عليه، وإلاّ تعرضتم للتعذيب والإنتقام أوالطرد، اذاً فهؤلاء المعارضون للأنبياء (صلوات الله و سلامه عليهم) هم الذين سلبوا من أهل الإيمان حرية التفكير، واختيار منهج الحياة على عكس الدّعايات المغرضة المموهة التي يروّجها أعداء الأنبياء عَلَيْهم السلام، إذ الأنبياء لم يسلبوا تلك الحقوق من أحد أبداً، وسنشير الى هذه المسألة لاحقاً، ثم لِنُلْقي نظرة أخرى الى قصة ابراهيم (عليه السلام) مع نمرود، ماذا نلاحظ في ثناياها؟ فإبراهيم (**عليه السلام**) عندما يقف مع الطاغية وجلاوزته وجهاً لوجه، يحاورهم ويناقشهم لكي يدحض شبهاتهم، و يقيم الحجة عليهم، ولكن، لنرى أمام هذا كله، كيف كان رد الفعل لدى الطاغية، وما هي الوسيلة الأخيرة التي لاذ بها؟: **﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾** (**الأنبياء – 68**).

أيهــا الأخــوة!

هكذا الجبابرة والفراعنة أمام الأنبياء، يلجئون الى النار والحديد والسوط والعصا، لماذا؟ لأن عقيدتهم الوثنية ليست الا من نتاجات شهواتهم وظنونهم الباطلة، وقد تداعت كعقيدة زائفة أمام العقيدة الصحيحة المنبثقة من علم الله وحكمته، وعندما فشلوا في ذلك الميدان، التجئوا الى سلاحهم الأخير الذي هو التهديد والإرهاب والإِخافة، ثم النار والحديد والسَّوط وأعواد المشانق، وهو الشيء نفسه الذي يسمونه في عصرنا إرهاباً وقتلاً!! وعندما يواجه موسى – عليه السلام – فرعون وَحاشيته و يُفحِمُهُمْ بالحجة وَالدليل القاطع المقنع، و لَم يكن برفقته إلاّ أخاه وعصاه، متحصنين بمنهج الله تعالى، والرسالة الموكولة اليهما، فليس هناك سلطة جبّارة، أو قوة جرّاره، ولكن ماذا كان جواب فرعون الطاغية، لهذا الأسلوب الدعوي الذي انتهجهُ موسى معهم؟ ان الكلمة الأخيرة التي تكلم بها فرعون أمام موسى هي قوله: ﴿**قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾ (الشعراء– 29)، أي سأجعلك ضمن المساجين الآخرين الذين سجنتهم، وفي هذه الحالة لا يلوذ ولا يلتجيء موسى (عليه السلام) إلاّ بجناب الله تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ**﴾ (غافر –27)، وهكذا الطواغيت المستكبرون، يلوذون بالحديد والنار والتعذيب والإِعتقال والتشريد، كلما انقطعت حجتهم وعجزوا عن الإِتيان بالبرهان الساطع، فهم عندما يفتقدون قوة المنطق يحتكمون الى منطق القوة! وكذلك كان النبي الخاتم ﷺ مع معارضيه: فعندنا واجه (عليه الصلاة والسلام) رؤوس قريش وفي مقدمتهم أبا جهل والوليد بن المغيرة، وفنّد أحاجيجهم وشبهاتهم، أُسقط في أيديهم وأَخْفَقوا في ميدان المحادثة

والحوار، جَرَتْ قريش مجرى أسلافها من الكفار الغابرين! ولذلك فإن مما يثير العجب والدهشة ان يُتهم المسملون بأنهم لا يؤمنون بالحوار والمنطق!

ولو تأملنا سيرة النبي الخاتم ﷺ، لتبيّن لنا أن قريشاً انتهجت مع النبي ﷺ ذات الأساليب و السياسات التي اختطتها أسلافها الكفار مع الأنبياء (عليهم السلام) فمثلاً:

1- يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ﴾(الانفال -30)

اذن هذه هي أخلاقية المشركين، كما يتحدث عنها القرآن، فهم عندما أَفْلسوا في الحوار وعرض الأدلة الناصعة، خيَّروا الرسول ﷺ بين أمور ثلاثة: إمّا الرُّجُوع الى معتقدهم الوثنيِّ، أو الإخراج، أو القتل.

2- ويتكلم الله سبحانه في سورة إبراهيم، عن جميع الأنبياء وما قوبلوا به من قبل أقوامهم من ملل الكفر، وأنهم مشتركون في منطق واحد موحد، يتحدثون به مع الأنبياء (عليهم السلام)، فهم يُخَيّرون خيارَيْنِ مُجحِفَيْن: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ (إبراهيم – 13).

والحكمة في جمع الأنبياء عليهم السلام جميعاً، مع أهل الكفر والإشراك في صعيد واحد، كما هو في هذه الآية، هي ان يُعلم أن دين الأنبياء ورسالاتهم واحدة في مضمونها وجوهرها، كما ان اسلوب المواجهة لدى معارضيهم وَأعدائهم في جوهره شيء واحد.

ثم يقول تعالى في جواب التهديد الموجه من قبل الكفار، للأنبياء (عليهم السلام) ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾(ابراهيم -13).

نعم، فعندما يتمادى الكفرة المتجبّرون في مواجهة رسالة الحق المفعمة بالخير والسّعادة والعدالة، ويحتكمون الى منطق السلاح والقوة والتهديد والإرهاب- بمصطلح هذا العصر – وعندما لا يكون للأنبياء وأتباعهم سلاح يدافعون به عن دينهم ورسالتهم، فهنا يأتي أمر الله تعالى في الإِنتقام من الظالمين وأهل الكفر ودَحرِهِم، وَنجاة المؤمنين ونصرهم.

خلاصة القول:

أن الإرهاب –كترجمة لكلمة (Terror) وليس في أصل معناه– هو فرض المعتقدات والتصورات والسياسات على الغير بالقوة والعنف، وَكبح حرياتهم وتجاهل إراداتهم وشخصيتهم وكرامتهم. وَهذه ظاهرة قديمة وعامة في العالم، وكان أعداء الأنبياء (عليهم السلام) يلجئون دوماً الى منطق القوة بعد فقدان قوة المنطق، ليسدّوا بها الثغرات المتفاقمة في مناهجهم.

وان من الظلم السافر وَالإجحاف البيّن أَنْ تُسند تهمة الإرهاب الى الإسلام وأهله، لأنه لو جاز فرض أية فكرة أو قناعة عن طريق الإِكراه والقوة، فمن المحال ان يصلح ذلك وَيستقيم مع الإسلام، الذي يخاطب أول ما يخاطب في الإنسان عَقْلَهُ وَ قَلْبَه، فكل عمل أو نشاط مهما كان مقبولاً في ظاهره، لا يُقبل– وربما يعاقب فاعله اذا كان ذلك بقصد الخداع والتمويه– إلاّ اذا اقترن بالنية الصالحة، وإلاّ سمّي القائم بتلك الأَعمال منافقاً أو على الأقل مرائياً !

ولذلك يقول الرسول ﷺ: ((إن الله لا ينظر الى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم)) (رواه مسلم:2564)

إذن فالإرهاب –بالمفهوم الذي ذكرنا– قبل أن يكون مُتعارضاً مع أحكام الشرع، فانه مخالف ومنافٍ لأساس الإسلام: الإِيمان والعقيدة.

وكذلك فان أي إتهام للإِسلام بالإرهاب، علامة على الجهل وعدم الدراية ببديهيات الإسلام.

وإذا وجدت مجموعات تحت عناوين إسلامية، ترتكب أخطاءً في هذا المجال، فليس من المعقول ان تُحْسَب على الإسلام تصرفات هو منها بريء كل البراءة.

وكما أسلفنا القول: فإن أعداء الإسلام الحاقدين على أبنائه، اذا رأوا غلظة أو شدة أو إستعمالاً للسلاح من قبل المسلمين، يُبادرون الى وصمهم بالإرهاب، مع أن ذلك مخالف للعقل والشرع والضمير.

فكل ذي ضمير وعاقل، يُدرك الفارق الكبير بين الإرهاب والظلم، وبين الدفاع والمقاومة الشرعية، ان الفرق بينهما كالفرق بين الثَّرى والثريّا!

الوقـفـة الـثـالـثـة

الإرهاب بين المسلمين وغير المسلمين

ان مما يدعو الى الأسف أن كثيراً من العَلْمانيين ينظرون الى تأريخ الإسلام وتأريخ قومهم بمنظار قاتم، أو ينظـرون اليـه مـن مِنظـار غيرهـم، والحـق أن الكلام لايؤخذ من الأعداء، فلو تحدَّثتُ عن فكـرة او تصـّور أُعارضـه، فـلا يقبل كلامي عن تلك الفكرة كدليل، وكذا الحال بالنسبة لنا، اذ لايجـوز أن يُؤخذ كلام المستشرقين والغربيين عن تأريخ الإسلام والمسلمين ويُستدل بـه، فكثيراً ما يُعزى الى التأريخ الإسلامي بأنّ معـارك المسـلمين -وخصوصـاً في عهـدأصـحاب رسـول الله ﷺ - كانـت عبـارةً عـن إِحـتلال للـبلاد مـن أصحابها، وسعي الى إخضاع الشعوب وإذلالهم!

ولكن عندما نتمعّنُ في نصوص القرآن والسنة، ونلقـي نظـرة كـذلك الى سيرة النبـي ﷺ وَسِيَرِ الخلفاء الراشدين، لا نرى شيئاً يُسـنِدُ هذا الإفـتراء، وَلا شك بأن هذه المصادر هي وحدها التي تعتـبر حجـة ودلـيلاً، وَ إلاّ فـإن التصرفات المخالفة للشرع الصادرة من خليفة أُمَويّ أو عَبّاسـي أو عُثْمـاني، لا يُلتفت اليها، وَلا يمكن إدراجها على حساب الإسلام والمسـلمين، مـع ان التأريخ الإسلامي بمختلف عصوره الأموية و العباسية والعثمانية، على فـارق كبيـر مع تأريخ الدول الأُخرى.

وممّا هو أوضح من نار على علَم، ان الفتوحات الإسلامية العادلـة جـرت وفق قاعدة شرعية ارتسـموها في تعاملـهم مـع النـاس، وكانـت عبـارة عـن

تخـييرهم للنـاس المحـاربين المعـادين للإسـلام والمسـلمين، ولـيس المسـلمين والمحايدين منهم، بين خيارات ثلاث: وهي الإسلام، أو الجزيـة والبقـاء علـى دينهم ومعتقدهم مع الخضوع للدولة الإسلامية، أو القتال.

كمـا ورد ذلـك في تـأريخ (الطـبري)[1] وَتـأريخ (البدايـة والنهايـة)[2] و (الكامل في التأريخ)[3] بل ورد هذا في كل كتب التاريخ الإسـلامي، ومعلـوم أن أصل تلك الخيارات ورد على لسان المعصوم ﷺ في قوله: ((فإِذا لقيـت عدوك من المشركين فادعوهم الى ثلاث خصال..)) (رواه مسـلم وغـيره)، وأن يُتركوا وشأنهم اذا قبلوا بإِحدى تلك الخصال.

وقد جسَّد قادة الجيوش الإسلامية مقولـة النبـيّ ﷺ في ميـدان الواقـع بالصورة الحسنى، فمتى ما كان يعلن أيّ شعب من الشـعوب إسـلامَهُ، فـإِن الجيش الإسلامي كان سرعان ما يتركهم، وإذا أسلم حاكمهم أُبقْيَ عليـه في منصبه، فمـثلاً: عنـدما أرسـل الرسـول ﷺ كتابـه الى (المنـذر بـن سـاوى العبدي) ملك البحرين جاء فيه:((أسْلِم يجعل الله لـك مـا تحـت يـدك)) [4].

ولاريب انه كان يتوجب على أولئك الحكام ان يعملوا وفق شريعة الله تعالى في حكمهم و تعاملهم مع شعوبهم، لأن الغاية من القتال هي إِزاحـة العوائـق التي تقف في طريق الـدعوة الإسـلامية، ولـيس الإِحـتلال وَالإِسـتيلاء علـى الخيرات، ولذلك فإِن تلك الشعوب متى ما أبدت القبول بدين الله ومنهاجـه

---

(1) أنظر تـأريخ الطبـري ج2 ص 170، 108 عندما قال ربعي بن عامر وهو ممثل الجيش الاسلامى لـ(رستم) قائد القوات الفارسية (واختر واحدة من ثلاث : إختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء، أو المنابذة) .

(2) أنظر (البداية والنهاية) ج/2 ص(49 – 53).

(3) أنظر (الكامل في التاريخ ج/2 ص(463، 464).

(4) أنظر (نصب الراية لأحاديث الهداية) للإمام الزَّيلعي، ج/4، ص(419). وأنظر (الجهاد والقتال في السياسة الشرعية) ج /1 ، ص (795-794) للدكتور محمد خير هيكل.

لم يُطْلَب منهم شيء آخر، بل كانوا يكتفون بوضع حاكم وتحديد هيئة من العلماء، لهم، ثم يقفلوا راجعين الى بلادهم.

ولكن تلك الشعوب عندما كانوا لا يُبدون الإستعداد لقبول الإسلام وشريعته، ففي هذا يقول الرسول ﷺ : ((... فَسَلْهُم الجزية..)).

والجزية عبارة عن مبلغ من المال يؤخذ من الرجال القادرين، وهي ترمز الى عدم معاداة الناس في تلك المنطقة، للإسلام والمسلمين والكيان الإسلامي الذي يريد أن يكون كياناً و دولةً لجميع الشعوب وسائر بني الإنسان، على اختلاف مللهم ونحلهم، ويُظلهّم تحت ظِلّه الوارف.

وقد يتحقق الوصول إلى حالة السِّلم الذي يريده الإسلام على أساس إتفاق و عهد، أو موادعة ومتاركة، بدون أن تكون هناك جزية أو غيرها كما حدث هذا في عهد النبيِّ الخاتم ﷺ وعهد خلفائه الراشدين ﷺ، وبالتالي: فليس أخذ الجزية شيئاً محتَّماً للوصول إلى حالة السِّلم والوئام بين الكيان الإسلامي والكيانات الأُخرى.

اما العولمة التي تنادي بها اليوم (أمريكا)، إن هي إلاّ هيمنة واحتلال لأَرجاء هذه المعمورة، فالعولمة الحقيقية اي جعل العالم كدولة واحدة وكيان واحد، بصورة صحيحة وعادلة، لايتسنى وجودها الاّ تحت ظل الشريعة الإسلامية، لأن شريعة الله تعالى تقرّ بخصوصيات كلّ الشعوب والأقوام وتُفسح المجال ليمارس الناس عقائدهم وعباداتهم وآدابهم، وليست كما هي الحال اليوم مع العولمة، التي ليست في الواقع الاّ (أمركة) تبغي من ورائها تعميم العادات والتقاليد الأمريكية والغربية على العالم، ونبذهم لكل خصوصياتهم، وتفرض ما تريد بجبروت القوة، وتتدخل في كل شؤونهم.

ثم يقول النبيّ ﷺ : ((فإنْ أبواْ فاستَعِنْ بالله وَقاتِلهُمْ)).

أيْ ان هؤلاء لا يقبلون الإسلام منهاجاً للحياة مِنْ جهة، من جهة أُخرى لايعترفون بسلطة الدولة التي لم تجلب لهم الا الخير والسرور، بل ويُعادونها ويُحاربونها، فهم في هذه الحالة قد تحولوا الى عائق يُعيقون الجهاد والحركة التحريرية التي شرع الإسلام القيام بها لتحرير الملل المستضعفة، وإِخراجهم من نير الظلم والظلام التي أَدخلهم فيه الطغاة والمارقون، فالمهم ابتداءً ان يتحرروا من المستنقعات الآسِنةِ التي هم فيها، وألا ّيكون لأحد عليهم ضغوط أوْ اجحاف، ثم همُ أحرار بعد ذلك فيما يفعلون، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف-29).

يعتقد البعض ان الحروب التي خاضتها الجيوش الإسلامية كانت من أجل إِجبار الناس على الإسلام؟ وليس الأمر كذلك، بل كان الباعث وراء تلك الحروب ان بعضاً من المجتمعات والأقوام و بتسويل حكامهم لم يكونوا مستعدين لا للإِسلام ولا لدفع الجزية، فاضطر الجيش الإسلامي ان يستخدم ضدهم السلاح لا لإِرغامهم على اعتناق الإسلام، فلا شك ان ذلك أمر لايجوز فعله، بل من أجل إِزالة العقبات التي تسدّ الطريق أمام انتشار الدعوة الإسلامية.

وجدير بالذكر(1) أَنَّني وبعد التحقيق والبحث الدقيق، تبيّن لي صحة الرأي القائل بأَن الكفار على مختلف أنواعهم تؤخذ منهم الجزية، وعلى هذا

(1) ان كثيراً من العلماء وخصوصاً المعاصرين منهم يقولون بان الذمي اذا ابدى استعداده للجندية و دخول القتال فان ذلك يسقط عنه الجزية فلا تؤخذ منه أُنظر: (الإسلام والمشكلات السياسية المعاصرة، نظام الحكم، حقوق الأنسان، الأقليات) د. جمال الدين محمود.

الإمام مالك[1] والأوزاعي وعلماء الشام، واختاره من المتأخرين ابن القيم[2] والشوكاني[3] وغيرهما.

وبعد الإِطّلاع على الأدلة التي استدلّوا بها والتَمعُّنِ فيها يَطمَئِنُّ القلب الى صحَّةِ هذا الرأي القائل: لَيْسَ أهل الكتاب والمجوس هم وحدهم الّذين تؤخذ منهم الجزية، بَلْ تُؤخذ من كل صاحب فكرةٍ أو دينٍ، مشركين كانوا أو وثنين، أو حتّى ولو كانوا ملاحدة و مرتدين[4].

أجل أن هذا القول راجح لاشك في ذلك، كما يقول (ابن القيم): ((وهذا القول أصح في الدليل كما ترى))[5] كما أن هذا الرأي ينسجم أيضاً مع جملة الآيات والأحاديث ذات الشأن.

(1) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج/2، ص (313).
(2) انظر (زاد المعاد) ج/5، ص (91، 92).
(3) انظر (السيل الجرار) ج/4، ص(570، 571).
(4) ولكن عدم استثناء الملاحدة والمرتدين من قاعدة أخذ الجزية، هو رأيي الخاص، ودليلي على رأيي هذا:

1/ (روى سعيد بن منصور في سننه (رقم:2588) أنَّ (تُسْتُرُ) فُتِحَتْ صُلحاً، ثـمّ كفر أهلُها فغزاهم المهاجرون وسَبُوهم فأمر عمر بن الخطاب مَنْ سُبِيَ منهم أن يُرَدّوا إلى جزيتهم، و فرَّق بين سادتهم).

2/ (روى عبدالرزاق في المُصنَّف (رقم:18714) أن قوماً أسلموا (من أهل الجزيرة بالعراق) ثم لم يمكثوا إلاّ قليلاً حتى ارتدّوا، فكتب فيهم ميمون بن مهران إلى عمر بن عبدالعزيز، فكتب إليه عمر: أن رُدَّ عليهم الجزية و دَعْهُم).

إذاً: فالمرتدُّون كغيرهم من أنواع الكُفار تُؤْخَذُ منهم الجزية و يُعامَلون نفْس المعاملة. وقد بحثت موضوع كيفية التعامل الشرعي الصحيح مع أصناف الكفار الخمسة: أهل الكتاب و المشركين والمنافقين والملاحدة والمرتدين في المجلد الثامن من كتاب (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله)، بعنوان: (الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعامل صحيح معهم).

(5) أنظر : (زاد المعاد) ج (5)، ص (92). .

أما الإجابة على من يستدل بعدم أخذ النبيّ ﷺ للجزية من عبدة الأصنام فنقول: بعد نزول آية: **﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** (التوبة – 29)، لم يتواجه الجيش الإسلامى مع أي مجتمع مشرك، لنعلم هل يأخذ منهم الجزية أم لا، لأن المشركين في ذلك العهد أسلموا عن بكرة أبيهم، سواء من أسلم منهم صادقاً، أو من دخل زمرة المنافقين، والجيش الإسلامى قد تواجه مع المجوس وهم شرّ من عبدة الأصنام– كما يقول ابن القيم– فلماذا إذن يقول النبي ﷺ ((سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب))[1]،وهنا يقول ابن القيم:

فإذا كان على المجوسي أن يدفع الجزية – مع أنهم لا تُنكح نساؤهم، ولا تؤكل ذبائحهم، لأنهم ليسوا أهل دين –فإنَّ أيَّ وثني آخر صاحب معتقد معين يعامل المعاملة نفسها، فمن كان لايريد دخول الإسلام فهو حر في اختياره، ولكن يجب ان يذر دعوة الإسلام تصل الى الناس، وعليه ألاّ يقف حجر عثرة في وجه هذه الدعوة التي تنادي بالحرية في أرجاء الدنيا، فإذا التزم هذا فبإمكانه البقاء في وضعه وعلى الحالة التي يريدها، على ان يدفع الجزية في مقابل أن يعيش في ظل هذا الكيان الذّي يدافع عنه ويضمن له تأمين مستلزمات عيشه، عندما لايستطيع القيام بأعباء حياته بنفسه،ثم لا يُلزِمُهُ الإسلام أداءَ الجندية ولا يكلِّفه فريضة الجهاد، و يصون حياتَهُ و كرامتهُ و عِرْضَهُ و مالَهُ، و يُتيحُ له التَمتُّع بجميع حقوقه.

---

(1) رواه مالك (278/1)، والبيهقي (189/9).

وعموماً فإن العلماء يقولون[1] فيما يخص التعامل مع الذميّين بأنهم يعاملون حسب قاعدة (لهم مالنا وعليهم ماعلينا)[2]. ويقول عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) في هذا الصدد «انما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كاموالنا ودماؤهم كدمائنا»[3]

نعم أيها الأخوة! لقد مورست الحروب الإسلامية والجهاد التحريرى كما عرضناه آنفاً، فلئن صدر خلاف ذلك من حاكم أموي أو عباسي أو عثماني، ففعله محسوب عليه، وليس على الإسلام، ولكننا نقول مرة أخرى – وليس هذا كلامنا، بل بإعتراف المستشرقين أنفسهم – انه لم يوجد أرحم ولا أعدل ولا أكثر إحساناً من المسلمين، حتى وهم يخوضون غمار المعارك، فمثلاً: عندما أُصيب القائد الصليبي (ريتشارد قلب الأسد) بعث القائد (صلاح الدين الأيوبي) بطبيبه الخاص ليعالجه، وبعث إليه أيضاً بالثلج والفواكه، بهذه الشهامة والمروءة تعامل معه. ولكننا عندما نتأمل في التصرفات الوحشية للكفار يتضح لنا عظم الفارق بين المسلمين وغيرهم.

(1) أنظر (الحقوق والحريات في الشريعة الاسلامية) د.رحيل محمد غرايبة، ص(348).

(2) أنظر: (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) محمد حميدالله، ص188،ط8، الوثيقة رقم:97 (نسختان لمكتوب النبي ﷺ إلى نجران)، إذاً: هذه المقولة التي جرت مجرى المثل في كيفية معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، هي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي هذا نصّها من ضمن كلام طويل: (لأنّي أعطيتهم عهد الله على أنَّ لهم ما للمسلمين و عليهم ما على المسلمين، و على المسلمين ما عليهم بالعهد الذي استَوجبوا حق الذِمام و الذبِّ عن الحرمة و استوجبوا أن يُذَبَّ عنهم كلُّ مكروه، حتى يكونوا للمسلمين شركاءَ فيما لهم و فيما عليهم...).

(3) أنظر (بدائع الصنائع) الكاساني ج/7، ص (111)، وانظر كذلك (السير الكبير) للشيباني ج/3، ص (250).

يقول المؤرخون: عندما استولى النصارى على القدس، أقدموا على قتل أكثر من (70,000) سبعين ألف مسلم داخل المدينة، حتى قيل: أن خيولهم غاصت في الدماء الى رُكَبِها في بيت المقدس(1).

ولكن صلاح الدين عندما حرَّر القدس سنة (583) هـ(2) عامل أهلها بمنتهى العدالة والمروءة الإسلامية وأخلى سبيلهم، وقد أقرّ بهذه الحقيقة حتى الأوربيون أنفسهم، ثم يجب ألاّ نغفل عن حقيقة أن القائد الكردي صلاح الدين الأيوبيّ على قدر ماكان معروفاً بالشجاعة، كان معروفاً أضعاف ذلك بالشهامة والشفقة والرحمة والعفو وَرحابة الصدر، ولاشك أنه تعلم تلك القيم العليا من الإسلام. ومَن أراد أن يعرف هدف الجهاد في الإسلام بكلمات قليلة، حريّ به ان يتأمل كلام (ربعي بن عامر) موفد الجيش الإسلامي الى قائد القوات الفارسية (رستم) عندما يسأله عن سبب مجيئهم الى بلاد فارس؟ فيقول ربعي:

((نحن قوم ابتعثنا الله لِنُخْرِج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله، ومن جَوْر الأديان الى عدل الإسلام، ومن ضِيقِ الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة)) وقد ذكر هذه الواقعة كل من الطبري وإبن كثير وإبن الأثير في تواريخهم(3).

والآن دعونا نسجل جانباً من تعامل الدول والشعوب غير المسلمة في هذا الصدد، ولات حين تفصيل، ولكننا سنكتفي بإشارات خاطفة:

---

(1) أنظر (الكامل في التاريخ) ج/8، ص (189).
(2) أنظر(الكامل في التاريخ) لابن الأثير ج/11، ص(546).
(3) أنظر(تاريخ الأمم والملوك)، ج/2، ص(107-106) للطبري، و(البداية والنهاية)، ج/7، ص(50-49) لإبن كثير، و (الكامل في التاريخ)، ج/2، ص(463- 464) لإبن الأثير.

1/ المثال الاول: غني عن البيان ان المسلمين ظلوا لعدة قرون يحكمون في الأندلس (إسبانيا) وكانوا – باعتراف المؤرخين الغربيين – أحد أكبر العوامل لظهور النهضة العلمية أو ما أسموه بـ(رينسانس) في أوروبا، وذلك عن طريق التراث الثقافي و العلمي للحضارة الإسلامية التي استفاد منه الأوروبيون في الأندلس، ومع كل ذلك فعندما مالت شمس الدَّولة الإسلامية هناك الى الغروب، ماذا فعل بهم نصارى الأندلس؟

إِنَّ محاكم التفتيش عن العقائد الذي يقول المؤرخون الغربيون، أنها أبادت في قرني الثالث عشر والسابع عشر من نصارى البروتستانت والأرثوذكس من أعداء الكنيسة فقط، قرابة تسعة ملايين شخص(1)، ولم يبق من المسلمين– وكانوا مليون نسمة هناك– أحد، لأنهم إما كانوا يُرغمون على اعتناق المسيحية وأكل لحم الخنزير وتعليق الصلبان في أعناقهم، أو يقتلونهم، وكانت أحسن أحوالهم أنْ يُطردوا ويُشرّدوا.

2/ المثال الثاني: هجمة التتار والمغول(2)... و من أفعالهم الشنيعة أنهم كانوا يصنعون من جماجم المسلمين قلاعاً، يقول المؤرخون: ربما كان القائد المغولي يأمر أحد جنوده قائلاً له: تذهب الى المدينة الفلانية وتأتي اليّ بكذا من الرؤوس، فإنْ لم تجد رؤوس الرجال فرؤوس النساء، والا فرؤوس الأطفال... فمثلاً كان يقول يجب جمع عشرين ألف رأس ووضعها ركاماً فوق بعضها! ويقول المؤرخون أمثال الطبري وإبن كثير

---

(1) أنظر(محاكم التفتيش) د. زكي علي، ص(500)، وانظر أيضاً (الشباب المسلم في مواجهة التحديات) د. عبدالله ناصح علوان، ص(132).
(2) للإطلاع على المعاملات الوحشية للتتار والمغول، أنظر (البداية والنهاية)، ج/13، ص(256)- (لإبن كثير) و(الكامل في التاريخ) لابن الاثير، ج/12، ص(358-399).

وإبن الأثير، إن المذبحة التي أقامها هولاكو وجيشه الكافر في بغداد في سنة 656هـ بلغت مليون قتيل، بل هناك روايات تقول انها وصلت الى مليونين، ولا يخفى عظم هذا العدد في زمان كان عدد الناس قليلاً.

3/ المثال الثالث: من التاريخ المعاصر.. وهو المذابح الوحشية التي أُقيمت في كل من ثورتي النظام الشيوعى في روسيا بقيادة (لينين وَ ستالين) وفي الصين بقيادة (ماوتسي تونگ) للمسلمين في تلك البلاد، لا لشيء الاّ لأنهم رفضوا الإِرتداد عن دينهم ليصبحوا شيوعيين.

وقد وردت في كتب التأريخ، أن ما يربو على (15) مليون مسلم لقوا حتفهم في إبادة جماعية استهدفتهم.

وقد روى التأريخ المعاصر في هذا الجانب ما تشيب لها نواصي الأطفال، من قبل الماركسية والماوتستية من حَمَلة الإِشتراكية العلمية.. أحياناً كانت جلاوزة تلك الأنظمة تقوم بجمع الناس في المدن والأرياف في الولايات الإسلامية المحتلة، ويطلبون منهم ان يرتدُّوا عن دينهم، فإذا رفضوا طلبهم، كانت الجلاوزة تُقْدِمُ على قتل شيوخهم ومن يُعرفون بالتوجه الديني من بينهم، ثم يأمرون الناس ويرغمونهم تحت تهديد القتل، ان يضعوا نجاساتهم على جثثهم، وإلاّ قُتلوا! وقد لقي المسلمون في الصين على يد النظام الذي كان يدَّعي رعاية حقوق الإنسان وتأييد الطبقة العاملة أيضاً، ما لقيه إخوانهم في روسيا.

نعـــم أيها الأخـــوة!

هكــذا كــان حــال أولئـك المســلمين في ظـل تلـك الأنظمـة الشـيوعية والإِشتراكية، والتي كان يجهلها – مـع الأسـف – كـثير مـن النـاس، إلى أن انهار النظام الشيوعى وأُزيح الستار عن شنائع ذلك النظام. ولكن المسـلمين مظلومون الى درجة أنهـم يقتلـون ويُبـادون ولا يعـرف بمآسـيهم أحـد، ولا يدافع عنهم أحد، كما يقول بعضهم: {قتل شخص في غابة جريمة لا تغتفـر، وقتل شعب أعزل قضية فيها نظر}، ولا شَك أن هذا الكـلام لينطبـق علـى واقع الشعوب المسلمة.

4/ **المثال الرابع:** مذابح الهندوس والسيخ للمسلمين أثناء إستقلال باكستان عن الهند، ولا تزال حتى يومنـا هـذا، وآخرهـا كـان في العـام المنصـرم حيث حرقوا منهم مجموعة كبيرة.

5/ **المثال الخامس:** مذابح اليهود للمسـلمين اعتبـاراً مـن 1947و 1948 والى يوم الناس هذا، والغـرب بزعامـة أمريكـا لـيس سـاكتاً عـن تلـك الجرائم فقـط، بـل إِنهـم وبكـل صـفاقة يـدافعون عـن اليهـود المحـتلين ويعادون الفلسطينيين.

ونحن لا نتحدث عن أوضاع المسلمين في كردستان، سواء في تركيـا منـذ العهد الأسود لأتاتورك حتى الوقت الحاضـر، وكـذلك في كردسـتان إِيـران منذ الحكومة الدكتاتورية لرضاه شاه وابنه محمد، وفي العـراق وسـوريا منـذ عهد العفالقة وَالأنظمة التي سبقتهم والتي لا يعلم مالحق بالشـعب المسـلم في تلك العهود الا الله المطلع على السرائر.

اما لماذا لا نريد التحدث عـن اوضـاع المسـلمين في كردسـتان؟ لأننـا في الأمثلة التي استشهدنا بها أردنا المقارنة بين معاملة المسلمين وغـير المسـلمين،

وهذه الأنظمة التي أَلْحَقَتْ الضَّيم بالشعوب المسلمة في العراق وتركيا وايران وسوريا، تعتبر نفسها حكومات مسلمة، ولكن الذين قاموا بتلك الجرائم لاريب بأنهم مقطوعوا الصلة بالإسلام الا ما ندر، إن شخصاً يبيح دماء شعب مسلم، وينصب لهم المذابح دون وجه من الحق، ودون مبرر سوى التسلط والظلم، إِن شخصاً كهذا لوكان يحمل ذرة من الإيمان لتورّع عن تلك المظالم والجرائم.

6/ **المثال السادس:** المعاملات الوحشية والمذابح الجماعية والإغتصاب والتشريد والإِبادة التي مارسها الصرب ضد المسلمين في (البوسنة والهرسك) و (كوسوفو) والتي تعجز أقلام الدنيا عن وصفها.

7/ **المثال السابع:** الإحتلال والقمع والتعذيب وأصناف الإعتداءات والظلم الذي مارسه الروس ضد الشيشان، والهند ضدَّ الكشميريين في هذه الأيام، والتي تحفل القنوات الأعلامية بالحديث عنها.

8/ واليوم تأتي صاحبة قوة عظمى كأمريكا وتعلن الحرب على جميع الإسلاميين بذريعة مكافحة الإرهاب، وتنصب نفسها زعيماً على العالم بأسره، وهي غافلة عن أنَّ من يتصدى لقيادة العالم يجب ان يكون عَقْلُهُ أوسع من مشكلات الدنيا، وصدره أرحب من أحاسيس الناس ومشاعرهم، وأخلاقه عظيمة عِظَم هذه الدنيا المترامية الأرجاء!!

ولكن صدر أمريكا ضيق بحيث لا يتَّسِعُ حتى لأحاسيس مواطنيها ومشاعرهم، وعقلها صغير بحيث لا يتسع لأية فكرة أو تصور غير ما تعتقد به، لقد سمع العالم أجمع قول جورج بوش عندما قال: (الذي لايكون معنا نعتبره ضدنا)! وكذلك فإن أمريكا تعلنها صريحة دون ستار: نحن نفرض على العالم أجمع قيمنا وخصوصياتنا ومدنيتنا وتراثنا وثقافتنا!

ولاريب بأنكم على اطلاع – كما تعلنها الفضائيات– عن مدى الضغوط التـي تمارس على الدول الإسلامية كالسعودية وباكستان ومصـر و.... الخ، كـي يغيّـروا المنـاهج التربويـة والتعليميـة بمـا يلائـم الرغبـات والمصـالح والسياسات الأمريكية والغربية، ويعيدوا كتابة تلـك المنـاهج مـن جديـد... وهذا في الحقيقة إرهاب ما بعده إِرهاب، يمارَسُ ضد العالم الإسلامي.

ان العقل يستسيغ أن يقال: الذي يقف ضدّي فهو عـدوّي، ولكـن لمـاذا تعتبر من لا يقف بوجهك ولا يعاديك، عدوّاً ضمن أعـدائك؟! هـلاّ تخبرنـا أمريكا لماذا الناس يجـب عليهم، إمـا ان يكونـوا معهـا وفي طاعتهـا، او أن يحملوا السلاح ضدها؟

ولماذا تحارب أناساًهم لا يحاربونها؟ أم أن أمريكا لا تعلـم أن رفـض الـرأي الآخر على كل حال مصدر للإِرهاب، بل ان الإرهاب نفسه ينبـع مِـنْ ثَـمَّ، وهذا التفكير هو جوهر التفكير الفرعوني، فـ(خوفو) قبل أربعةَ آلاف سـنة، عندما واجه موسى (عليه السلام)، ردد هذا الكلام نفسه: ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلاّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾(غافر– 29).

نعم أيها الأخـوة! إن مـن يـدّعي ان الحـق حِكْـرٌ عليـه، ولا يـدع أحـداً يتحدث عن الحق، سواء فعل ذلـك الفرعـون (خوفـو) أو (جـورج بـوش)، وسواء حدث ذلك في القرن الحادي والعشرين، أو في القرن العشـرين قبـل الميلاد، فذلك إِرهاب ولا يغير من أصل المسألة شـيئاً، أن يكـون قـال ذلـك (خوفو) لموسى وشعب بني اسرائيل، أو قاله (بوش) للعالم الإسلامي، لأنهمـا إدعاءان بمضمون واحد، وهو التكبّـر واحتقـار الآخـرين وانتهـاك إرادتهـم وشخصياتهم.

الـوقـفـة الرابـعـة

الإرهاب لا مكـــان له في الشَّـــريْعة

ان الإرهاب وفق التعريف الذي عرَّفناه، والـذي هـو عبـارة عـن فـرض التصورات والآراء والسياسات بالقوة والإكراه علـى المقابـل، واللجـوء الى قوة السلاح لإلزام الآخرين بها،.. هذا لا محلّ له في شرعة الإسلام، ولكـن لماذا؟

يتبين ذلك من الأدلة الآتية:

اولاً: الحكمـة من الحيـاة الدنيـا:

ان الحكمة من الحياة الدنيا في المنظور الإسـلامي، هـي إختبـار الإنسـان، فمتى يمتحن الإنسان وكيف؟

الأستاذ الذي يريد امتحان تلميذه، متـى يمتحنـه؟ بطبيعـة الحـال عنـدما يكون قابلاً للنجاح والرسوب، وان يكـون احتمـال الحـالتين وارداً، وعنـد ذاك يقال له امتحان.

فالله سبحانه وتعالى جعـل الحياة الـدنيا ليختـبر فيهـا الإنسـان، وأفسـح للإنسان المجال أن يؤمن أو لا يؤمن، أن يكون محباً لله أو عدواً له، وكّلَ اليـه اختيار الطريقين، كما يقول الخالق جل شأنه: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَـــا مَا عَلَـى الأرض زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَـنُ عَمَلاً**﴾ (الكهف-7)، فلا بد للانسان أن يُعطى الفرصة والمجال الرحيب، حتى يظهر اختياره هل يختار مرضاة الله أم سخطه؟ يحسن العمل أم يسيء؟ ويقول تعالى في موضِعٍ آخر: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ (الإنسان-3).

إذن فإِرغام الناس لقبول عقيدة كالعقيدة الإسلامية، يخالف حكمة الخـالق في خلقه للإِنسان وإِعطائه فرصة الإِختيار في الحياة الدنيا.

ثانيــاً: الفطـرة وطبـيعـة الإنسـان:

إن الإرغام على اعتناق فكرة بالإِكراه والقـوة، مخـالف لفطـرة الإنسـان وطبيعته! فهل يعقل ان ترغم إِنساناً وتَحْمِلُهُ على الإقتناع بما أنت مقتنع بـه؟ هذا مستحيل ولا ريب، فأنت قد تَقْوى على إرغامِه على الإتيان بفعـل مـا، ولكنه من قبيل المحال أن ترغمه أن يحبك من قلبه، اذا كان لـك كارهـاً، اذاً فلا يمكن بأية صورة من الصور السيطرة على القلوب والحكم علـى مـا بـين أحشائها.

لايمكن إجبار الإنسان من جهة نفسه وأعْماقِه، فأنت بإمكانـك ان تجعـل ظاهره كظاهرك، ولكنك تعجز عن استمالة قلبه إليك.

وعليه: فالإِكراه وَالإجبار مخالف لفطرة الإنسان وطبيعتـــه، كمـا يقـول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَـا وَتَقْوَاهَـا﴾ (الشـمس6–7). فالإنسان في داخل نفسه يمكنه أن يكون محسناً أو مسـيئاً، ولا يـتمكن أحـدٌ بحال من الأحوال أن يسيطر على قلـب أحـد و ضـميره، مـن خـلال القـوة والتسلّط.

ثـالـثـاً: جوهـر الإسلام و طبيعتـه :

كما ان الإرهاب وإِلزام الآخرين بفكرة معينة، يخالف جوهر الـدين، لأن الإسلام جاء ليحرِّر الناس ثم يخيّرهم بين الايمان والكفـر، ولاشـك ان هـذا التخيير باق في كلتا مرحلتي الدعوة والدولة أيضاً. أقول هذا لأن هنـاك مـن يَتَّهِمُ الإسلاميين قائلاً: نعم ان الإِسلاميين يتحدثون عـن حريـة الـرأي، وأن

الإنسان حُرّ بين اختيار الإيمان من عدمه، ولكنهم عندما يتسلّمون السلطة يتصرفون بخلاف ذلك! ولا أدري من أين جاؤوا بهذا الكلام؟ لأن ذلك ضرب من الظن، وهناك في الإسلام مرحلتان في التعامل مع المعارضين عموماً:

أ/ في مرحلة الدعوة يُدعى الناس الى الإسلام، فمن أجاب فَبِها ونعمتْ، وإلاّ فليست هناك سلطة تستخدم حَمْلَ المدعو قسراً، وإلزامَهُ بالإسلام جبراً.

ب/ أما في مرحلة الدولة، فبين أيدينا أدلة متظافرة، تثبت عدم شرعية الإلزام والإكراه، وسنشير لاحقاً الى بعض الآيات القرآنية لكننا نقول هنا:

ان من أوضح الأدلة وأنْصَعِها هي سيرة النبي ﷺ وَ سِيَرُ الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم)، والذي لا يَخْفى على أحد، هو كيفية معاملتهم للأقليات الدينية الذين عاشوا طوال حياتهم في ظل الدولة الإسلامية، فلم يُرْغَم يزيدي أو نصراني أو يهودي أو زرادشتي أو صابئيٌّ أو بوذيٌّ، يوماً على الإسلام، ولو لحق ذمياً(1) ظلمٌ بادر المسلمون جميعاً الى الدفاع عنه، وخصوصاً العلماء، فمثلاً: إن عالماً كـ(إبن تيمية) –رحمه الله– عندما ذهب الى اللقاء بـ(قازان) وكان من قادة المغول، ليطلب تحرير أسرى المسلمين، بعد حوار قال له (قازان): لم أرَ قط عالماً مثلك تَقَعُ هَيْبَتُهُ ووقاره في قلبي، وأنا لا أرفض لك طلباً، ودونك أسرى المسلمين قد وهبتهم لك، فقال (ابن تيمية): بل يجب ان تَهَبَ لنا أسرى أهل الكتاب أيضاً لأنهم مثلنا، (أي

---

(1) الذمي هو الذي لم يسلم وعاش في ظل الدولة الاسلامية وعلى الحكومة الاسلامية ان ترعاهم و تعطيهم حقوقهم وتحمي حرياتهم، وانما سُمّوا أهل الذمة لأن حقوقهم في ذِمَّةِ المسلمين والدولة الاسلامية كواجب شرعي يتعبّدون بالحفاظ عليها والدفاع عنها. والذمة هي العهد والعقد المبرم بين طرفين أو أكثر، أُنظر: مختار الصِّحاح، ص206.

مادامو مواطنينا وَيعيشون معنا فإنهم مثلنا، وان لم يكونوا معنا على دين واحد) ولن أعود حتى تُسَلّمنيهم)[1]، فاضطر (قازان) الى إخلاء جميع أسرى أهل الكتاب أيضاً من اليهود والنصارى.

نعم، فالإسلام في كلتا حالتي الدعوة والدولة لا تتقبل طبيعته الإكراه وإجبار الناس وَ إرغامهم، والله سبحانه وتعالى يقول في محكم تنزيله: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ (البقرة– 256)، يقول المفسرون عن سبب نزول هذه الآية: ((ان المرأة من الأنصار كانت تَنْذُرُ إنْ عاش ولدها لَتَجْعَلَنَّهُ فيْ أهل الكتاب فلما جاء الإسلام، قالت الأنصار: يا رسول الله! ألا نُكْرِهُ أولادَنا الّذين هم في يهود على الإسلام؟ فإنّا إنّما جعلناهم فيها ونحن نرى أن اليهودية أفضل الأديان، فإذ جاء الله بالإسلام، أفلا نكرههُمْ على الإسلام؟! فأراد الآباءُ إكراهَ أبنائهم، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾[2].

أمّا سبب إجلاء اليهود عن المدينة فهو نقضهم وخيانتهم للعهد الذي كانوا قد وقّعوه مع النبي، فعاقب رسول الله ﷺ كلاً من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة[3]، من جرّاء خيانتهم وغدرهم وليس بسبب يهوديّتهم وكفرهم.

(1) الذي بين المعقوفتين إضافة مني، وهي مقتضى كلام الشيخ رحمه الله.
(2) أنظر (فتح القدير) للشوكاني، ج(1) ص (357)، حيث قال: روى هذه القصة كل من (أبي داود:2682، والنسائي:68،69، وابن جرير(10/3) وابن المنذر...) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر: الإستيعاب في بيان الأسباب،ج1، ص195.
(3) لمعرفة كيفية اجلاء اليهود عن المدينة في أعقاب خيانتهم و نبذهم لعهدهم. أنظر (السيرة النبوية) لابن هشام ج/3، ص(54-50)، و ج/3، ص (212-199)، و ج/3، ص(265-244).

إذ مادام الله سبحانه وتعالى قد خيّر الإنسان في اختيار طريق الحق وطريق الباطل(1) ، يجب ان يكون حـراً وألاّ يجـبر علـى شـيء، وفي هـذا يقـول الله تعـالى مخاطباً رسوله ﷺ :**﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾** (يونس-99)

فالله سبحانه يأبى حتى لنبيّه ﷺ أن يُكْرِه النـاس علـى الإيمـان، لأن الله تعالى لوشاء ان يؤمنوا لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، ومن ذا الـذي يقـف أمام إرادة الله تعالى؟ فاذا لم يشأ الله إرغام الناس على الإيمـان، أفأنـت تكـره الناس – يا محمد – حتى يكونوا مؤمنين؟ أي: لا يحق لك، ويقول تعالى أيضاً **﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾** (ق- 45)، **﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾**(الغاشية -22).

فيـــا أيها الأعـــزاء!

الآيات التي مرّت معنا تُثْبِتُ بوضوح، حرية الإنسان أمام دين الله وَمنهجه وَ أنه مخيَّر بين أن يـؤمن أو لا يـؤمن، وهـي حقيقـة لا تحتـاج الى بيِّنـات، أنَّ الإنسان صـاحبُ إرادة حـرة في نفسـه، ولكـن بعـض الـذين لا خـبرة لهـم بالإسلام، عندما يرون مسلماً أوجهـة إسـلامية، لهـا تصـورات لا تتفـق مـع طبيعة الدين، أو مع الحقائق التي سردناها قريباً، واستناداً الى رؤيـتهم لتلـك المواقف وَالمعاملات والتصورات المخالفة للشرع، تراهم يتخبطون وَيعتـبرون كل ذلك نابعاً من الإسلام، وأنا أعلنها صريحة من هنا وأُطمَئِنُ الجميـع، بـأن تأسيس الكيان الإسلامي موافقاً لشَـرْع الله وطبيعـة الـدين، لا يَعتمـد علـى

---

(1) أنظر (مختصر تفسير ابن كثير) ج/1، ص (239)، و (فتح القدير) للشوكاني ج/1، ص(357).

الإرهاب أبداً، ولا يَعتمد على الإكراه واجبار الآخرين، والدليل على ذلك أن جميع الآيات التي نزلت في المدينة المنورة بعد تأسيس الدولة الإسلامية، بقصد تنظيم أمور المسلمين والتي تتضمن الأحكام الشرعية، كلّها خطاباتٌ بدأت بـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فماذا يعني ذلك يا تُرى؟ يعني وجوب تأسيس مجتمع إِسلامي يؤمنون بالإسلام، وبعد ذلك يستحقون أن تنزل عليهم الأوامر والنواهي في مختلف مجالات حياتهم، كما أن البناء لايمكن البدء به الا بعد وضع الأساس.

والخلاصة أنه لامناص من وجود مجتمع قبل تأسيس الدولة الإسلامية، فالذي يهدف الى تلك الغاية، لابد له من البدء بتكوين المجتمع المسلم، هذا إذا لم يكن يريد لعمله أن يكون كالجدار بغير أساس، أو أن يستحيل حركة عاطفية كالنقش على الماء!

كيف أسس رسول الله ﷺ بناء الدولة الإسلامية؟!

لو نظرنا الى سيرة النبي ﷺ ولماذا لم يعلن الحكومة الإسلامية في مكة، وكذلك أنبياء الله عموماً وأولوا العزم منهم خصوصاً، صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، لماذا لم يعلنوا منذ بدئهم بإِيصال دعوة الله وتربية أتباعهم وتعليمهم، بأنهم حكومة إِسلامية؟ لأنّ شريعة الله تعالى وسواء على يد أي نبي من الأنبياء جاءت، تتعامل بواقعية مع مجريات ووقائع المجتمع، ومن البداهة والوضوح في كل زمان مكان، أن تكوين الدولة والحكومة يحتاج الى ثلاثة أشياء ضرورية:

1- الأرض 2- الناس 3- السلطة

ولا يخفى أن الأرض والسلطة شيئان تابعان للنـاس، فالنـاس اذا تواجـدوا على أرض، جاز أن تكون لهم سـلطة أيضـاً، ولـذلك ظـل نبينـا محمـد ﷺ يدعو الناس في مكة ثلاث عشرة سنة كاملة، ولم يسمح لأحـد مـن أصـحابه ان يغتال مشركاً، مع ماكانوا يتعرضون له من تعذيب وإهانة، بل واستشهاد بعض الأصحاب كياسر وسمية، والديْ عمّار (رضي الله عنهم) هذا إضافة لمـا كان يتعرض له بنفسه المباركة من إهانة وَاستهزاء، لماذا؟ لأنه ﷺ كان على يقين أن الدولة لا تُبتنى بتلك الصورة، بل اذا أريد للدولة الإسلامية أن تقوم لها قائمة، فلا بد ان تُبتنـى علـى أعنـاق المسـلمين وكواهلـهم، وان يكونـوا أحراراً في خاصة أنفسهم، وعلى أرض محرَّرة يكون لهم عليها سلطان، وَثـمَّ تتحقق شرعة الله تعالى، لقد وردت قصة محاولات النبـيّ ﷺ مع أكثـر مـن عشرين قبيلة، بغية الإستعانة بهم لاعلان دولـة الإسـلام، مفصـلة في (سـيرة ابن هشام)[1] و(طبقات ابن سعد)[2] و (زاد المعاد في هـدي خـير العبـاد)[3] وكان عليه الصـلاة والسـلام يَعْـرِضُ نَفسَـه علـى القبائـل ليُـؤْوه ويُؤَيِّـدوه وينصروهُ، كما هو واضح في هذا النصِّ:

{قال ابن إسحاق: وحدَّثني حسين بن عبدالله بن عبيدالله بن عباس، قـال: سَمِعتُ ربيعة بن عباد يُحدِّثُهُ أبي، قال: إنـي لغـلامٌ شـابٌ مـع أبـي بِمنـىً، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: يـا بـني فـلان! إني رسولُ الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولاتُشركوا به شـيئاً، وأن تخْلَعـوا

(1) ج/2، ص (63-69).
(2) أنظر (السيرة النبوية الصحيحة) أكرم ضياء العمرى ج/1، ص(193).
(3) ج/3، ص(43).

ماتعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي و تَصَدَّقوا بـي وتمنعـوني حتى أُبيِّن عن الله مابعثني به...}[1].

ومن نافلة القول ان النبـيّ ﷺ لم يكـن بطلبـه ذاك يريـد تمهيـد الطريـق للدعوة، فالدعوة كانت تسير بصورة جيدة في مكـة، بـل كـان قصـده ﷺ إيجاد أرضية صالحة تكون مهداً لإعلان الدولة الإسلامية.

واذاً فالنبـيّ ﷺ، كان يقول بمصطلح هذا العصر:

هـل مـن أنـاس مسـتعدين أن يكونـوا لـي قاعـدة جماهيـرية وَمهـداً لـي ولدعوتي؟!

الى أن عقد رسول ﷺ في السنة الثانية عشرة وَالثالثـة عشـرة مـن نبوتـه بيعتي العقبة الأولى وَالثانيـة مـع قبـيلتي الأوس وَالخـزرج، وَالـذي أرى مـن المناسب أن أعْرِضَ بعض النصوص من السيرة في هذا الصدد:

يتبّين من سيرة ابن هشام أن عقد النبـي ﷺ البيعة مع الأوس و الخـزرج مرّت بثلاث مراحل:

المرحلــة الأولـى

ويتحدث عنها (ابن هشام) قائلاً:

((فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وَإعزاز نبيه ﷺ وإنجـاز موعـده لـه، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه النفر من الأنصار، فَعَـرَض نَفْسَـهُ على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم فبينما هو عند العقبـة لقـي

[1] السيرة النبوية لإبن هشام، ج2، ص218، و (البداية والنهاية) لإبن كثير، ج3، ص133، و تأريخ الطبري، ج1، ص556، و تأريخ الإسلام، للذهبي، ج1، ص77.

رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً))[1] ، ومعلوم ان هذا اللقـاء جـرى بـين رسول الله ﷺ وأهل المدينة سنة 11 هـ .

المرحلة الثانيــة :

ويتحدث عنها (ابن هشام) في سيرته هكذا:

((حتى اذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصـار اثنـا عشـر رجـلاً فلقوه بالعقبة، وهي العقبة الأولى، فبـايعوا رسـولَ ﷺ علـى بيعـة النسـاء، وذلك قبل أن تُفْرَض عليهم الحرب.))[2] ، وقد حدث هذا اللقاء سـنة 12 هـ.

والمقصود ببيعة النساء ما ورد في (الآية 12 من سورة الممتحنة): ﴿**يَا أَيُّهَـا النَّبِيُّ إِذا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَـزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ .

وسميت بيعة النساء، لأنه لم يرد ذكر القتـال والجهـاد فيهـا، والـذي هـو فرض على الرجال وحدهم.

المرحلة الثــالثــة :

في هذه المرحلة يحدثنا (ابن هشام) عن زمان ومكان البيعة قائلاً: ((ثـم ان مصعب بن عمير رجع الى مكة، وَ خرج الأنصار من المسلمين الى الموسم مع حُجَّاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكـة فواعـدوا رسـول الله ﷺ

---

[1] السيرة النبوية لإبن هشام، ج2، ص221.

[2] المصدر السابق، ج2، ص222.

العقبة من أوسط أيام التشريق..))[1] ،إذن فمصعب بن عمير ﵁ سفير رسول الله ﷺ بيثرب كان رأس الوفد هذه المرة والمكان هو العقبة نفسها، والزمان هو عام (13) للهجرة وفي أواسط أيام مِنى بعد شعائر الحج.

ويقول ابن هشام عن عدد ذلك الوفد:

((فجميع من شَهِدَ العَقَبة من الأوس والخزرج: ثلاثة و سبعين رجلاً وامرأتين))[2].

((وقد اختار من بينهم الرسول ﷺ اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وَثلاثة من الأوس، وَقد قال رسول الله ﷺ: (أَخْرِجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم) فأَخرجوا اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس))[3].

وقد أورد صاحب ((زاد المعاد في هدي خير العباد))[4]، نص بيعة العقبة الثانية عن جابر بن عبدالله ﵁ عن النبي ﷺ انه قال:

((تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وَالنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، و على أن تنصروني وَتمنعوني اذا قَدِمْتُ عليكم، مما تمنعون منه أنفسكم و أزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة، قال: فَقُمْنا اليه فبايعناه)) رواه مسلم.

---

1 المصدر نفسه، ج2، ص226.

2 المصدر نفسه، ج2، ص240.

3 المصدر نفسه، ج2، ص229.

4 ج3، ص46.

ثم أخذ الرسول ﷺ البيعة من نقباء (يثرب) وبنى القاعدة الشعبية في تلك المدينة المباركة، والحقيقة ان حضور خمسة وسبعين شخصاً ثم اختيار اثني عشر نقيباً منهم، حيث جعلهم رسول الله ﷺ على رأس قومهم يمثلون قبيلتي الأوس والخزرج، كان بمثابة الإنتخابات في هذا العصر.

وَ روى ابن هشام عن عبدالله بن ابي بكر رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال للنقباء: ((أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي ـ يعني المسلمين ـ قالوا: نعم))[1].

نعم ان هذه المسألة كانت تماماً كالإنتخاب في هذا العصر، دون زيادة ولا نقصان، فالخمسة والسبعون (73 رجلاً وامرأتان) كانوا ممثَّلين ومنتخبين عن أهل المدينة والإثنا عشر نقيباً كانوا ممثلين للخمسة والسبعين. وبعد انتشار تلك القاعدة الجماهيرية، يأمر النبي ﷺ صحابته الكرام بالهجرة الى المدينة، وأتْبَع ذلك بهجرته بنفسه مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه الى هناك، وبوصوله ﷺ الى هناك، يعلن عن قيام الدولة الإسلامية، وذلك بعد أن أنشأ المجتمع المسلم والجماهير المسلمة الحازمة التي ضربت بجذورها في أطناب الأرض، اذاً ليكن في معلوم الجميع، بأن الطريق الشرعي والطبيعي الوحيد لإنشاء الدولة الإسلامية والكيان الإسلامي، هو ما انتهجه قدوتنا محمد ﷺ وقد أشرنا الى ذلك في الصفحات السابقة، وكما رأينا، ليس فقط لم يتضمن إِنشاء الدولة أيّ نوع من الإرهاب أو القوة أو التهديد، بل لم تُرَقْ قطرة دم واحدة، ولم يضرب أحد بصفعه واحدة، وتأسست الدولة الإسلامية على يد النبي ﷺ وأصحابه الأكارم، بهيئتها الطبيعية ومسارها

[1] السيرة النبوية لإبن هشام، ج2، ص230.

المنطقي الذي كان منبثقاً من معمعان الـدعوة والتربيـة، وعلـى يـد الجماعـة المسلمة المتفاعلة مع المجتمع، والمجُسِّدة للإِيمان والعقيـدة والعبـادة والأخـلاق والآداب الشرعية الرفيعة.

الوقفـة الخامسـة

الإِجابة عن بعض الأسئلة والإشكالات

أعزائـــي!

في وقفتنا الخامسة هذه، أجد من الضرورة بمكان الإشارة – ولو بصـورة مقتضبة وسريعة– الى بعض القضايا التي تثير عند البعض نوعاً من الـتردُّد أو الغموض، في مجال موقف الشريعة من الإرهاب.

الأولى: قضـية القتـال والجهـاد :

هناك البعض ممن لم يفهموا الإرهاب علـى وجهـه، ولا فهمـوا الجهـاد في الإسلام كما ينبغي، يتساءلون فيقولون: أنّى ينبغي أن يقال عن ديـن يرتسـم الجهاد طريقاً، و يؤمن بمقاتلة الكفرة حتى تحريـر آخـر شـبر مـن أرض الله لم تصلها دعوة الإسلام[1]، أنّى ينبغي أن يقال بأنه ضد العنف والإرهاب؟

نقـول في الإجابــة:

أ/ الأصل أن تقوم الدولة الإسلامية بالجهاد في الحالات الإعتيادية للمسلمين، كما يقول الماوردي في كتابه (الأحكـام السـلطانية) ومـا ورد كـذلك في كتب علماء السياسة الشرعية، أن تكوين الجيش المقاتل والجهاد هـو مـن واجبات الخليفة، وقد لخص ذلك الماوردي في عشرة بنود(٢).

---

[1] وهذا ليس صحيحاً بإطلاق، إذ الكيان الإسلامي لايقاتل كل الكُفّار بل يقاتل الكفار المقاتلين والمعادين له، كما قال تعالى: [وقاتِلوا في سَبيلِ اللـَّهِ الـَّذين يُقاتِلُونكُم ولاتَعْتَدوا إنَّ اللـَّهَ لايُحِبُّ المُعْتَدين] البقرة-190-، وقد تطرَّقنا إلى هذا الموضوع في الحلقة الأولى من هذه السلسلة (أسس التسامح والتعايش في القرآن الكريم). ثم إنَّ إيصال الدعوة إلى الناس في أي مكان، أصبح سهلاً ميسوراً بفضل التطور التكنولوجي في مجال الإعلام والمعلومات، ولايتوقف على تجييش والجيوش!

(2) أنظر الأحكام السلطانية ، ص(6،7).

ب/ في الحالات غير الإعتيادية للمسلمين عندما لاتبقى لهم دولة ولا كيان – كما هي أوضاع الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر – ففي هذه الحالة يصبح واجباً على المسلمين أن يُعِدُّوا أنفسهم للجهاد حسب طاقتهم، اذ لايجوز ولايعقل أن يقعد المسلمين مكتوفي الأيدى أمام أهل الكفر ليستأصلوا شأفة دينهم، وهناك العديد من النصوص التي تبشر (الطائفة المنصورة) التي تقاتل في سبيل هذا الدين عندما تشتد الفتن و تضطرب الأمور، ومن ذلك قول النبي ﷺ: ((لن يبرح هذا الدين قائماً تقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة)) (رواه مسلم).

ج/ بتقصِّي النظر في نصوص القرآن والسنة، يتبيّن لنا صحة قول العلماء الذين يقولون، ان القتال عموماً ينقسم الى نوعين:

1) قتال الدفع   2) قتال الطلب[1].

ونحن نقول: اذا جاز القيام بجهاد الدفع – وهذا أيضاً ليس في كل الأحوال – دون وجود دولة أو كيان شرعي وجيش مقاتل، فلا شك إن من قبيل المحال أن يقام بجهاد الطلب من هجوم وإِزاحة للعراقيل التي تعيق الدعوة الإسلامية دون كيان شرعي إسلامي، بل حتى الدولة الإسلامية، لايمكنها القيام بذلك إلاّ بعد أن تكون لها قوة وسلطان يؤهلها لمقارعة اعدائها.

د/ والآن... لننظر ملياً الى ذينك النوعين من الجهاد، هل فيهما شيءٌ من الإرهاب؟ اما النوع الاول (جهاد الدفع) فلا ريب بأنه لا يشتمل على أي نوع من أنواع الإرهاب أو الإكراه، أو ممارسة الضغوط على الناس،

(1) أشبعنا هذه المسألة بحثاً في المجلَّد السابع من كتاب:(الإسلام كما يتجلَّى في كتاب الله)، أنظر:المطلب العاشر من المبحث الثاني من الفصل الثالث من الباب الثالث.

بل على العكس هو عبارة عن رد الإرهاب وَالضغوط التي يمارسها الظلمة: **﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾** (البقرة–194). والنوع الثاني كما نوَّهنا الى ذلك سابقاً، فقد شُرِّع في الأصل لتمهيد الطريق أمام مسيرة الدعوة الإسلامية، ولا صلة له البتة بالإرهاب، وهو يضع الناس أمام خيارات ثلاثة، يختارون أحدها بحريتهم و إرادتهم، دون إخافة أو إِلزام أو ضغوط، وهي: إما الإسلام، أو الجزية، أو القتال، وبتعبير آخر: فإِن الإسلام يقول للناس: من منطلق أنني آخر رسالة من الله عزّ وجلّ، فعليكم أن تؤمنوا بي، كي تنالوا سعادة الدنيا و فلاح الآخرة، ولكن اذا لم تؤمنوا، فإِنني لن أدع أحداً يحملكم على دين لاتريدونه، فابقوا على سبيلكم، ولكنكم من أجل ان تُثْبِتوا مسالمتكم و احترامكم لهذه الدولة وعدم معاداتكم لها، لأنها وجدت لتكون ظلاً يستظل بها البشر، فعليكم ان تدفعوا الجزية[1]، أمارة على احترامكم لها من جهة، وتكون لها عوناً تستعين بها على أموركم وحوائجكم من جهة أخرى، فإِن لم تُسْلموا ولم تَدْفَعُوا الجزية أيضاً، فأنتم كالصخرة التي تسدّ فم الوادي أو مشرب الماء، فلا هو يرتوي من الماء، ولا هو يدع الناس يروون، فلذلك يجب إِزاحة مثل تلك الصخور حتى لا يَحرموا الناس من ماء المعين الصافي. والدليل على ان القتال والجهاد

---

[1] هذا ماقلته حينذاك، ولكنِّي الآن أقول ــكما سبق أن قلته في حلقةٍ سابقة وذكرته بإسهاب في المجلَّدين السابع والثامن من كتاب (الإسلام كما يتجلّى في كتاب الله)ـ ليس دفع الجزية شرطاً مُحتَّماً في إقرار حالة الصلح والسِّلم بين الكيان الإسلامي وغيره من الكيانات السياسية، بل هذا متوقف على كيفية الإتفاق والتفاهم بين الطرفين، فقد يكون هناك إلتزام ماليٍّ، وقد لايكون، كما تشير إليه الآية (90) من (النساء) بوضوح، والتي هذا نصُّها: (إلاّ الّذين يَصلونَ إلى قومٍ بينكُم وبَينهُم ميثاقٌ أو جاءُوكُم حَصِرَتْ صُدُورُهُم أنْ يُقاتِلوكُم أو يُقاتِلوا قَوْمَهُم ولَو شاءَ اللـّهُ لَسَلَّطَهم علَيكُم فَلَقاتَلوكُم فإنِ اعتَزَلوكُم فَلَمْ يُقاتِلوكُم وألْقَوْا إليكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللـّهُ لَكُم علَيهِم سَبيلاً).

الإسلامي – حتى في حال الهجوم – لايتضمن إِكراهاً ولا سلباً للإرادة في الايمان وعدمه، هو قول جمهور العلماء – وان كان هناك جدل حول علة القتل هل هي الكفر، أم معاداة الإسلام – فهم يقولون:

إن علة قتل الكافرين هي معاداتهم للإسلام وليس كفرهم، كما يقول شيخ الإسلام (ابن تيمية) في كتابه (السياسة الشرعية)[1]، بأن هناك جدلاً حول هذا الموضوع، ولكن الصواب مع جمهور العلماء، ولكن إذا ما اقْتَنَع بعض أهل الكفر عن الدخول في الإسلام أو إِعطاء الجزية، ودخلوا في القتال مع الجيش الإسلامي، ثم أبْدَوا استعدادهم – في خضم المعركة – لدفع الجزية، فعلى هذا اتفقت كلمتهم جميعاً، بأنه يجب إِيقاف القتال وقبول الجزية منهم.

إذاً: فالإسلام يقول حينذاك للناس بلسان الحال: لقد أجبرتموني على قتالكم، فأنتم على كل حال أحرار في قبول الإسلام ورفضه، لا أحد يستطيع أن يرغمكم، ولكن بأي حق وبأي عقل تريدون أن تَمْنَعوا انتشارَ هذا الحق والنور الذي رفضتموه، فَتحْرِموا الناس من رؤية هذا الوجه الصبوح والصوت النَّدِيِّ! وليكن في معلومكم أنني لم أَمْدُدْ يداً الى سلاح كي تُسْلِموا، بل أقدمت على استخدام السلاح لأنكم أَعَقْتُم طريقي، فاضطررت لتطهير دربي والدفاع عن الحق، وكذلك عن حقوق الناس الذين يجب ان يروني ويعرفوني، وأقْطَعُ معاذيرهم وأُخَيِّرهم بين الإيمان وعَدَمِهِ، كما يقول الخالق جل شأنه: **﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾** (الانفال–42).

ولذلك فعندما أَفسحتم لي الطريق وكففتم شَرَّكُم عَنِّي، انقطع القتال من جهتي، حتى ولو لم تُسْلِموا، لأَنني لم أُنشِبْ نار الحرب أساساً بهدف

---

[1] ص132،133.

إسلامكم، ولذلك فبمجرد تحقيق الهدف، وهو كفكم عن معاداتي، وقف القتال لتوّه.

أما الآية القرآنية: **﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾** (الانفال–60) فهذا شيء مشروع وحق طبيعي لكل من يريد إخافة عدوّه، وهذا مقتضى العقل والشرع، فأن تكون للإنسان سلطة وهيبة تردع عدوه عن الإستطالة والتمادي، هذا لا يمتُّ الى الإرهاب بصلة قريبة ولا بعيدة، إذ هذا دفاع مشروع لاغبار عليه، لأن الإستسلام وعدم الدفاع عن النفس كبيرة من الكبائر، اذ عليك ان تتخذ من الإجراءات الوقائية بحيث لا يطمع فيك العدو كلقمة سائغة، فالذي يمهد الطريق لظالمه عن طريق استسلامه له، فهو أيضاً شريك مع من يظلمه، على أن الإسلام يأمر باستخدام القوة في الحدود التي وصفها الشرع، وأن تُتجَنَّب تعدي خطوطه الحمراء.

نعم ان الإسلام يقول: **﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾** (الانفال–60) وهنا يجدر بالملاحظة والإنتباه ان الله تعالى لم يقل (تهلكون به عدوكم) بل اكتفى بالقول (ترهبون به) اذاً يكفي من ذلك ان ترهب عدوك حتى لا يطمع فيك، ولايُعيق طريق إعلانك لدعوة الإسلام وَشريعته في حياة الناس، فما دام يدفع الجزية للدولة الإسلامية، أو تُعْلن حالة السِّلم و الموادعة و الحياد بأي صورة من الصّور، إذ أخذ الجزية جائز وليس واجباً مُحتمَّاً، فأنت أيضاً عليك ان تتركه على ماهو عليه من كفر.

الثانية: قضية الإغتيالات :

لقد أوجدت هذه القضية في نفوس الكثيرين شكوكاً وَقلقاً.

نعم أيها الأخوة! صحيح ما ورد من أن النبي ﷺ بعث (محمد بن مسلمة) لقتل (كعب بن الأشرف) رأس اليهود في خيبر، فقد ورد هذا في صحيحي البخاري ومسلم، وانه كذلك ﷺ بعث (عبدالله بن عتيك لقتل ابن أبي حقيق) وكنيته (أبو رافع) وهو من رؤوس الكفر والإِشراك، وهذا أيضاً ورد في صحيح البخاري.

وهنا يتساءل البعض: ألم يبعث النبي ﷺ من يذهب خصيصاً لقتل ذينك المشركين، وهم يفهمون الإغتيال مرادفاً لكلمة (تيرور)! فهم بدليل هاتين الحادثتين، يرون الإرهاب مشروعاً في الإسلام.

ولكن استدلالهم ليس في محله، لأننا سبق وأنْ عرَّفنا كلمة (تيرور) بأنها عبارة عن فرض تصورك أو معتقدك بالقوة على غيرك، لكن الإغتيال يعنى القتل في السرّ والخفاء!

ثم علينا ان نتساءل، متى وكيف أجاز رسول الله ﷺ قتل مثل أولئك وهو الملقب (رحمة للعالمين)؟ هنا نقول في الجواب: كان هذا في زمن وجود الدولة الإسلامية، وَكانت قد وقّعتْ اتفاقاً مع (كعب بن الأشرف) قائد اليهود في خيبر وَ(ابن أبي حقيق) أن يكونوا مواطنين صالحين مسالمين، ولكنَّهم غدروا و نقضوا العهد، وَبدؤوا بالعمل سراً مع أَلَدِّ أعداء الإسلام، وقد أنزل الله تعالى هذه الآية بخصوص ما نحن بصدده: **﴿وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾** (التوبة-12) فالحقيقة اذن ان قتل هؤلاء عن طريق الإغتيال حصل حتى لا تتعرَّض أقوامُهم للقتل معهم ويكتفي بسحق رأس الأفعى، ولماذا يصبح الناس عرضةً للقتل والحال ان قادتهم نقضوا العهد وقاموا بالخيانة، إذاً: لِماذا يدفع قومهم ضريبة شيء لم يكونوا على علم به، فالقادة

تواطئوا مع المشركين في وضع الخطط والمكائد ضد الإسلام، فلا وجه اذن لقتل قومهم ما داموا غافلين عما يجري، فالحل الأمثل في هذه الحالة هو سحق رأس الأفعى كما قلنا، وهذا أمر لا غبار عليه.

ونحن كالشعب الكردي في نضالنا التحرري كنا نغتال رؤوس حزب البعث من هذا المنطلق وعلى هذا الأساس، وأي شعب آخر، يقتل رؤوس أَعدائه، فهو موافق للحق و المنطق، سواء كان ذلك علناً أم سراً، فأنت تحاول أيسر الطرق لضمان الظفر بعدوك وَقلة خسائرك، مادام هو لا يتورع عن أي شيء يلحق بك الضرر، ولا يلتزم بالعهود والمواثيق، بل ينقضها كلما سَنَحَتْ له فرصة.

الثالثة: قتل الأبرياء و العُزّل :

هذا هو الإِشكال الثالث وَالأَخير، وَالذي رأيت من واجبي أن أُسلِّط عليه الضوء هنا.

البعض يقولون كيف لا يكون في الإسلام إرهاب، وهو يجيز لأتباعه قتل المواطنين العزّل، كالنساء والأطفال والعجزة والمرضى و العمال، ونحن بغية الإجابة على هذا الإِشكال سنعرض هذه الحقائق:

1/ ان علماء الإسلام قاطبة مُجْمِعون على حرمة قتل النساء والأطفال، لورود النص الصريح في هذا، إِضافة الى الحكم العام الذي يؤخذ من الآية الكريمة: **﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾** (البقرة- 190)

ومن الأحاديث التي تحرِّم قتل النساء والأَطفال حتى في خضم الحرب ومعمعانها، هو هذا الحديث: ((وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله عن قتل النساء والصبيان)) (رواه البخاري وَمسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما) وكذلك ما يخص عدم قتل الأجير والموظف، فقد ورد أيضاً حديث صريح للنبّي ﷺ يقول فيه: ((إنْطَلِقْ الى خالد بن الوليد فقل له: إن رسول الله يأمرك يقول: لا تقتلن ذرية ولاعسيفاً)) (رواه ابن ماجة وصححه الألباني). والمقصود بالذريّة: الأطفال، والعسيف هو الأجير. كذلك لا يجوز قتل الشيوخ الذين لا يشاركون في القتال، كما جاء في هذا الحديث الذي رواه أبو داود، وان كان في سنده مقالاً: (إنطلقوا باسم الله لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا إمرأةً)، وحول عدم قتل الفلاحين والكاسبين، ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هذا الأثر الذي يقول فيه: (اتقوا الله في الفلاحين فلا تقتلوهم الا أن ينصبوا لكم الحرب) سنن البيهقي[1]. على أن هؤلاء الأصناف الّذين ذكرناهم لا يقتلون إذا لم يشتركوا في القتال، وإلاّ فلا إشكال في إباحة قتلهم.

وقد مرّ معنا قريباً رأي جمهور العلماء الذي نقله (ابن تيمية) في (السياسة الشرعية)[2]، بأن قتل أهل الكفر ليس بسبب كفرهم، بل لعدائهم للإِسلام وأهله، ولذلك فإن دماءَهم تُعْصَمُ اذا رَضوا بدفع الجزية، ومعلوم بأن هذا هو موقف الشرع من الناس العُزَّل في حالة الحرب، أما في غير وقت الحرب، فالمنع من التَّعَرُّض لهم وارد بطريق أوْلى، فإذا كان قتلُ غير

1 ج2، ص91.
2 ص132،133.

المشاركين في الحرب أثناءها محرَّماً، فلا يبقى إِشكال في حرمة قتلـهم في غـير وقت الحرب، وتبقى مسألة أخرى:

إذا لم يفرِّق عدوّ كاليهود بين المحاربين والعُزَّل، ومارسـوا معهـم سياسـة الإبادة ونصب المذابح دون استثناء بين محـارب وغـير محـارب.. فهـل يحـق للمسلمين في هذه الحال أن يتصرفوا بالمثل ويقتلوا العدوّ من غير استثناء؟

هناك إختلاف في هذه المسألة بين العلمـاء، وَ ربّمـا كـان الصـواب مـع الذين يقولون: يجوز التعامل بالمثل. لأن الله تعالى قال: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾ (البقرة-194)، ويقول الله تعالى أيضاً: ﴿**وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**﴾ (الشورى-40) ولكن يجب الإنتباه الى ان اي عمل يكون ضرره أكبر من نفعه، فهو حرام، ولـو كـان في نفسـه مباحـاً، بـدليل الآية الكريمة: ﴿**وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**﴾ (البقرة-219).

وَأقـول ختــاماً:

مُلَخَّص القول ان كلمة (تيرور) ككلمة وَمصطلح فكري وَسياسي منبثق من المجتمع الغربي وَخصوصاً الفرنسي، والإرهاب جوهراً وَمضموناً ظـاهرة عالمية، أي إِنها ظاهرة عامة وَ ليست لها علاقة بالإسلام، ولو امـتهن المسـلم الإرهاب له عملاً، فقد خـالف بـذلك منهاجـه وَشـريعة ربـه، وان إِرهـاب العدو وإِبراز القوة له حال الحرب، لاربط لـه بالإرهـاب بـالمفهوم السـائد،

وان الدفاع عن النفس وعدم الإستسلام الى العدو أمرٌ مطلوب ومحبَّذ على الأقل.

وَكل عقلاء العالم يرونه حقاً مشروعاً أن يكون للإِنسان من القوة والعزة والهيبة، ما يردع به عدوّه ويصرفه عن الطمع فيه و التفكير في الإستطالة عليه.

والسلام عليكم

الحلقَة الرابعة

عولمة الغرب و
عالمية الإسلام

هذه الرّسالة

أيهـــا القرّاء الأحبَّـــة !

هذه الرسالة هي الحلقة الرابعة من هذه السلسلة، وهي كأخواتها كانـت في الأصل محاضرة للعبد الفقير، وأَلْقَيْتُها في نـدوة بقاعـة (الثقافـة) في مدينـة السليمانية، بتأريخ (18/رمضان/1423هـ-23/11/2002 م) ثم فرغهـا أحد إخوتنا من الشريط الصوتي، وراجعتها مكتفياً بتصرف يسـير في بعـض الفقرات، و الّا فهي مثبتـة هنا كما أُلقيت هناك.

فجزى الله الكريم كل معين لي لعمل الخير، وجعـل مـادة هـذه الرسـالة باعثاً على تقشيع الضـباب حـول هـذه المسـألة، كـي نـتمكن مـن التعامـل والتعاطي مع مثل هذه القضايا الحساسة في هذا العصر، وألاّ نقع في الإفـراط أو التفريط، والحمدلله باطِنًا وظاهراً و أولاً وآخراً.

تمهيد

الحمد لله رَب العـالمين والصـلاة والسـلام علـى رسـول الله محمـد وآلـه وصَحْبه أجمعين.

عنوان محاضرتنا هو « عولمة الغرب وعالميـة الإسـلام » وبعـد أن يتضـح المعنى الذي ينطوي عليه كل من العولمة والعالمية، سيتضـح لنـا أيضـاً سـبب تسمية العولمة الغربية بهذا الإسم.

وقــد ترجمــت كلمــة (**Globalization**) في اللغــة العربيــة بــــ(العولمة) واشتهرت هذه الكلمة، و إلاّ كان يمكـن ترجمتهـا بــ((تشكيل العـالم شـكلاً واحداً)) وكذلك سيتضح لنا معنى (عالمية الإسلام) في ثنايا البحث.

ومن نافلة القول أن نذكر بأن العولمـة باتـت تحتـل مسـاحة واسـعة مـن الأحاديث السياسية والثقافية والفكرية، ليس على مستوى الـدول المصـدرة للعولمة، فَحَسْبُ، بل حتى في بلد مثل كردستان الذي لاحظ له في العولمة ولم يتبين بعد حجم منافعهـا أو أضـرارها لـه، وإن كـان يَلُـوح في الأُفـق بعـض سلبياتها! وسأتناول – بـإِذن الله تعـالى – هـذا الموضـوع مـن خـلال ثلاثـة فصول رئيسية:

الفصل الأول: تعريف العولمة وتأريخها وأهدافها ونتاجها وآثارها.

الفصل الثاني: تعريف عالميـة الإسـلام ونقـاط الإخـتلاف بينهـا وبـين العولـمة الغربية.

الفصل الثالث: مقارنة بين عولمة الغرب و عالمية الإِسلام.

الفصـــل الأول

العـولـمة: تعـريفـهـا، تـأريخـهـا، أهـدافـهـا، نتـاجـهـا، آثـارهـا.

لاشك أَن العولمة – ليس موضـوعاً يمكـن اسـتيفاء مواضـيعه في محاضـرة كهذه، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، ونحن سنعمل وسعنا في تلخيص هذا الموضوع، و سَنُركِّزُ على ما نراه مُهِمّاً وما ينبغي أن يعرفه أبناء شعبنا، وسأعرض – كدأبي – حديثي عن العولمة في ضوء الواقع والعقل والوحي.

1- تعـريف العـولـمـة :

ومن الأهمية بمكان أن نقدم باديء ذي بدء، تعريفـاً للعولـمة، فنقـول: ان كلمة گلوباليزيشن (Clobalization) إنگليزيـة الأصـل، وقـد ترجمـت في العربية بـ(العولمة) أي جعل العالم على صورة واحدة، كقالـب وقولبـة، وقـد ظهرت هذه الكلمة لأول مرة واستخدمت في الولايات المتحـدة الأمريكيـة، ولهذا يطلق بعض الكتاب والسياسيين على (گلوباليزيشن)لفظـة (الأمركـة) بدل (العولمة) أي جعل كـل شـيء أمريكيـاً، وعلى هـذا التعريـف اللغـوي اتفقت كلمة اللغـويين والمثقفين، وكـذلك فـإن جميـع البـاحثين أو أكثـرهم متفقون على أن أساس العولمة وعمودها الفقري هو (الإقتصاد) ومع الأهمية البالغة للإقتصاد في العولمة، الا إنها ليست محصورة فيه، بل إن العولمة فلسـفة ودين من الأديان المعاصرة، ومنهج يريد الهيمنة على كل شيء، بمـا في ذلـك الهيمنة على الأديان والتصرف فيها، سواء في ذلك ما بقي سـالماً مـن العبـث والتغيير وهو الإسلام، أو ما طالته يـد التحريـف وَالتشـويه، مثـل المسـيحية واليهودية، فهي تريد وضع اليد على تراث الشعوب وعاداتها وتقاليدها، بما في ذلك طريقة الأكل واللباس، فالعولمة في أصلها ظاهرة إِقتصـادية، ولكنهـا تشعَّبت فيما بعد بجـذورها الى بـاقي منـاحي الحيـاة السياسـية والإجتماعيـة

والأخلاقية والفكرية والثقافية ووصولاً للعادات والتقاليد. والخبراء متفقون على أن مهد العولمة ومركزها الأول هو الغرب، فقد تجسَّدت العولمة بالدرجة الأولى في الغرب وخصوصاً في أمريكا، التي تمسك بزمامها، وهم متفقون أيضاً على أن العولمة هي نفسها التي تُسَمّى أحياناً بالنظام العالمي الجديد، وإن جذورها لَتضرب في أطناب الأرض في أمريكا والغرب، وليست بالظاهرة المستجدة حديثاً، ورغم قدم هذه الظاهرة، إلا أن طروءها بصورة بادية للعيان، لم تكن الا بعد حرب الخليج، وتحديداً بعد انهيار الإتحاد السوفيتي عام (1990)، وبإمكاننا القول: إن العولمة منذ ظهورها باتت الشغل الشاغل للناس والمستأثرة الأولى بإهتماماتهم، سواء من الذين يناصرونها و يشايعونها، أو الذين يعارضونها ويعادونها على حد سواء، ويؤكد الخبراء كذلك أن هذه ليست هي المرة الأولى التي تريد فيها دولة كأمريكا، أو حضارة كالحضارة الغربية أن تُحْكِمَ قَبْضَتها على العالم، بل إن هذه محاولة قديمة موغلة في عمق التأريخ، فقد سعى الأفارقة قديماً للسيطرة على العالم، وخصوصاً في عهد (الأسكندر المقدوني) وتكرر السعي أيضاً من قبل الرومان والفرس والتتار والمغول لإحكام السيطرة على الدنيا، فقد أوشك (جنگيزخان) إتمام السيطرة على معظم أرجاء الأرض، وحاول ذلك كل من الإنگليز وهتلر والفكر الشيوعي بالصورة نفسها، ولن أَتَعَرَّض لذكر الإسلام ههنا، لأن هذه العولمة والسعي لإحتلال الدنيا، يختلف تمام الإختلاف مع عالمية الإسلام، وسنذكر ذلك لاحقاً، إذ قد برزت جميع المحاولات والمساعي الرامية الى العولمة على أساس لايمت الى الله تعالى بصلة، بل بُنيت على أساس الأهواء والرغبات الإنسانية الجامحة، بل المتوحشة الهادفة الى فرض الذات وَالسيطرة على سائر الدنيا، أما ما يرمي اليه الإسلام

فمختلف عن هذه النـزوات الجانحـة الى الإجـرام، أشـدَّ الإخـتلاف، ولكـن الأوضاع المواتية التي تشهدها العولمة في هذه الأيام، حيث الفرصـة السـانحة والطريق الممهَّد أمامها، لم يسبق أن تكرر ذلك على مرّ التاريخ، وقد يكـون السمة الأبرز لذلك هو التقدم الهائل الذي تَشْهَدُهُ التكنولوجيـا في الحضـارة الغربية سواء في مجال الإعلام، أو تكنولوجيا الحرب أو السلم.

لقد بات في إمكان هذه الحضارة، بمـا في حوزتهـا من التقنيـات المعقـدة والتكنولوجيا المتقدمـة، أن تطـوي المسـافات طيـاً، وأن تضـع يـديها علـى خيرات بلدان الدنيا، شاءت أم أَبَتْ!

2- أهـداف العـولمـة ومقاصـدها :

إن مضمون العولمة يبدو واضحاً من التسمية نفسها، فهي توحيد العـالم و إخْضَاعُهُ لسيطرة واحدة، ولكنني بُغية أخذ الكلام من أهل العولمة أنفسـهم، وجدت من الضروري أن نستمع الى شخصين من سياسيي أمريكا وهما:

أ/ (فرنسيس فوكوياما) وهو من أصل ياباني متجنس بالجنسية الأمريكيـة، فقد ألـَّفَ هذا كتاباً تُرجم الى العربية تحت عنـوان: (نهايـة التـأريخ وخـاتم البشر) أو (نهاية التأريخ والإنسان الأخير) طبع في سنة (1993)، وقد ذكر (فوكوياما) أموراً وقع فيها تحت تأثير سابقيه، ولكنه اسـتقى فلسـفة جديـدة من خلال الأخذ من الآراء المتنوِّعة، ولعب بذلك دور المنظِّـر لهـذه الظـاهرة العالميـة المسـماة بالعولمـة، وهـو يريـد أن يثبـت أن هـذه الظـاهرة تتمتـع بالمشروعية، وتنشأ من خلال تطور البشرية وسيرها قُدُماً الى الأمـام، وعلـى جميع الأطراف استقبالها والإستسلام لها، لأن حالةً فُضْلى على هذا المسـتوى من الرقيّ لم –ولن– تحدث! و هذه خلاصة أقواله.

والواضح أن (فوكوياما) يتحدث تحت تأثير فلسفة (هيگل) التي يشير إليها مراراً في كتابه، كما أنه استفاد بدرجات متفاوتة من كل من (ماركس) و (داروين) و (نيتشه)، أخذ من كل هؤلاء ما يتناسب مع أفكاره وكوّن من كل ذلك فلسفة مستقلة، والمثير للإنتباه أن (هيگل و ماركس و نيتشه) هم من الألمان، وأنتم تعلمون أن الألمان كانوا المبادرين لإشعال الحرب العالمية الأولى والثانية وخصوصاً الحرب العالمية الثانية، حيث إن (هتلر) وانطلاقاً من تصوراته الشوفينية، كان يرى ضرورة خضوع شعوب العالم للنازية، وقد أخذ (فوكويا) تأثير الروح على المادة من (هيگل) وصراع الأشياء وتضادها وتطورها نتيجة ذلك الصراع، وكذلك أخذ من (ماركس) و (نيتشه) بعض التصورات الإستبدادية المجحفة والغريبة. فـ(نيتشه) الألماني يعتقد أن المساواة بين القادر والعاجز أمام القانون، ظلمٌ لا معنى له، ومن شأن ذلك أن يتسبب في عدم تطور الحياة وموت القدرات والإستعدادات الخارقة، وكان يعتبر مساواة الفقراء والأَغنياء ظلماً وإجحافاً، وكان يقول: بأن مقتضى العدالة أن يستخدم صاحب السلطة سلطته فيما يشاء، وأن يستفيد الثري من أمواله كما يطيب له، وليذهب الفقير الى الجحيم!! هذا هو مضمون نظرية (نيتشه)، وأخذ (فوكوياما) من (داروين) نظرية: (البقاء للأقوى أو البقاء للأصلح) وهذا من أهم أسس النظرية الداروينية، ثم يصل (فوكاياما) الى نتيجة و يتلخّص فيها كتابه المذكور مفادها: أن الحضارات جميعها ماتت وانهارت إثر تطور الحياة، أو أنها تسير نحو الإضمحلال والفناء، وهذا بالنسبة لحضارات الدنيا عموماً، وحضارات الشرق خصوصاً، بما في ذلك الإسلام!! ويعتقد كذلك أن خلاصة أفكار البشرية وسياستها وعقولها قد تجمعت في الديمقراطية والليبريالية! ومن قناعات (فوكوياما) أنه يقول: لابد لجميع البشرية أن تقتنع بهذا الفكر والمنهج، وأن تتجمع قاطبة حول

الرأسمالية، لأن أيـة فكـرة أو منهـاج آخـر – في اعتقـاده – لا تسـتحق أن تتمحور حوله الحياة، ويقول أيضاً: إن الإنسان الذي يعيش في ظـل العولمـة يعتبر الإنسان الأفضل، ولهذا سمّاه بخاتم البشر، أي إنَّه–كما يقولون– الرجل (السوبر مان)، ويقول وفي تلك المرحلة سيتوقف التاريخ نهائيـاً، وقـد كـان (ماركس) مقتنعاً بتوقف التـأريخ، وكـذلك (هيگل) الـذي كـان يعتقـد أن للتأريخ خاتمة، ولكن (ماركس) كان يتصور أن الشيوعية هي التي سَيَتَوَقّفُ عندها التأريخ، و (فوكوياما) على العكس من ذلك يقول: كلاّ، بل سيكون توقف التاريخ ووصول الإنسان الى المرحلة الأخيرة من تقدمـه، عنـد ظهـور المجتمع الرأسمالي وتَصَدُّرِهِ لِقِمَّة هرم نظام الحكم في الحضـارة الغربيـة، بكـلا شـقّيْهِ الإقتصادي والسياسي.

لكن (فوكوياما) عندما يريد الإستدلال لإثبات صحة تصوراته – كما بدا لي من الإطلاع على كتابه – يلاحظ ضخامة ادعاءاته وضحالة اسـتدلالاته، فهو كما يقول المثل المشهور: تمخَّض الجبل فَولَدَ فئرا! إذ هـو تكلـم بكـلام بالغ الضخامة، حتى اذا استدل لكلامه، لوحظ فيه الضآلة والصغر!! فـأقوى دليل لفوكوياما هو قوله:

مادام الإتحـاد السـوفيتي والعسـكر الشـرقي والحضـارة الإشـتراكية قـد انهارت من جهة، ومن جهة أخـرى لا يوجـد عـدو أو منـافس قـوي أمـام الحضارة الغربية، فإن هذا الواقع هو الواقع الأخير، وهذه المرحلة والحضـارة هي المرحلة والحضارة الأخيرة، ولن تأتي الى الوجود قوة أو حضـارة أُخـرى تنافس الرأسمالية أو الفلسفة والنظام الحاكم في الغرب!! وفي نظـري أن هـذا الكلام ليس الا حالة من الغرور والتكبر واحتقار الناس، وهـذه الـروح مـن الزهو وَالخيلاء واحتقـار النـاس، تلمـس في كتـب (فوكويامـا) لمـس اليـد، ومعلوم أنّها تُلْمَـس في التصـريحات والأحاديـث الـتي يُـدْلي بهـا كـثير مـن

مفكري وسياسي أوربا وأمريكا، وهذه الحالة التي ذكرناها لها جذور عميقة في التأريخ الغربي، منذ عهود الإِغريق واليونان والى يومنا هذا، فمثلاً: كان اليونانيون يطلقون على غيرهم لفظة (البربري) أي القروي أو الصحراوي.

ب/ أما الشخص الثاني الذي تحدث عن العولمة منظراً ولكن بأسلوب آخر، هو (صموئيل هانتيگتون) وهو أيضاً أمريكي، وقد طبع في سنة (1996) كتابه الذي ترجم الى العربية بعنوان (صِدام الحضارات) أو (صراع الحضارات) وجدير بالذكر أن المؤلف شخص يهودي وأستاذ العلوم السياسية في جامعة (هارفارد) وهي جامعة مشهورة، وهو الآخر يريد إقناع الناس بالفكرة ذاتها التي ينادي بها (فوكوياما) وهي ضرورة أن تتصدَّر الحضارة الغربية التي تجد نفسها اليوم في العولمة، لحاكمية الدنيا عن بكرة أبيها!!

ولكن (هانتيگتون) يريد الوصول الى قناعته بأسلوب آخر، و آلية أخرى، فهو يقول: ليس صحيحاً أن الحضارة هي فقط الحضارة الغربية، بل هناك حضارات أُخرى كثيرة، و يعدِّدها جميعاً ثم يحدد من بينها حضارتين فقط، وهي الحضارة الصينية، والحضارة الإسلامية، وهو يشير الى قوة هاتين الحضارتين وبأنهما لو اتحدتا فستشعلان حرباً ضروساً ضد حضارة الغرب، و (هانتيگتون) يُحَرِّضُ الغرب الرأسمالي بصورة غير مباشرة، ضدّ الحضارة الإسلامية والصينية، وأن تستجمع قواها قبل أن تَتَّحِد هاتان الحضارتان، ويركز الكاتب على صراع الحضارات التي حدث ويَحْدُثُ بإستمرار، وهو يقول: إن أفضل ما كانت البشرية تحلم به قد تحقق، وهي العولمة والنظام المعمول به في الغرب في الوقت الحاضر، ويقول، ولا بُدَّ من أخذ جانب عظيم من الحيطة والحذر بغية حماية هذا النظام، خصوصاً من الحضارتين

الإسلامية والصينية، وبالطبع فإن (هانتيگتون) يخالف (فوكوياما) في بعض الأمور، من ذلك: انه يعترف بثلاث حقائق:

الأولى: ان هناك غير الحضارة الغربية حضارات أخرى.

الثانية: ويقرّ أيضاً أن العالم الشرقي بما فيه العالم الإسلامي لا يمكن بحال من الأحوال أن يستسلم للغرب، لأنَّ خلفيتهم الفكرية وفلسفتهم في الحياة ونظرتهم لها مختلفة عن نظرة الغرب، نعم هم يستفيدون من الحداثة الموجودة، في أوربا والغرب، ولكنّهم لا يَتغرَّبُون أبداً، أي إنَّهم يطوِّرون أنْفسَهم ويقومون بالتجديد ويستفيدون من تكنولوجيا الغرب، ولكنهم ليسوا على استعداد أن يستسلموا للفلسفة والسياسة الغربية.

الثالثة: وأخيراً فإن (هانتيگتون) يعترف أن الصحوة الإسلامية علامة على انتعاش المسلمين ودبيب الحياة فيهم، ويقول: إن النهضة الإسلامية والوعي الإسلامي الموجود في العالم الإسلامي عبارة عن الصحوة الإسلامية، إذاً لو نظرنا الى العولمة بمنظار هذين الكاتبين – علماً أن جميع المؤيدين للعولمة يعتبرون هذين الشخصين و كتاباتهما مُمثِّلاً للحضارة الغربية، وأبرز مفكرِّينْ ومُنَظِّرينْ لها – نصل الى نتيجة أن العولمة الغربية تريد من العالم – طوعاً أو كرهاً – أن يَسْتَسْلِم لها بالكلية، سواء ما ظهر من كلام (فوكوياما) الذي يقول: إنَّ الجميع سيذوبون ولن يكون في مقدور أحد الوقوف على رجليه، أو من كلام (هانتيگتون) الذي يقول: كلا، يجب إخضاعهم بالقوة، ومَنْ أبرز رأسَه فلا بد من ضربه، لكي تبقى هذه الحضارة! اذاً: فكلاهما يريدان إِيصال الناس الى القناعة التي مفادها: أنه لا مناص من هيمنة الحضارة الغربية على جميع شعوب العالم ومِلله، ويجدر ان يقال في هذا المقام: أن قضية العولمة قد سمعت قبل سنة (1990) من كثير

من أعيان السياسية الأمريكية، فقد نقل عن الرئيس الأمريكي (روزفلت) أنه قال بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية: (الآن يجب أمركة العالم).

وكذلك الرئيس الأسبق (إيزنهاور) الذي ينقـل (حسـن قطـامش)[1] كـلا القولين، قال: (لقد جاء بنا القدر لنقود الدنيا) اذاً فنظرية سيادة الغرب على العالم له في الفكر الامريكي بل الغربي عموماً جذور متأصلة.

3- مُسـَوِّغـات العـولمــة :

والآن دعونا نُلْقي نظرة الى مسوِّغات العولمة لدى مؤيِّـديها، فـأي شـيء يسوِّغ قولَهم: إن العالم يجب أن يخضع لسـيطرتنا! وإيضـاحاً لهـذا الموضـوع نقول: إن أمريكا والغرب عموماً، يتذرعون ببعض الحجج لإضفاء الشـرعية على سياساتهم التي يطلقون عليها العولمة تارة والنظام العـالمي الجديـد تـارة، أخرى، وهي:

أولاً/ تثبيت الديمقراطية وإلزامُ الناس بها[2].

ثانيــاً/ الدفاع عن حقوق الإنسان.

ثالثــاً/ مكافحة الإرهاب.

رابعــاً/ حق تقرير المصير للشعوب، و عدم اضطهادها.

خامساً/ إيجاد الرفاهية وضمان الحقوق المدنية للناس و المجتمع.

نعم، هذه بعض المبررات الشكلية والشعارات التي يرفعها العالم الغربي لإضفاء الشرعية على ظاهرة العولمة، كغطاء لتحقيق أهدافه التي تعد

(1) أنظر: نـهاية الجغرافية ، سيادة الدولة أم سيادة العـولـمة (حسـن قطامش).

(2) إن إلزام الناس بالديمقراطية في حد ذاتها شـيء غريب، إذ لو كانت الديمقراطية حقاً (حكم الشعب) فينبغي أن يسـعى الشعب بنفسه لتثبيتها، لا أن يتدخل أحد من خارج إرادتهم و يلزمهم بها!!

قمة أمنياته، ولكننا لو أمَعَنّا النظر في تلك الشعارات في دنيا الواقع، لتبين لنا أن أمريكا والغَرْب ليسوا صادقين معها، وأنتم تعلمون بأننا خصصنا مجموعة من الندوات لبحث الديمقراطية وحقوق الإنسان والإرهاب وميَّزنا بين غثّها وسمينها، فنحن بالإضافة إلى ما لدينا من الملاحظات على تلك الشعارات في حدِّ ذاتها، كذلك لنا إنتقاداتنا وملاحظاتنا على استعمال الغرب لها كمصطلحات بَرّاقة قلَّما تجِدُ لها مصداقية على أرض الواقع، و خاصة في مجال تعامل الغرب مع غيره، أجَلْ فعلاوة على ما في نفوسنا من تلك الشعارات معنىً ومضموناً، فإنها كما نرى تستخدم وفق قاعدة: (الكيل بمكيالين)، فالشعب الشَيشاني– مثلاً – لا يرجعون الى أصول روسية، ولهم دينهم المستقل، وهم شعب مستقل، واعترف بهم ككيان ودولة مستقلة، ومع ذلك فالروس لا يزالون يعملون فيهم تقتيلاً وتذبيحاً، ويجعلونهم تحت سلطتهم بالقوة والإكراه، وأمريكا لا تُحرِّك ساكناً وكأن شيئاً لم يكن، وفي المقابل فإن تيمور الشرقية وهم قومية واحدة مع أندونوسيا، نعم إن أكثر سكانها اليوم من النصارى، ولكنهم في الأصل مسلمون قد نُصِّروا، وَفي هذه الحالة – على العكس تماماً – نجد أمريكا تبادِر الى التدخل وتدعوا الى استقلال تيمور الشرقية، لماذا؟ لأن أندونوسيا دولة مسلمة، بل أكبر دولة مسلمة، و(90%) من سكانها مسلمون، من أصل (200.000.000) مليون نسمة، فهنا تطالب أمريكا بحق تقرير المصير لتيمور، وتخرس هناك لأن روسيا دولة كافرة، والشيشان شعب مسلم، ونحن نرى بأمهات أعيننا ما تفعله اليهود بالمسلمين، وماذا تفعل الهند مع الكشمير، وماذا يَلْقى المسلمون في داخل الهند من الظلم

وهضم لحقوقهم، ومع كل ذلك فأمريكا – باستثناء ذَرِّ الرماد في العيون – خرساء لا يُسْمَعُ لها صوت، لكنها اذا كانت لها مصالح في أماكن أخرى، فربما لو أدَّب والد ابْنَهُ، أو خاصم جارٌ جارَه، لسارعت أمريكا بالتدخل والإِحتجاج!!

4- آثـــار العولـمـة و نتـاجـاتهـا:

والآن آن الأوان أن نحيط علماً بآثار العولمة، والمهم أن نعرف هنا قبل كل شيء، أنه قبل ظهور النظام العالمي الجديد أو ما يسمونه العولمة، كان التطور التكنولوجى في أوربا والغرب، و الذي هو مُنْبَثِقٌ في التأريخ الغابر من الإسلام و حضارته، ومن أوربا في الوقت الحاضر، إذاً: التطور التكنولوجي ليس وليد اليوم، بل كان موجوداً في الماضي أيضاً، ولكنه اليوم في ظل العولمة تقدمت علوم التكنولوجيا والجوانب التقنية بصورة مدهشة. لماذا؟ لأن الدول العظمى لها إمكانيات وأموال طائلة، وفي مقدورها تسخير الناس وتوظيف الإختصاصيِّين، ولهذا دور هائل في تنمية التقنية وتطوير العلوم، و الاّ فالتكنولوجيا كان موجوداً في الماضي أيضاً، ويمكن النظر الى نتاجات العولمة من ناحيتين:

أ– من ناحية إِيجابية، وهي كونها في خدمة البشرية ومصالح الناس في كثير من جوانب الحياة المتعددة، ولاشك أن تلك نعمة وخير يستدعي شكر الله تعالى.

ب– ومن ناحية سلبية وقاتمة، وهذا ما خصصنا بحثنا لذكرها، فللعولمة جانب سيء بدأت تظهر سيئاته في حياة البشرية، رغم أَن العولمة لم يمكّن

لها في العالم تماماً، وان أمريكا لاتزال منهمكة في بسط نفوذها على العالم أجمع، وأنتم تعلمون أن العولمة على كل حال، لم تصل الى أهدافها جميعاً، ولكن المراحل التي قطعتها لحد الآن، تمخَّضت عن آثار شديدة الخطورة، منها:

أولاً: اذا أَلقينا نظرة على العالم من الناحية السياسية، ماذا نرى؟ من البديهيات أن كل شعب يجب أن يعيش في وطنه مستقلاً لا يظلمه أحد، ومعلوم أَن حب الوطن مسألة فطرية مغروزة في أعماق الإنسان، بل حتى الحيوانات والطيور تجد هذا الشعور وتدافع عن أماكنها وأعشاشها، لكنه في ظل العولمة يراد ألاّ يبقى لدولة استقلالها، ومن الناحية السياسية، نلاحظ أن أمريكا ومن معها، لا تتقبَّل بحال من الأحوال أن تأبى دولة تدخُّلَها في شؤونها، وأي دولة لا تبادر في الإنقياد لهيمنة أمريكا وسطوتها، فسرعان ما تجد نفسها وقد فرض عليها الحصار بذريعة من الذرائع، وضغوطات عديدة أخرى، وهذا ثمن كلمة «كلاّ» إذا صدرت من أية دولة! ولا شك أن هذه الحالة السياسية تجسدت في أبرز صورها في تصريح الرئيس الأمريكي (جورج W بوش) الذي قال فيه: (كل من ليس معنا فهو ضدنا!) وبوش وإن كان قال هذا الكلام في معرض حديثه عن (الإرهاب) الا أنه يعتبر مبدأً عاماً تتعامل به أمريكا مع الدول، وهي لاشك سياسة فرعونية بحتة، وإستبداد مابعده إستبداد، وعلى من يعتبر نفسه حراً أَبيّاً ألاّ يَرْضَخ لهذه المقولة المُجْحِفة والإنقياد لسياسات أمريكا وتصوراتها العوجاء، فنحن علينا – قبل كل شيء – أن نسأل أمريكا والغرب: ما هو تعريف الإرهاب من فضلكم؟ لأن الإرهاب اذا كان عبارة عن

فرض الأفكار على الآخرين بالقوة، أو فرض الدولة نفسها على الشعب وإرعابهم وإرهابهم، فكلّنا نرفض هذا، وأما إذا كان الإرهاب عبارة عن كل من يقف بوجه السياسة الأمريكية أو الغربية أو اليهود، أو كل من قال لسياسة العولمة والعالم الرأسمالي، كلاّ!

فهذه تهمة بلهاء، وباطل لا يستسيغه ولا يُسلِّم به أحد، ونحن نقول: إستناداً الى التصريح الذي أدلى به (بوش) فالألوان محصورة في الأبيض والأسود، وهذا متعارض أشد التعارض مع الحكمة التي خلق الله من أجلها البشرية، وسنتكلم عن هذا لاحقاً، فشريعة الله تعالى تُقِرُّ بكل الألوان والأطياف واللغات، ولكن العولمة ترمي الى صبغ الناس بصبغة واحدة، وهي الصبغة التي تستحسنها هي، ويجب زوال ما خلاها، إذن فهي حتى لا تُقِرُّ باللونين أيضاً، وإنما تعترف مقدماً باللون الآخر تمهيداً لتصفيته بذريعة من الذرائع التي تختلقها، ووفق هذه السياسة فإن الدنيا قاطبة يجب أن تتلوَّن بلون واحد، وهذا متناقض مع طبيعة الشعوب، والحكمة التي من أجلها خلق الإنسان، وهي كون الإنسان يُمتحن في هذه الدنيا، وأن الله جَلّت حكمته قد قسم الناس الى الشعوب والقبائل، والحقيقة أن موقف أمريكا زعيم النظام العالمي الجديد، هو ذاته موقف فرعون يتكرر بعد مرور أكثرمن أربعة آلاف عام، فقد قال فرعون كما نقل عنه القرآن الكريم: ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلاّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ (غافر-29).

والغريب أن العلمانيين يتهمون الإسلاميين بأنّهم يقولون: إن الحق حِكْرٌ عليهم ومحصور فيهم، ولكن كلاّ فنحن لن نقول هذا، بل نقول الحق فيما يقوله الله تعالى ورسوله ﷺ ، وما من إسلامي يقول: أنا

كإنسان، كل ما أقوله هو الحق بعينه، لماذا؟! فقد لا أكون آخذاً بكل ما أمر الله تعالى به، أو لا أفهمه فهماً صحيحاً، أو أكون مخطئاً بسبب كوني إنساناً، أو أخالف الدين في شيء ما، ولا أَمتثل هديه، لهذا فنحن نقول: الحق ما يقوله الله ورسوله، ولا نقول بحال من الأحوال: الحق ما نقوله نحن، وإن الله سبحانه قد أعلن بصراحة أنَّ الحق ليس محصوراً في أحد، حتى في الأنبياء عليهم السلام، وإن كانوا أصحاب عقول وأفهام متكاملة، ولكنهم أيضاً معرّضون للخطأ في الأمور الإجتهادية، إلا أَنَّهم لا يُقَرّون على الخطأ، وَنستشهد هنا بحديث للنّبيِّ ﷺ في (صحيح مسلم) فقد ورد أنّ النبّي ﷺ رأي ذات يوم بعض أصحابه يؤبِّرون النخل، فقال لهم: لماذا تفعلون هذا؟ قالوا: حتى تثمر، فقال النَّبيُّ ﷺ: ما أحسب إثمارها واقفاً على تأبيرها، فترك الناس التأبير، وعندما حَلَّ وقت الثمر، لم تثمر النخيل بسبب عدم تأبيرها، فجاء الأصحاب وأخبروا النَّبيَّ ﷺ عن ذلك، فقال ﷺ ما معناه: إذا أخبرتكم الخبر عن الله فخذوا عَنِّي، وإنْ أَخبرتكم عن شيء يخص دنياكم:(أنتم أعلم بأمر دنياكم)[1]، نعم فكل ما يرد من

---

[1] وهذا هو نص الحديث برواياته الثلاث:
أ- (عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: مَررْت مع رسول الله ﷺ بقومٍ على رؤوس النَّخل، فقال: مايَصْنَعُ هؤلاء؟ فقالوا فقالوا يُلَقِّحونهُ، يجعلون الذكر في الأنثى فَتَلْقَحُ، فقال رسول الله ﷺ : ((ما أظن يُغني ذلك شيئاً)) قال: فأخبروا بذلك فتركوه، فأُخبِرَ رسول الله ﷺ بذلك، فقال: إن كان ينفعهم فَلْيَص}نعوه فإني إنما ظننتُ ظناً، فلاتؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذب على الله عز وجل) مسلم:6079.
ب- (..عن رافع بن خديج قال: قدِمَ النبيُّ ﷺ المدينة وهم يأبُرون النَّخل، يقولون: يُلَقِّحون النَّخل، فقال: ماتصنعون؟ قالوا: كُنّا نَصْنَعه، قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً، فتركوه، فنفضت أو فَنَقَصتْ. قال: فذكروا ذلك له فقال: ((إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، , وإذا أمرتكم بشيء من رأيٍ فإنما أنا بشر)))رواه مسلم:6080.

الله تعالى فهو الحق المطلق، وكل مايرد عن البشر وإن كان نبـّياً ﷺ، ففيه نظر،ما لم يكن وحياً أوحي إليه من الله تعالى، لأَنه يحتمل كلا الإحتمالين، ولكن الأنبياء لا يُقَروّن على خطأ، بل تصحَّح لهم أخطاؤهم. والخلاصة إن أمريكا بعولمتها صنعت ظروفاً سيئة جداً، وهي ماضية في سيرها نحو الأسوء، وواضح أن أمريكا والنظام العالمي الجديد يُنفِّذان تحركاتهما السياسة تحت مظلة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، وما شابه ذلك من المؤسسات الدولية، فنسأل الله العافية، عند يتحول حاميها إلى حراميها!

ثانياً: وأما من الناحية الإقتصادية، فإن أمريكا وباقي الدول التي تتزعَّم النظام العالمى الجديد، ينفذون أعمالهم ومشاريعهم القذرة عن طريق المصرف الدولي والشركات ذات الجنسيات المتعددة، والتجارة العالمية..الخ، ولهذا تفاصيله وقضاياه الدقيقة، وأنا لست مختصاً في هذا الموضوع، ولكنَّني على كل حال على إلمام بالموضوع، ولات حين تفصيل، عن رغبة النظام الرأسمالي والعولمة في وضع الناس في سباق مع تلك الشركات، كما قال رئيس الوزراء الماليزي (مهاتير محمد): النظام العالمي الجديد يريد من الشعوب الضعيفة والدول النامية، أن تبرز الى ميدان الصراع الإقتصادي والتجاري، ليتمكن العالم الرأسمالي في النتيجة بالأخذ بزمام العولمة بإمكاناتهم الهائلة والمروِّعة، والدول النامية بإمكاناتها البسيطة، ويُمثِّلُ هذه المبارزة غير المتكافئة، بمصارِعَيْنِ

جـ (عن أنس أن النبيَّ ﷺ مَرَّ بقومٍ يُلَقِّحون، فقال: ((لو لم تفعلوا لَصَلح)) قال: فخرج شيْصاً. فَمَرَّ بهم، فقال: ((ما لِنَخْلِكم؟)) قالوا: قلت كذا وكذا، قال: ((أنتم أعلم بأمر دنياكم))) مسلم:6081.

أحدهما من وزن (150) كغم، والآخـر مـن وزن (60–70) كغـم، والنتيجة وفق هذا المثال، واضحة لا تحتاج الى تعليق.

ونحن جميعاً رأينا كيف انهار الإقتصـاد النـامي للـدول السَّـبع الـتي تعرف بنمورآسيا(1)، في أعقاب الصـراع الخـادع الـذي خططـت لَـهُ الدول الغربية الكبرى.

ومن الآثار السيئة للنظام العالمي الجديد، أنَّهم إذا غضبوا مـن دولـة بسبب من الأسباب، يقومون بفرض الحصار الإِقتصادي عليها، بمعنـى أنّهم في سبيل تأديب تلك الدول ومعاقبتها، يقومون بإِماتة شعوبها من الجوع!! والمثال على ذلك النوع من التحـديات الغربيـة والأمريكيـة المعاصرة ذات الآثار المشؤومة، ما حـدث ويحـدث في العـراق وإِيـران والسودان وليبيا.

ومن الآثار المأساوية الأخرى للعولمة والفلسفة الرأسماليـة، ماكـان في التجارة المجردة من كل دين أو قيم أو خلق، فهم ينظرون الى أي شيء يعود بمنفعةٍ وَأموال كثيرة، تمـلأ جيـوبهم وتكـون رائجـة في السـوق، فيعمدون الى إِنتاج تلك البضـائع وَالأشـياء، حتـى وإن كانـت تلـك البضائع لا نفع فيها للشعوب، أو عادت عليهم بالأضرار الوخيمة.

لماذا كل هـذا؟ لأن الفلسـفة الرأسمالية والعلمانيـة والـتي خرجـت العولمة من أحضانها، قد بُنـــيَ علـى أسـاس عـدم الإعتبـار لله واليـوم الآخر والضمير،واعتبار الحياة مادة بحتة، و الإنسان حيواناً بهيماً!

---

(1) وهـي : (التايلنـد، والفلبيـين، و كوريـا الجنوبيـة، و تـايوان، و أندونوسـيا، و ماليزيا، واليابان)، أنظر (في مواجهة العولمة) ص (125)، زكريا بشير إمام.

لهذا فنحن نرى في أجهزة إِعلامهم، كمّاً هائلاً مـن الأفـلام الخليعـة والماجنة، والـبرامج القـذرة الـتي لا تخـدم البشـرية بـأيّ مقيـاس مـن المقاييس.

لماذا يروَّج لهذه الأفـلام والـبرامج كـل هـذا الترويـج؟ لأنهـا تـأتي بأموال لا عَدَّ لها ولا حصر، ولا يهـم بعـد ذلـك أن تنهـار الأخـلاق وتنفصم أواصر الأسرة وتنقطع!

ومن آثار الرأسمالية الخطيرة تحت ظل النظام العالمي الجديد، أنَّ الهُوَّة باتت تتسع بـين الأثريـاء والفقـراء، وهنـاك إحصـائيات غريبـة بهـذا الصدد فمـثلاً: أورد (روجيـه غـارودي) في كِتابـه الـذي تـرجم مـن الفرنسية الى العربية بعنـوان (نحـو حـرب دينيـة) قـائلاً: في السـنوات الثلاث الأخيرة، بلغ الفارق بين دخل الفرد في الدول الغنية والفقـيرة الى (1/150) أي الدول التي تسمى الآن بالشمالية والجنوبيـة، أي اذا كان المواطن العربى يصـل دخلـه شـهرياً في الماضـي الى دولار واحـد والمواطن الأوربي والغربي الى (30) دولاراً، فإن هذه النسبة ارتفعـت الآن الى واحد مقابل مائة وخمسين، وهـذه الإحصـائية تعـود الى سـنة (1996) ومن المؤكد أنها ارتفعت الآن أضعاف ذلك.

ويقول روجيه غـارودي أيضـاً: يمـوت علـى مسـتوى العـالم سـنوياً (15.5) مليون طفـل بسـبب الجـوع والأمـراض الناجمـة عـن سـوء التغذية، وبالطبع فإِن هذا العـدد كلـه مـن العـالم الإسـلامي والـدول الأفريقية والآسيوية[1].

[1] - أنظر: (نمو حرب دينية) ص11.

ويقول أيضاً: إن موارد العالم لو قسمت الى (100) وحدة، لكانت (83٪) منها في الغربيين الـذين يشكّلون (20٪) من سكان العالم والباقي لغيرهم الذين يشكّلون (80٪) من سكان العالم، إذاً: فإن هناك فارقاً ضخماً وعظيماً.

ويقول أيضاً: يموت (400,000) شخص يومياً من الجوع وسوء التغذية وفق إحصائية سنة (1996)[1].

ثالثاً: ولو نظرنا الى آثار العولمة من الناحية الإجتماعية وخصوصاً في مجال الأسرة، لرأينا ما تشيب لها نواصي الأطفال، وخصوصاً من الناحية الجنسية وتفكك العائلة وانتشار العهر والإباحية، فمثلاً: الأمم المتحدة التي تُعَدُّ آلة بيد أمريكا والنظام العالمي الجديد، عقدت لحد هذا اليوم سبعة مؤتمرات حول النساء، ولكن عن أي شيء؟

لاشك لم تكن حول المشاكل التي تعاني منها النساء، لم تكن عن مجاعتهن في بعض البلدان، ولا عن عدم مقدرتهن على إرضاع أولادهنَّ، ولاعن عجزهن في تربية أولادهن، كلاّ لم تخصص لأي من هذه المشاكل، بل إن مؤتمرات الأمم المتحدة السبعة التي عقدت منذ عام (1950) والذي أرادوا عقد المؤتمر الأول في القاهرة، فرفضت مصر ذلك وعقد في مكان آخر، والمؤتمر الثاني عقد في (المكسيك) عام (1975)، والثالث عقد في بيروت عام (1985)، والرابع عقد في القاهرة عام (1994)، وعقد الخامس في (بكين) عام (1995)، والسادس في (أسطنبول) عام (1996) والمؤتمر السابع عقد في (نيويورك) عام (2000).

---

[1] - المصدر السابق، ص11.

ولكن ما هي الأهداف الـتي اجتمـع المـؤتمرون مـن أجلـها في تلـك المؤتمرات؟ كان من أجل أن تُقِرّ الدول المشـاركة في تلك المؤتمرات بما يـأتي:

أولاً: يحق للفتاة أنْ تَلِدَ دون زواج، وليس لأحـد أن يعاقبهـا! بـل علـى الدولة أن تعيل لها طفلها أيضاً!!

ثانيـاً: يحق للرجل أن يكوِّن أسرةً بالزواج من رجل مثله، وتَحِقُّ للمـرأة أن تعاشر امرأة مثلها!

ثالثـاً: يحق للإنسان أن يغيِّر جنسه، الرجل بإمكانه أن يتحـول الى امـرأةٍ بواسطة العمليات الجراحية، والمرأة أيضاً يحق لهـا التحـول الى رجـل بعملية جراحية، وكانت لتلك المؤتمرات أهداف أخرى من هذا القبيل.

وماذا كان دور العولمة من أجل إنجاح هذه القرارات؟ لقـد تعَّهـدت بمساعدة الدول التي تؤيد مثل هذه الأمور، وتغير قوانينهـا ودسـاتيرها بموجب ذلك، عن طريق المصرف الدولي، وصـندوق النقـد الـدولي، ومنظمة التجارة العالمية، أما الدول التي لا تعمل على تحقيق مثل تلـك الأهداف، فلا تحظى بأية مساعدة من النظام العـالمي الجديـد بـل علـى العكس، تتعرض للعقوبات المختلفة، وقد تعمق هـذا المعنـى خصوصـاً بعد سنة (2000) فقد أزالوا كل الحواجز والأسـتار وبـاتوا يعلنونهـا سافرة وبتصميم وعـزم لايلـين، أن يَجْـبروا دول العـالم علـى إصـدار القوانين بهذا الشأن، وقـد يكـون هنـاك مـن يتعجـب مـن النـاس في الغرب، وهم يخرجـون في مظـاهرات حاشـدة مُنـدَدِّين بالعولـمة، هـل أُصِيبَ هؤلاء في عقولهم حتى يناوئوا العولمة، وهـم يعيشـون في حيـاة رغيدة في أوروبا، ولكن الحقيقة أن هؤلاء ليسوا بالمجانين، بل هم علـى

علمٍ بما يقومون به، فلا زالت هناك بقيـة لهـا ضـمير وخُلـقٌ وشَـهامة، يعرفون خفايا العولمة[1] وما تنطوي عليه، فمثلاً:

يُعْلَن في برلمان دولة أوربية: إنَّ الرجل يحق له الزواج من رجل مثله، والمرأة يحق لها الزواج من امرأة مثلها، وإِن الفتاة من حقها أنْ تَلِدَ قبل الزواج، والدولة مُلْزَمة بإعالة مثل هؤلاء الأطفال، وإِنه لا يحـق لأحـد أن يعترض طريق الطالبات إذا حَمَلْن في المدارس، هـذا فقـد ارتفعـت نسبة المواليد التي لا تُعْرَف لهـم آبـاء الى (75٪)، نعـم بسـبب هـذه الطوام يتظاهر الناس معلنين رفضهم للعولمة، وهـؤلاء ليسـوا مسـلمين يقومون بما يقومـون بـه بـدافع الإسـلام والإيمـان، كـلا، بـل إن مـا يشجعهم لمعارضة العولمة هي فطرتهم وعقولهم وتجاربهم وبعد نظـرهم، فهم ينظرون الى أحوالهم التي تتجه نحو المجهول! والمآل المخيف، وكيف لايكون مخيفاً، والمشرعون يصوتون لصـالح قـرار يبـيح زواج الرجـال

---

[1] - والآن تحت يدي كتاب بعنوان: (خمسين حقيقة ينبغي أن تُغيّر العالم) والعنوان الأصلي للكتاب: (50 Facts that should change the world) للمؤلّفة (جيسيكا ويليامز)، طبع سنة:2005م، أودّ أن انقل منه بعض الحقائق المرّة التي تمخّضت عنها العولمة والعلمانية الغربيَّتان:

1/ ثلث العالم في حالة حرب، ص182.

2/ ثلاثون مليون إنسان مصابون بفيروس نقص المناعة البشرية (إيدز) في أفريقيا، ص218.

3/ ينفق الأمريكيون عشرة بلايين (10,000,000,000) دولار سنوياً على الأفلام والمطبوعات الإباحية، بينما تصرف الحكومة الأمريكية المبلغ نفسه على المساعدات الخارجية، ص278.

4/ هناك (27) مليون عبد في العالم اليوم، ص292.

5/ يتم صرف (2,5) دولار يومياً على كل بقرة في الإتحاد الأوروبي، وهذا مبلغ يفوق مايعيش عليه أكثر من (75%) من الأفريقيين، ص54.

6/ تصبح (1,025,000) مراهقة حاملاً سنوياً في البلدان الأكثر تقدّماً في العالم وتأتي الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا في المقدمة، ص23.

7/ يتعرّض للجوع يومياً واحد من كل خمسة من سكان العالم أي حوالي: (800) مليون شخص، ص166.

8/ عدد المنتحرين سنوياً يفوق عدد ضحايا كل النزاعات المسلَّحة في العالم، ص232.

9/ تقتل الألغام الأرضية أو تشوّه شخصاً واحداً على الأقل كل ساعة، ص86.

10/ تتعرّض حوالي (120,000) امرأة وفتاة للإتجار في أوروبا الغربية كل سنة، ص314.

بالرجال والنساء بالنساء، أليس بهذا الصنيع سـينقطع نسـل الإنسـان على وجه الأرض؟ والحق أن العولمة من الناحيـة الإجتماعيـة والتراثيـة والثقافية والأخلاقية، إحتوت على آثار شديدة الخطـوراة، فـالموديلات الغربية و الفاضحة من ملابـس النسـاء، ووسـائل التجميـل المتعـدِّدة، أوأنواع الألبسة الأخرى من الموديلات المتلاحقة في إثر بعضـها، الـتي تُنْتِجُها المعامل والشركات، والتي لاتتدارك النسـاءُ اللِّحـاقَ بهـا، ثـم تشجيع الناس لأختيار النساء اللواتي يقـال عـنهن (مَلِكـات الجَمـال) والتي تقام الحفـلات السـنوية والمهرجانـات الكـبيرة ذات المصـاريف الباهظة، لماذا كل ذلك؟ حتى يتسـابق النـاس في هـذا الميـدان ويبـالغ النساء في إظهار زينتهن وَأجسـادهن، بالمقاييس الـتي تحـدِّدها العولمـة ووفق المُخطّطات التي تَحيكُها الأيادي الخفية، من المعامل والشـركات وأكثر هؤلاء من اليهود وأصـحاب رؤوس الأمـوال الضـخمة الـذين يريدون أن يتخذوا النساء عرائس من الشمع، والمرأة المسـكينة عليهـا أن تَتلوَّن وتتبدَّل كل مرة بشكل من الأشـكال، لأن (الموديـل) تغـير، وعليها أن تلبس اللباس الفلاني، بل العلاني، لماذا؟ لأن ذلك الموديـل تغير هو الآخر، وهكذا تقتضي مطاوعة الموديلات مصـاريف ضـخمة، ثم ما يُسْفِرُ عنه ذلك من تحطيم شخصية المرأة، اذ عليها أن تتحرّى ما من شأنه أن يُثير انتباه الرجال لتقوم به، وقـد يكـون تجميلـها لنفسـها أحياناً مخالفاً للطبيعة التي فطرت عليها، لأن التجميل لا يكون طبيعيـاً، إلاّ اذا كان امتداداً للجمال الطبيعي، فمثلاً اذا صبغت المرأة أظافرهـا بالحمرة أو شفاهها بالحمرة أو قامت بأشياء من هذا القبيل، فهـذا فيـه وجهة نظر، ولكنها اذا صبغت أظافرها بالسواد أو أطالتهـا كـثيراً، أو

وضعت خلفية زرقاء لعينها، فهذا مخالف للفطرة والجمال الـذي يهبـه الله للمرأة!!

رابعــاً: أما من الناحية الفكرية والثقافيـة، فإِن العولمـة ترمـي الى ممارسـة استبداد فكري يفرضه على العـالم أجمـع، فالعولمـة تتبنَّـى تصـورات و توجهات معينة، والذي يعارِض تلك التصورات يكون عُرْضَةً للعقوبات المتنوِّعة! إذاً: فأنت عليـك أن تتقبـل التعريـف الـذي تقدمـه أمريكـا للإرهاب وإلاّ تعرَّضت للعقوبة والعراقيل، وعليك أن تتقبـل أيضـاً أَن امتلاك إسرائيل للأسلحة الذرية، وقيامها بالقتل الجماعي للفلسـطينيين أمر مشروع لا غُبار عليه، أما امـتلاك باكسـتان أو غيرهـا لمثـل تلـك الأسلحة، فـأمر خطـير وَمحظـور، لـماذا؟ لأنَّ إسـرائيل تـدور في فلـك المصالح الأمريكية، ولا يجوز لدولة مسلمة تُشَكِّل خطراً على إسـرائيل ودول الغرب، أن تمتلك شيئاً من الأسلحة النووية، فأَنت إذا كنت لا تريد أن تكون مشمولاً بالغضـب الأمريكـي والعولمـة، إذاً: عليـك أن تَبْصِمَ بأصابعك العشرة مؤيِّداً لكل باطل، وأن تحـاول إقنـاع نفسـك بذلك و إلاّ فعليك أن تنتظر المعاناة والعقوبات وَالحصار الإقتصـادي، فمثلاً من ضمن المسائل التي تبنّاها الغرب وأمريكا كنظريـة واقتنـاع، وهي من المسائل السائدة في أوربا، أن (هتلر) أقدم في الحـرب العالميـة الثانية على قتل وحرق (6) ملايين يهـودي في غـرف الغـاز؟! واليـوم توصل المؤرخون الأوربيون بعد البحث والتحقيق أن كل تلك كانـت دعاية قامت بنشرها اليهـود أنفسـهم، لكسـب عاطفـة العـالم نحـوهم وإظهار أنفسهم كمظلومين، تمهيداً لتأييد الناس لهـم في إحـتلال دولـة يجعلونها لهم وطناً، مما حدا بهم آخر الأمر الى إحتلال فلسطين فعلاً.

ويقول بعض المؤرخين والمفكرين والفلاسفة الفرنسين والإنكليز، أنهم تبيّن لهم بعد البحث والتحقيق، أن ذلك إدّعاء لا أصل له...

ومن هؤلاء (بول راسينيه) وهو رجل فرنسي كتب في سنة (1950) كتاباً ترجم الى العربية تحت عنوان (أُكذوبة أوَ ليس؟) وقد حوكم المؤلف بسبب كتابه هذا ثلاث مرات، ولكن لم يثبت عليه شيء في النتيجة يُدينه، فلقد كان منطقياً استدلَّ بأدلة صحيحة، ولكن اليهود استطاعوا على كل حال، أن يمارسوا ضغطاً على فرنسا واستصدروا بها قانوناً يمنع بموجبه كل مَنْ يُثير الشكوك حول محرقة (هتلر) لليهود، ومن فعل ذلك يستحق المحاكمة بتلك التهمة، وهذا القانون معمول به حالياً في فرنسا، ولذلك فعندما كتب (روجيه غارودي) كتابه الذي ترجم الى العربية تحت عنوان (الأساطير المؤسِّسة للدولة الأسرائيلية) حيث يتحدثُ في كتابه هذا، عن المزاعم التي مفادها أن النازيين قَتَلوا في الحرب العالمية الثانية (6) ستة ملايين يهودي، ويصف تلك المزاعم بأنها أكاذيب، ولم يقتل من اليهود أكثر من مائة ألف، وقد حُوكم (غارودي) من أجل كتابه هذا، وأجبر على دفع غرامة باهظة، ومن هؤلاء أيضاً (ديفد إيرفينيج) وهو مؤرخ بريطاني مهم، والذي أجرى معه (أحمد منصور) لقاءً في برنامج (بلا حدود) بثته قناة الجزيرة الفضائية في (2000/5/11)، ونشر (أحمد منصور) عنه أيضاً مقالة في جريدة (الشرق) القطرية بعنوان: (مَنْ يجرؤ على الكلام) فالفيلسوف البريطاني يقول: إِنني لست مطمئناً على نفسي حتى الآن، لأن اليهود يهددِّوني على الدوام، والحصار مفروض عليّ حتى في داخل بلدي، ولا أحد يسمعني أو ينشر لي شيئاً، لماذا؟ لأنني قلت: ان اليهود الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية هم قرابة مائة ألف، ولا يبلغون الستة ملايين، كما يدّعي اليهود!

وفي ختـام حديثـنا عن العولـمة أودُّ أنْ أعلــن حقيقتيـن:

الحقيقة الأولى: ان مهارة القائمين على النظام العـالمي الجديـد، حقيقـة يجـب علينا نحن المسـلمين أن نعـترف بهـا كـأمر واقـع و لاننكرهـا، فالـذين يتزعمون العولمة أناس ماهرون وحاذقون، ولهم المقـدرة الماليـة والعلميـة والتخطيطية والمخابراتية والإعلاميـة، والأسـلحة المتنوعـة، بمـا في ذلـك أسلحة الدمار الشامل، والخلاصة أَنهم متمكنون من كثير من الجوانـب، هذه حقيقة، ولكن ينبغي أن لا نتصور أن هذا يخالف سنن الله وقوانينـه، بل هو موافق لسنن الله تعالى، لأنه تعالى يقول: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾ (النجم – 39).

فالغربيون بذلوا ما في وسعهم وطاقتهم، وبلغـوا الجهـد مـن أنفسـهم وتجشَّموا سهر الليالي ومكابدة المصـاعب، واقتحمـوا في أحيـان كـثيرة، مواقع المغامرات، ومواطن المجازفات، فهل تحسـبون أن أمريكـا وصـلت الى ما وصلت اليه اليوم، دون عناء! كلاّ، فقد أبادوا أمةً بأكملها، وهم الهنود الحمر، قبل أن تقوم لدولة لأمريكا قائِمةٌ، وكذلك جلبـوا ملايـين الأفريقيين كعبيد واستخدموهم في بناءِ الدولة الجديدة! ومعلـوم أَنـني لا أؤيـد عملـهم، ولكـنني أقصـد أَنهـم بـذلوا الجهـد والوسـع، وقـدّموا التضحيات، بغض النظر عن كون عملـهم حـلالاً أم حرامـاً، حسـناً أم سيئاً، والحق أن أمريكا كان جُـلُّ كفاحهـا في جانـب الشـر والطغيـان، ولكنهم على كل حال صرفوا جهداً فقطفـوا ثمـاره، والله جلـت قدرتـه يقول: ﴿**وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ**﴾ (الشعراء –183)، ومن الخطـأ أن نبادر من هنا بالقول بأن أمريكا لا شيء، والغرب كذلك ليس لهم شيء

ينفع البتة، لا، فلهم أشياء نافعة كثيرة، وهم ذووا سلطة وقوة بحق، وهم ماهرون، خبراء، مُضَحّون، متجرِّدون،جِدِّيون،...الخ.

فلا شك أن عندهم إيجابيات كثيرة، بإمكاننا أن نسفيد منها، كما يقول (هانينتگتون): إن العالم الإسلامي وشرق آسيا يستفيدون مما عندنا من التكنولوجيا، دون أن يدينوا بالمنهج الذي ننتهجه، وهو يتحسَّر على ذلك قائلاً، إن هذا سيء للغاية، وعلينا أن نَقْمَعُهم قبل أن يستفيدوا من تلك التقنية والإمتيازات التي عندنا!

و يقول: إذا تمكّن هؤلاء من حيازة ما عندنا من الأسلحة والتقنية والإمتيازات، فسوف لن نقوى عليهم.

الحقيقة الثانيــة: التي أود قولها عن العولمة، هي: أن هذا النظام العالمي الجديد منتصب على ثلاثة أسس مشؤومة وهي: المال، والسلطة، والإعلام، وهي بالتعبير القرآني: (المال، القوة، الخداع) و للدكتور (علي شريعتي) كلام حسن حول المدنية الغربية، فهو يقول: ان المدنية الغربية قد أسِّست على أسس ثلاثة وهي: (الأموال، والقوة، والخداع) ونحن إذا تأملنا التأريخ، يتبيَّن لنا جلياً ما هو النظام الذي استفاد من هذه الأسس المشؤومة؟ لا شك أن الأنظمة الطاغوتية هي وحدها المنتفعة منها، لأن تلك الأنظمة المستبدة تُجيعُ الناس بواسطة أموالها، وتُخيفهم وتُرْهِبُم بواسطة قوَّتِها وجبروتها، و تَخْدَعهم عن طريق وسائلها الإعلامية المضلِّلة وَ الخادعة.

تأمل الدور الذي يلعبه الإعلام في خداع الناس وخلط الحق بالباطل عليهم، تأمل كيف يمارس النظام العالمي الجديد الإرهاب على الناس!! قلة هم الذين يستطيعون أن يقولوا: إن الشيء الفلاني في العولمة غير مُجْدٍ، وأن تكون

لديهم إستدراكات كان على بعض البنود في الديمقراطية، بل إن الكثيرين حتى لا يجرئون أن يقولوا: يا أمريكا من فضلكِ قدِّمي لنا تعريفاً للإرهاب الّذي تُحاربينه و تقفين بوجهه، ما هو؟ فإن كان سيئاً وقفنا معكِ ضِدَّه، ولكن إنْ كان قصدك من الإرهاب هو الدفاع عن النفس من المظلومين! فلماذا تُريدينا أن نتبعك على عماية من أمرنا، وأنْ نَنْعَقَ بما لا نسمع الا دعاءً وَنِداءً؟!

والقرآن قد أشار الى النظام الذي يستند الى تلك الأسس الثلاثة، نظام سوء مستبد ومسرف، يقول تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأرض وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ (العنكبوت–39). فهذه الآية – كما ترى – تتحدث عن قارون و كان صاحب ثروة وأموال، وتتحدث عن فرعون وهو سياسي مُتَسلِّط، وبعد ذلك أتَتْ الى ذكر هامان الّذي كان وزيراً لفرعون، ويقف وراء القوة الإعلامية، وهؤلاء كانوا يضطهدون الشعب المصري عموماً وبني إسرائيل خصوصاً، والذي أُرسل موسى إليهم لتخليصهم، ولاشك بأن مثل تلك الأنظمة التي تحصر همها في جمع الأموال دون الإهتمام بالحِلِّ والحُرْمة،وحيازة السلطة دون الإعتبار لرضا الناس وسخطهم، والحصول على أكبر قدر ممكن من الوسائل المموِّهة والخادعة للناس، إن تلك الأنظمة – في الواقع – لا تأتي للشعب الاّ بالمآسي وَتذويقه المرّ والعلقم، وهي من حيث المضمون، تكرار لنفس النظام الفرعوني الّذي يَدُقّهُ كتاب الله الحكيم في أكثر من موضع، وإن تغيَّرت أسماؤها وَعناوينها!.

الفصـــل الثـــاني

عـالـمـيّـة الإســـلام

تمهـيـد

نحن وانْ كنا قد خصَّصْنا المساحة الأكبر لهذه المحاضرة للعولمة، لكـن مـن واجبنا ولو اختصاراً أن نُعَرِّج الى ذكر عالمية الإسلام أيضاً، وقد أسلفنا فيمـا مضى من السطور أن العولمة أو النظام العـالمي الجديـد، عبـارة عـن احـتلال العالم ووضعه تحت السيطرة المفروضة من قبل ذلك النظام، ولكن هل يتوافق هذه المبادئ مع الإسلام، أم لا؟ ابتداءً أقول بإختصار شديد:

إن الإسلام يؤمن بالتعامل مع الدنيا على حقيقتها، دون تغيير أو إحـداث اضطراب، يتعامل مع الناس على مـاهم عليـه، بالـدعوة والإقنـاع والإفهـام ومحاولة التغيير من الـداخل، ولكـن كيـف يـتم ذلـك؟ يـتم عـبر إسـتيعاب حقيقتين عظيمتين:

الحقيقـة الأولى: إن الكـون في المنظـور الإسـلامي، لم يخلـق مـن دون الله تعالى، ولا يمكن أن يدوم أو تدار أموره من غير الله جَلّت قدرتـه، والإنسـان جزء من هذا الكون وهذه الموجودات، وهو بالتالي كما كان مفتقـراً الى الله في وجوده، فإنه مفتقر اليه في حياتـه ومعاشـه أيضـاً، لـذلك أرسـل الله إليـه الوحي لهدايته، ولهذا عندما سأل فرعون موسى: –وَكان هذا الطاغيـة يعتـبر نفسه إلهاً – ﴿**فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى؟**﴾ قال له موسى: ﴿**رَبُّنَـا الَّـذِي أَعْطَـى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَـدَى**﴾ (طـه –50) أي إن الله تعـالى خلقـه وأرسـل لـه منهاجاً يدير على هديه حياته، إذاً: فأنت يا فرعـون لم تَخْلُقنْـا ولا يحق لـك بالتالي أن تضع لنا منهجاً ودستوراً لحياتنا، لأن من حـق الخـالق وحـده وفي مُكْنَته أن يحدِّد لمخلوقاته، من شمس وقمر وكواكب ونجوم، و ذرات، قـوانين

تسير عليها، و كذلك هو وحده الذي يحق لـه ويمكنـه وضـع منهـاج لحيـاة الإنسان.

الحقيقة الثانية: إن رسالات الله التي أرسلها لهداية الإنسان وتنظيم حياته، نزلت بما يناسب كل بيئة ومرحلة تأريخية، وبما يناسب حياة الإنسان، فعندما كانت البشرية تعيش حياة بسيطة، كان المنهاج المرسـل اليهـا بسـيطاً، ومـع تعقّد الحياة وتطورها شيئاً فشيئاً، أصبحت الرسـالات أكثـر تفصـيلاً ودقـة، وعندما ختم الإسلام الشرائع، كانـت شـريعته رسـالة موجهـة الى الإنسـانية جمعاء، وهنا تحق الإشارة الى أكذوبة شـنعاء اقترفهـا المستشـرقون، وهـي ان محمداً ﷺ عندما كان في مكة لم يكن يخاطب الاّ قومه وعشيرته، وأنـه جـاء لهدايتهم فقط، ولكن – كما يزعمون – عندما حصل على القـوة والسـلطة في المدينة، بدأ يتحدث عن عالمية رسالته!! وقد توغلوا في الإفـتراء بمقـولتهم البلهاء هذه، لأن أكثرية الآيات التي تتحدث عن عالمية الإسلام، هـي آيـات مكية، نزلت في زمن استضعاف المسلمين، ومـن تلـك الآيـات قولـه تعـالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ– 28) وقولـه تعـالى في سورة الأنبياء، الآية 107: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، ومعلوم أن الأنبياء (عليهم السلام) كل قد بعث لمجتمع محدد ومرحلة محددة، كما يقـول عز من قائل: ﴿لِكُلّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة– 48)، ولكـن الله جلت حكمته المحيط علمـاً، بـأن البشـرية ستصـل الى مرحلـة تـتمكن فيهـا بواسطة التطور التقني والفكري، أن يبني مجتمعـاً موحّـداً علـى الأرض، وأن تقارب بين البلاد المتباعدة وتربطها مع بعضها كقرية – كما يقولون– عندما كان كل هذا في علم الله تعالى، أرسل شريعة الى الإنسانية تلائمها، ونحن لـو تأملنا الشرائع الأُخـرى، لوجـدناها خصصـت بـأقوام بعينـهم، فهـذا: هـود

وصالح وشعيب ولوط وموسى وعيسى.. الخ (عليهم الصلاة والسلام)، رددوا مراراً وتكراراً (يا قومي)، كل منهم لم يخاطبْ إلاّ قومه الذي أرسل اليهم، ولكن النَّبيَّ الخاتم ﷺ ، كونه أرسل بآخر رسالة إلهية للبشرية التائهة، فإنه خاطبهم قاطبة عن بكرة أبيهم، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي﴾** (الأعراف –158).

والآن، دعونا نتعرف الى الأسس والأعمدة التي تستند عليها عالمية الإسلام، فنحن لو تأملنا الآية الثالثة عشرة من سورة (الحجرات) لوجدناها تضمنت جميع تلك الأسس، يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾** (الحجرات – 13) ، ولْنَعُدَّ – على ضوء الآية – تلك الأسس:

الأساس الأول:

ان الله تبارك وتعالى يخاطب البشرية بأسرها: **﴿يا أيها الناس﴾** يخاطبهم جميعاً دون اختلاف (إنا خلقناكم) فكلّهم خلقهم الله تعالى وأبدعهم من العدم، ثم هل أجناسهم وطبائعهم واحدة، أم هي مختلفة عن بعضها، كما تقول النظريات والأنظمة الجاهلية بما فيها النظام العالمي الجديد؟! الجواب في المقطع الثاني من الآية.

الأساس الثاني :

(من ذكر وأنثى) كلهم خُلقوا – دون إمتياز أو إختلاف – من ذكر وأُنثى، فهم أولاد أب واحد وأم واحدة، وليس صحيحاً ما يدعيه (أفلاطون) في كتابه (جمهورية أفلاطون) أن الملوك كالذهب، والفلاسفة كالفضة،

والأبطال والعسكريون كالحديد، والآخرون مَعْدِنُهُم كالخزف، فالله تعالى يقول: كلكم من أصل واحد، وأم واحدة و أب واحد، ثم من الذي قسّم الإنسانية الى شعوب وقبائل مختلفة ومتباينة!؟ الجواب في المقطع الثالث من الآية المباركة.

الأساس الثالث :

(وجعلناكم شعوباً وقبائل) إذاً فإرادة الله هي التي قضت أن أكون أنا كردياً، وذلك عربياً، والآخر تركياً، وهلم جراً، هذه إرادة الله الحكيمة ومشيئته، ولذلك فالذي يريد أن يظلم شعباً أو قبيلة، تحت أية ذريعة أو مبرر ويريد أن يضطهدهم ويقضي على ثقافتهم وتراثهم، ويحتل بلادهم ويأكل خيراتهم، فإن هذا – في المنظور الإسلامي – خالف إرادة الله وشريعة الإسلام، لأن إرادة الله قضت أن تَتَوزَّع البشرية الى شعوب وقبائل، وليس الى شعب واحد فقط، ثم ما هي الحكمة من ذلك التقسيم؟!

فالجواب في المقطع الرابع من الآية الكريمة.

الأساس الرابع :

(لتعارفوا) حتى تتعارف تلك الشعوب والقبائل فيما بينها، وليس كما يقول (فوكوياما): (لا بد أن ينصهر الناس جميعاً في الحضارة الغربية) –أو على الأصح – أن يُنَصَّروا في الحضارة الأمريكية، أو كما يقول (هانيتگون): (يجب أن يقمع الناس وأن يذوبوا تحت وطأة الحضارة وفي ظل الرأسمالية، ولا يحق لأي فرد أو شعب، أن يكون صاحب وجود مستقل؟!)

ولكن الإسلام يقول: (لتعارفوا) أي إِنَّ الإسلام يقبل الأقوام كما هي، ولكنه يقول: تعالوا وتعارفوا فيما بينكم، ولذلك يلاحظ عبر التأريخ الإسلامي

لم يفكر حاكم من حكامه يوماً –طالما كان ملتزماً بالإسلام ولو في حدّه الأدنى– أن يقوم بإبادة قوم من الأقوام، أو بصهرهم والقضاء على هويتهم القومية وتراثهم، إنَ أحداً في الإسلام لم يُقْدِمْ حتى على التفكير بمثل هذا العمل، لماذا؟ لأنهم أحاطوا علماً أن إرادة الله قضت أن يكون لتلك الأقوام وجودهم، كباقة من الورود، أو حديقة فيها الأزاهير من أنواع مختلفة، لا أن تكون جميعها لوناً واحدًا، ثم ما هو المقياس والميزان الذي يوزن به الإنسان؟

الجواب في المقطع الخامس من الآية الحكيمة.

الأســاس الخــامس :

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فكلما كان الإنسان متقياً أكثر، كان أكرم عند الله، ثم تأملوا قوله تعالى، يقول: ان الأكرم عند الله – وليس كما يبدو في الدنيا – هو الأكرم، حتى لايقول أَحد: إنني كذا وكذا، نعم نحن مقتنعون أن المسلم يدخل الجنة، والكافر يدخل النار، ولكن لايجوز أن تجعل من كونك مسلماً، أنك أكثر احتراماً من غيرك، لماذا؟ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الاسراء–70).

فالإنسان من جهة انسانيته محترم، بغضِّ النظر عن دينه، ويجب عليك أن تحترمه، ورد في حديث صحيح، أن النبيَّ ﷺ كان جالساً في مكان فمرت به جنازة يهودي، فقام النبي ﷺ لها، فقالوا: يا رسول الله: إِنه يهودي، فقال النبي ﷺ: (أليستْ نفساً؟!)[1].

إِذاً: حتى اليهودي مادام إنساناً، فأَنا أَحترمه ميتاً أو حياً، لأن الله تعالى هو الذي جعل له هذه الحرمة، وهذا يخص التعامل الدنيوي، أما احترام

[1] - (ان رسول الله ﷺ مَرَّت به جَنازةٌ، فقام، فقيل: إنه يهوديٌّ، فقال: أَلَيْسَتْ نَفْساً!) رواه البخاري:1312، ومسلم:2222.

الآخرة ودرجتها، فمرتبطة بالتقوى، والتقوى يمكن للجميع التحلّي بها لأنها ليست متعلقة بالذكورة والأُنوثة، ولا بالفقر والغنى، ولا بالثقافة والأمّية، ليس متعلقاً أبداً بشيء يستعصي على الإنسان اكتسابه، من جنس ولون ولغة وأصل... والخ. فبإمكان الجميع أن يكونوا متقين، إن الإسلام دين إلهي لجميع البشرية، ويريد أن يكون مظلّة تستظل بظله الإنسانية، ولكنه بخلاف الأنظمة الجاهلية والطاغوتية، لم يأت ليجعل بعض الناس خدماً لبعضهم، وأن يسحق بعضهم تحت أقدام بعض، ولم يأت لينظر الى الناس كمعمل او شركة، يحصر همه في زيادة إنتاجهم، ولذلك ففي الفتوحات الإسلامية – على خلاف تصور البعض – عندما كان المسلمون يحررون بلداً ويوصلون اليه نور الإسلام، كان الناس هم الّذين يبادرون بسؤال المسلمين: ماذا تطلبون مِنَّا، ولماذا جئتم؟! ثم كيف كان جواب الجيش الإسلامي؟ يقول التاريخ: أجابهم المسلمون: بأنهم لا يريدون منهم غير قبول الإسلام، فإذا قبلتم مِنّا ذلك، فلكم مالنا وعليكم ما علينا، وأما إذا رفضتم الإسلام، فلا بأس، ولكن لا تُعادوه وأثبتوا لنا ذلك سواء بدفع مقدار من المال (الجزية) أو غيره، وكما سلّطنا الضوء على هذا الموضوع قبلُ، فإن الكلام الراجح للعلماء، أنَّ كل صاحب فكرة مشركاً كان أو ملحداً أو مجوسياً أو نصرانياً أو يهودياً، بإمكانه أن يُصْبِحَ مواطناً في الدولة الإسلامية، ولات حين تفصيل، فالله خلق الإنسان ليختبره، فكيف يتم الإختبار اذا لم يُعْطَ الحق أن يختار مايشاء، ولو كان الكفر بعينه، يقول تعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾(الكهف–29).

وحتى لو شاء الكفر، وكان مواطناً في الدولة الإسلامية، فإنه يُكْرَمُ كإنسان، ويحترم دينه و رأيه، ولهذا قال الله جَلَّتْ قدرته: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ﴾ (الانعام-108).

لماذا؟ لأن ذلك الشخص مادام اختار ذلك واستحسنه، فدعوه وشأنه والله الذي خلقه، هو الذي أتاح له حرية الإختيار، وليس لأحد أن يسلب ذلك منه، وليس لأحد أن يتعرض له بالسوء بذريعة الكفر، وحسابه على الله يوم القيامة، ذلك أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وليس دار الجزاء وظهور النتائج، والله تعالى هو يتولّى المحاسبة يوم القيامة، أما الآن فيجب أن تُتاح الفرصة للجميع في اختيار ما يراه حسناً، والإسلام عندما يكون حاكماً فإنه لا يتدخل الاّ في حالتين:

الحالة الأولى: لإزالة الظلم، كما يخاطب الله تعالى المسلمين بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ (النساء- 75).

نعم، اذا كان للإسلام دولة وسلطة، فحين ذلك لايقبل أن يُظلم أحد حتى لو لم يكن مسلماً، فلا يجوز اضطهاده، لأن الإسلام يقول: إن الله تبارك وتعالى خلق الناس لعبادته، لذلك يا أيّها الحكام! لاتضطهدوا الناس ولا تجعلوهم عبيداً، وليكونوا أحراراً، حتى نعلم هل يعبدون الله أم لا يعبدونه؟ وهكذا يمكّنهم الله تعالى مِن أداء امتحانهم في حياتهم الدنيا.

الحالة الثانية: والإسلام يستعمل القوة لإرساء العدل، كما أمر الله نبيَّه أن يقول: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ (الشورى- 15).

وكذلك أمرنا جميعاً بإقامة القسط والعدل حيث قال: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ (النساء –58) .

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ (النساء –135).

والآن ، دونكُم أيّها الأخوة الفصل الثالث والأخير.

الفصـل الثالـث

مقارنـــة بيـن
عولـمة الغـرب و
عالـميـة الإسـلام

مقارنة بين
عولـمـة الغـرب و عـالـميـة الإسـلام(1)

أيها الحضور الأعـزاء!

من منطلـق أن الإسـلام يقـول: الله صـاحب الكـون والإنسـان وَالحيـاة، ويقول: الدنيا دار ابتلاء، ويقول: ليس الإنسـان جسـداً فحسـب، بـل هـو روح وجسد، ويقول: الناس إخوة فيما بينهم، وهم جميعاً من أبٍ واحـد وأُم واحدة، وهما آدم وحواء، (عليهم السلام) ويقول: ما دام هناك إلـه و ديـن وحساب، فلا بد أن تكون الأشياء جميعها مرتبطة بـالقيم و الأخـلاق، ومـن منطلق أن الغرب يقولون: ما من إلهٍ!، أو يقولون: لو كان هناك إله، فلا يحق له التدخل في أمورنا، كما كان المعسكر الشرقي (الإتحاد السوفيتى السـابق) يقولون: لا إلهَ، ولكن أوربا والغـرب الرأسمـالى يقولـون: كـلا، هنـاك إلـه، ولكننا نحن أنفسنا ذاك الإله (سبحان الله عما يصفون)!! وكذلك فإِن العولمة الغربيـة والعالميـة الإسـلامية تختلفـان في نظرتهمـا للإنسـان والحيـاة أشـدَّ الإختلاف، فالإنسان في منظور الحضارة الغربية عبارة عن جسـد إضـافة الى غرائزه المادية والحيوانية، أما اليوم الآخر فهي إِمَّا لا تؤمن به، أو تؤمن به في الظاهر فقط، دون أن تعمل له أدنى حساب، وَعملياً يرى الغربُ أن النـاس

(1) و هذه المقارنة إنما هي عبارة عن مراجعة للفصلين الأول والثاني، ومحاولة لمعرفة أكثر و أشمل بالعولمة و العالمية.

ليسوا سواسية[2]، وبناءً على فلسفة (نيتشه) فإن كثيراً مـن فلاسـفة الغـرب يقولون: كل من كان ضعيفاً أو عاجزاً، فإنه لا يسـتحق الحيـاة، لـذلك فـلا عجب أن نرى أمريكا خصوصاً والدول الغربية عموماً يرمـون – في بعـض السنوات – بملايين الأطنان من الحبوب الى قاع المحيط، وكل مـا يزيـد عـن حاجاتهم من المواد والبضائع يحرقونها أو يُتْلِفونها، يفعلـون هـذا في الوقـت الذي يَلْقى الملايينُ حتفَهم سنوياً من الجوع، في أفريقيا وشرق آسيا والـدول الأخرى في العالم! لأنه ليس هناك دافع يشجعهم ليقولوا: هـؤلاء إخواننـا في الإنسانية، فَلْنَنْتَشِلْهم من خطر الجوع المُحدِق بهم، فقد ملأنا الدنيا ضـجيجاً عن حقوق الإنسان، لماذا نُتْلِفُ ما يَفْضُلُ عنّا، فإن كُنَّا لا نفعـل لهـم شـيئاً، فلنعطهم فُتات موائدنا، وما يفضل عن حاجتنا!

ولكن مناهجم وفلسفاتهم تقول: ما دام الفقراء لا يتمتعون بالقوة والتمكين فهم لا يستحقون الحياة، والأمريكي الّذي يزيـد دخلـه سـبعين ضـعفاً علـى غيره، لا تتحرك عاطفته نحو أنـاس، لا يملكـون كسـرة خُبْـزٍ يَسُـدّون بهـا رَمَقُهمْ، ولكن مثـل هـذه التصـرفات والتوجهـات، لا يمكـن أن تجـد لهـا في الإسلام موطئ قدم قط، وكما أشـرنا سـابقاً فـإنَّ العامـل الأقـوى في ذلـك التوجّه، هو روح الفرديـة والأنانيـة والجشـع وعبـادة الـذات و مصـالحها، ومعلوم أن تلك المصالح – في ظـل النظـام الرأسمـالي – هـي الهـاجس الأول لأرباب ذلك النظام، أمـا الإسـلام، فينظـر الى كـل شـيء بالمنظـار الربّـاني، وَيَحْسِبُ لكل من القيامـة وَالعطـف والرحمـة و الضـمير حِسـاباً، وَالآن بغيـة

(2) مع أنه كثيراً ما يجري الحديث في أوربا وأمريكا عن حقوق الإنسان والمساواة والحرية، ولكن الحقيقة أن الظلم والإصطهاد والموجودين هنالك، يعزّ وجوده في العالم أجمع، وكذلك في تكبرهم و زهوهم وادعائهم الإمتياز على غيرهم، مما لا عهد للعالم بوجود مثله.

التمييز بين هاتين النظريتين، دعونا نتأمل كتاب الله تعالى، لننظر كيف يحدثنا عن كلا المنهجين.

يحدثنا الله عزوجل عن (فرعون) وعن (ذي القرنين) كنموذجين، الأول منهما يمثل العالمية، فذوالقرنين – الذي هو نموذج للعالمية – استولى على المغرب، ثم أَتبعه بالمشرق، أي ملك الدنيا بأسرها، فمن هو هذا الرجل يا ترى؟ يزعم البعض أنه (الأسكندر المقدوني) ولكن الأكثرية على خلاف ذلك، لأن الأسكندر المقدوني كان وثنياً مشركا، وأما ذوالقرنين، فيبدو أنه كان رجلاً صالحاً و عابداً.

وعلى كل حال لننظر في السياسة التي كان ينتهجها (ذو القرنين)، يقول تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (الكهف–86)، ويقول «ذو القرنين» عن سياسته ومنهج تعامله مع الشعوب التي تخضع لسيطرته: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ۞ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف 87–88). فالإسلام – كما سبق وأن أشرنا الى ذلك – عندما يتسلّم السلطة، فإنه يردع الظالمين ويضرب على أيديهم! نعم، فهذه حقيقة أكدتها عشرات الآيات القرآنية، وتأمل هذا النموذج الصالح من حكّام الإسلام، إنه لا يتحدث عن كفر تلك الشعوب الخاضعة له، ولا شك أنه كان من بينهم الكفرة والمارقون، أي أنه لا يتحدث عن استيائه ومَقْته لكفرهم، بل يتحدث عن الظلم والإعتداء، وَالعقوبة التي يوقف بها تلك الاعتداءات، لأن السلطة الإسلامية بإمكانها أن تعايش الكفر، ولكنها لا تستطيع – بحال من الأحوال – تقبل الظلم، وبمعنى آخر، فالدولة الإسلامية تسمح للناس أن يكونوا كافرين، لأن الدنيا دار ابتلاء

وامتحان، ويجب أن يُفْسَح لهم المجال للإِيمان وعدمه، وَلكنَّها لا تسمح للظلم طرفة عين، لأن الدُنيا لم تخلق ليعيث فيها الفراعنة والطواغيت ظلماً وعدواناً، ثم إنَّ (ذا القرنين) في ختام فتوحاته وتحريره للبلاد والشعوب المضطهدة، وصل الى موضع ناءٍ فيه شعب متخلِّف، لايكادون يفهمون حتى الكلام: ﴿**حَتَّى إذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا**﴾ (الكهف– 93)، ثم ان هذا الشعب المتخلِّف والمغلوب على أمره، قدَّم طلباً الى الحاكم الصالح صاحب السلطة والمكنة، أن يبني سداً بين الجبلين اللّذَيْن يقعان بينهم وبين قوم (يأجوج ومأجوج) المفسدين في الأرض، كي ينجوا من شرورهم: ﴿**قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرض فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا**﴾ (**الكهف –94**).

والغريب ان هؤلاء القوم عرضوا على ذي القرنين الأموال والمؤونة التي يحتاجها لبناء السد، ولكن دعونا نتأمل، هل أَن هذا الحاكم الصالح مستعدّ – كما تفعل العولمة بذريعة الدفاع عن الناس – أن يأخذ حتى الأُجْرَة مقابل عمله، ناهيك أن يأكل كلَّ خيراتهم وعائداتهم؟! كلاّ، فهو يقول: (**ما مكّنّي فيه ربّي خير فأعيوني بقوة**) أي إنه بما أفضل الله عليه من النعم والأموال، فليس في حاجة الى أموالهم، بل يحتاج فقط الى الأيدي العاملة لبناء السد لهم، وقد أكمل بناء السد لهم فعلاً، هذه هي عالمية الإسلام إذاً: يكافح الظلم، ويقف بجانب المظلومين المستضعفين، ويدافع بأمواله عن الشعوب المضطهدة، وليس كأمريكا التي جاءت بذريعة طرد القوات العراقية من الكويت سنة (1991)، ولكنها من فرط ما أَلْزَمت الدول الخليجية بالإلتزامات المالية، فإن تلك الدول لا تزال الى اليوم ترزح تحت وطأة

القروض الأمريكية عليها، فهي لم تَصْرِفْ عليهم الاّ من أموالهم، وأخذت فوق ذلك الكثير والكثير، فلئن دافعت عنهم بما يقابل دولاراً واحداً، فَلَقَدْ استفادت مقابل ذلك آلاف الدولارات!! فهذه هي سياسة العولمة، وتلك كانت عالمية الإسلام التي ينادى بها.

والنظام الفرعوني والسياسة التي انتهجها نموذج تاريخي للعولمة، ولنر ما فعله فرعون – وفق الثالوث المشؤوم- بشعبه؟! يقول تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأرض وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (القصص –4) نعم هذه هي الآثار التي خلّفها النظام الفرعوني، ولهذا يحق للناس أن يسألوا: لماذا تكرر ذكر فرعون وموسى بهذه الكثرة في القرآن؟

لا ريب أن الله تعالى يريد منّا أن نجعل موسى عليه السلام قدوة لنا، ويريد من الجبابرة والمستبدين، أن يأخذوا درساً من فرعون وما آل اليه مصيره، فالفراعنة – في كل عصر- مهما تعاظمت سلطتهم، فمصيرهم الإندحار والدفن في مزبلة التأريخ، وموسى- وكل من يسير على منهجه – مهما استضعفوا، ومهما ألَمَّ بهم الكُرَبُ وادلهمَّ بهم الخَطْبُ، فإنهم – وفق سنة الله التي لا تتخلّفُ، وماداموا صابرين مستقيمين –هم المنتصرون، لأن إرادة الله جَلّت قدرته، تشدُّ أَزْرَهم، وتقف من خلفهم تناصرهم، كما يقول تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ (القصص– 5).

سُبحانَكَ اللهم وَبِحَمدِكَ، أشهد الاّ اله إلاّ أنتَ، أستَغفِرُكَ وأتوب إليك.

الحلقة الخامسة

العَلمانيّة
نظرة واقعية وتقييم شرعي

هذه الرسالة

هذه الرسالة كانت في الاصل محاضرة ألقاها العبـد الفقـير تحـت العنـوان أعلاه، بمدينة الســليمانية، في قاعة (الثقافة)، بتـاريخ (7/ رجـب 1423- 2002/9/14 م). ثم فرغها أحد إخوتنا مـن الشـريط الصـوتي وَراجعهـا وأعاد كتابتها أخ آخر، وراجعتها آخر الأمر، وتصرفت فيما كانـت بحاجـة الى التصرّف، فجزى الله كل معين لنا على الخير أحسن الجزاء.

آمل أن تستطيع هذه الرسالة تسليط الأضواء على مسألة العلمانيـة الـتي تعد أوسع الأديان المصطنعه انتشـاراً، في هـذا العصـر مـع أن أهـل الغـرب أنفسهم التجئوا اليها كضرورة في وقتها.

ولكن آثارها المشؤومة ظهـرت بصـورة واضـحة في هـذه الأيـام، بحيـث لايُنكرها أي إنسان ذوعقلٍ وضمير، يعتبر نفسه مسلماً ومخلصاً لأمته، وهـي محرمة – كما يبدو للجميع – مرتين:

أولاً: لأنه دين من صنع البشر، وبديل عن الإسلام أيضاً، فالذي يؤمن به أو يَتَّبعه يغدو مقطوع الصلة بالإسلام!

ثانيـاً: ان الغرب في ظـل آثارهـا المشـؤومة، قـد وقعـوا في أوضـاع متأزمـة لايتمناها إنسان سويّ

نسأل الله تعالى بلطفه وكرمه أن يحفظ الشـعب الكـردي المسـلم وسـائر الشعوب المسلمة الأخرى، من نكبة الإنحراف عن الدين، وأن يشـفي الـذين تلوثوا بلوثة (اللادينية) فهم في غيّها يترددون.

المقدمـة

الحمدلله حق حمده، والصلاة والسلام على محمد رسوله وعبده، وآله السائرين على دَرْبه.

إِبتداءً أُرحب بكم جميعاً، إِنَّني مسرور بلقائكم، وكما أَشار الأَخ مقدم المحاضرة، فإِن ندوتنا ستكون بعنوان (العلمانية) تأملات واقعية وتقييمات شرعية.

إننا كالشعب الكردي المسلم، بل لو ذهبنا أَبعد من ذلك فوسعنا الدائرة لتشمل مسلمي العراق والعالم عموماً، نحتاج في كل عصر وَ أوانْ الى مَعرفة وقراءة وفهم بعضنا البعض بصورة صحيحة، خصوصاً في هذه الأوضاع العصيبة التي تمرّ بها الدنيا عموماً، والأمة الإسلامية والعراق و كردستان العراق خصوصاً، فالحقيقة أنَّ شعوب الأرض على طول التاريخ لو قدرت على تحقيق غاية كبيرة لها، فإنَّها تَمَكَّنت من ذلك بفضل الأخوة والوئام و وحدة الكلمة والموقف، وعلى العكس فإِنَّ اختراقهم دوماً، تكون من الثغرات والتصدّعات الحاصلة في صفوفهم، ولهذا أَرى بأننا يجب علينا كشعب مسلم ان نتعرف حق المعرفة على الأشياء التي ينبغي علينا الوصول الى أصلها وكنهها، وأن نضع فيها النقاط على الحروف، سواء كانت قضية الإرهاب أو حقوق الإنسان أو التسامح والتعايش، أو العلمانية، أو الديمقراطية، أو العولمة، أو أية قضية مهمة أخرى، والتي لم نصل فيها كشعب مسلم الى كلمة نهائية، لنعرفها ونفهمها على حقيقتها، ولذلك لانستطيع أن نوحد صفوفنا وَكلمتنا وَموقفنا إزاءها.

وسنفصل الحديث عن العلمانية في أربعة فصول:

الفصل الأول: تعريف العلمانية، ولماذا ترجمت بهذه اللفظة؟

الفصل الثاني: متى وأين وكيف ولماذا ظهرت العلمانية؟

الفصل الثالث: آثار العلمانية وَمعطياتها في حياة الناس في الغرب، إذ لايجوز أن ندعو من تلقاء أنفسنا الى فكرة أو تصور، دون أن نعرف ونفهم هل استفاد الآخرون منه أم تضرروا؟ لأن مثل هذا الموقف موغل في مخالفة الصواب ويتناقَضُ مع العقل وَالمنطق، بالإِضافة الى مخالفته لدين الله القويم.

الفصل الرابع: ان العلمانية حالة غير مبرَّرة، وغير شرعية، وَغير مشروعة لمجتمع مسلم، كما سنُثبت ذلك بعد إجراء مقارنة و تقييم عادلٍ وَمنطقي.

الفصل الأول

تعريف العلـمانيـة

لقد أجمعت كافة المعاجم في اللغة العربية علـى أَن كلمـة العلمانيـة ترجمـة لكلمة (Secularisme) الانكليزية وَ(Laic) الفرنسية، وليست لها أية صلة بالعِلْم لا في اللغـة الإِنكليزيـة، وَلا في اللغـة الفرنسـية، لأَن كلمـة العلـم في الإِنكليزية يُقال لها (Sciens) وَالإِتجاه العلمي هو (Scientisn).

لكن الترجمة الحقيقية والصحيحة التي تناسب (السيكولاريزم) هي:

عبادة الدنيا، الدنيوية، اللادينية، أما عن سبب ترجمة العرب لتلك الكلمة بـ(العَلْمانية) فإِنهم ترجموها بادىء ذي بدء، بالعالَمانيـة بمعنـى الدنيويـة، ثـم حـذفوا الأَلِـفَ لتسـهل علـى اللسـان فصـارت (العَلْمانيـة)، اذاً فترجمـة السيكولاريزم بـ(العِلْمانية) وذلك لإظْهار الصـلة بينهما و بـين العلـم، خطـأ وتمويه وخداع وَتغيير وَ تحريف لجوهر المسائل، وقـد قـاموا بهـذا التزويـر لتحسين الوجه القبيح للنظرية، لأَنه قـد عُلـم لـو أن الكلمـة ترجمـت علـى حقيقتها بـ(الدنيوية أو اللادينية) لما لاقـت القبـول بـين الشـعوب المسـلمة، ولكن لو قيل: (عِلْمانية) فهذا يعطي معنىً برّاقاً وَخداعاً.

الآن وبعد أن عرّفنا كلمة (السيكولاريزم) في أصل اللغة، فلنتحول لزيادة اطمئنان وَتوضيح، الى القواميس الغربية وَالأوروبية التي تُعَـدُّ مـوطن ظهـور هذه الفكرة، كيف يعرّفون الكلمة المذكورة يا ترى؟!:

1/ في دائرة المعارف البريطانية ورد حول تعريف كلمـة السـيكولاريزم، مـا ترجمته: ((السيكولاريزم: حركـة إجتماعيـة تهـدف الى تحويـل الإهتمـام باليوم الآخر، الى الإِهتمام فقط بالحياة الـدنيا، ويقـول أيضـاً: لقـد كـان

سبب ظهور هذا المنهج او هذه الظاهرة أن الناس في العصور الوسطى كانوا مولعين بذكر الله وَكانوا يركزون اهتمامهم باليوم الآخر وَكانوا يحتقرون الحياة الدنيا و يتوجهون الى الله أكثرمن توجههم الى الدنيا، ولذلك ظهر (السيكولاريزم–Secularism) للتصدّي لتلك التصورات والأحاسيس العميقة، على أمل إزالة الغيبيات من نفوس الناس كاليوم الآخر وَالرب وَسائر المغيّبات.

وان ينشغلوا بدل ذلك بأنفسهم وَرغباتهم وأهوائهم والقضايا المتعلقة بالدنيا، وخصوصاً بعد ظهور (رينسانس) {أي (النهضة العلمية)} ظهرت هذه النظرية الى الوجود.

وقد ظهرت في القرن السادس عشر هذا، النهضة العلمية من جهة والعلمانية من جهة أُخرى، والتي تصر دوماً على ان تتعلق أمنيات الناس ورغبات نفوسهم بهذه الحياة الدنيا، وأن يقطعوا كل تفكير بالدين واليوم الآخر وألا تنشغل أفئدتهم وَأفكارهم بذلك)).[1]

2/ ووَرَدَ أيضاً في (قاموس العالم الجديد):

((ان كلمة السيكولاريزم تأتي بمعنيين:

أ/ الدنيوية أو منهج الدنيويين أي الذين لايؤمنون بغير الدنيا.

ب/ الإعتقاد بأن أمور الكنيسة وسائر الأمور الدينية لا ترتبط بصلة بالأمور الإدارية للدولة، وَخصوصاً من ناحية التربية العامة)).[2]

3/ ويقول قاموس أوكسفورد عن لفظة السيكولاريزم بأنها: ((الدنيوية أو المادية المجردة عن الدين والناحية الروحية، كالتربية السيكولاريستية التي هي عبارة عن عدم الدينية، و اتِّباع الرغبات ودق الطبول وعزف

---

[1] ـ أنظر: دائرة المعارف البريطانية، (594/10)، و (العلمانية) لسفر الحوالي، ص22.

[2] ـ أنظر: العلمانية، لسفر الحوالي، ص22.

الموسيقى، والسلطة السيكولاريستية عبارة عن حكومة ضد الدين والكنيسة والعبودية لله، وَيقول أيضاً: فكرة السيكولاريزم هي التي ترفع لواء عدم جعل الدين أساساً للأخلاق والتربية))[1].

4/ وَيقول: (قاموس المعجم الدولي الثالث الجديد)عن السيكولاريزم:

((بأنه منهج في الحياة، لايكون للدين ولا لأهله على إِدارة أعمالها سلطان، ويقول أيضاً: بأنها عبارة عن نظام إجتماعي، ولذلك تقول عن أخلاق المجتمع الإنساني يجب ألاّ يلتفت الى الخصائص والصفات والقيم الأخلاقية، بل حصر الإِهتمام بمصالح الحياة الجديدة والعصرية. أي تسيير الحياة الإِجتماعية والإنسانية من جهة الدولة، بحيث لا يحسب لله والدين وَاليوم الآخر حساب))[2].

هذه التعاريف هي تصورات القواميس الغربية عن كلمة السيكولاريزم و العلمانية، التي تُعَرَّفُ عندنا غالباً بأنها فصل الدين عن الدولة، أو فصل الدين عن الحكومة، وَهذا تعريف قاصر في واقع الأمر، لأنه جزئي لا يُظهر الا جانباً من العلمانية، بل يجب ان نقول عن المعنى الحقيقي الذي ينطوي عليه العلمانية: هو إِقصاء وفصل الدين، ليس عن الدولة أو عن السياسة فحسب، بل عن الحياة كلِّها، وذلك لأن العلمانية قبل أن يكون تعاملها مع السياسة والحكم، فهو في الصميم موجَّه نحو العقيدة والأخلاق، وكيفية التفكير والقيم العليا للإِنسان، وتقول: يجب ألاّ تؤخذ كل تلك الجوانب من الدين، ولا أن تنبثق عنه أو يُسْتَنْبَط منه، ولذلك نقول ان تعريف العلمانية، بأنّها عبارة عن فصل الدين عن الدولة أو السياسة، تعريف قاصر، بل هي

---

1 ـ أنظر: معجم أكسفورد، ص849،850. و (العلمانيون والقرآن الكريم) د.أحمد إدريس الطعّان، ص122، و (العلمانية) لسفر الحوالي، ص22.

2 ـ أنظر: (العلمانية) لسفر الحوالي، ص23، إذْ نقلته عنه.

في الحقيقة فصل الدين عن الحياة بالطريقة التي يرغـب فيهـا النـاس، دون أن يحسبوا للدين واليوم الآخر والمساءلة أدنى حسـاب، فهـذا ملخـص تعريـف ومفهوم العلمانية التي هي في حقيقتها عبارة عن عبادة الـدنيا، و نبـذ الـدين واليوم الآخر والله والرسول ﷺ .

الفصل الثاني

متى وأين وكيف ولمـاذا ظهرت العلمانيـة؟!

ربما يجول في ذهن الكثيرين هذا السؤال المختبـيء في الأعماق: ترى لمـاذا ظهرت العلمانية؟ ولماذا انتهج الأوروبيون هذا الطريق؟ وأسئلة كثيرة أخرى تنطرح على البداهة، لهذا نحن نقول قبل كل شيء: ان فحوى العلمانية الـتي هي عبارة عن نبذ الدين، أي عدم الإعتبار لله والنبـي ﷺ وطرح شريعة الله جانباً، ان هذا المسار والتفكير – بغض النظر عن المصـطلح – مسـار قـديم موغل في القدم، فمنذ اليوم الذي أَهبط الله تعالى آدم علـى الأرض ووضـعه في الإختبار والإمتحان العسير، ثم اقتتال ولديه (قابيل و هابيل) حيث عصم هابيل نفسه من المخالفة والعصيان، فلم يبسط يده لقتل أخيه قابيـل، ولكـن قابيل بسبب العصيان ومخالفة أمرالله، لم يأبه بسفك الدماء، فسوّلت له نفسه قتل أخيه فقتله، منذ ذلك العهد والصراع في اتجاهين اثـنين: الإِعـراض كـل الإِعراض عن الله واليوم الآخر، وعـدم الإهتمـام بهمـا، والإِقبـال علـى الله تعالى والإهتمام باليوم الآخر، ومايجري فيه مـن الحسـاب والجـزاء، و وجِـدَ هذان الإتجاهان منذ البداية، وما ينفكان يبقيان مختلفين متناقضـين متضـادين، وهما في صراع لاينقطع، يسيران في مسارين متنـافرين، و هـذان الإتجاهـان نابعان من طبيعة الإنسان، والله جلت قدرته هو الذي فطـر الإنسـان وجَبَـلَ طبيعته على هذا، فقد خلق الإنسان وأودع في أعماقه استعدادَي: الإِحسـان والإِساءة، يسلك أي السبيلين شاء، سبيل المؤمنين، أو سبيل المجرمين، سـبيل الحق أو الباطـل، كمـا يقـول جـل ذكـره: ﴿**فَأَلْهَمَهَـا فُجُورَهَـا وَتَقْوَاهَـا**﴾ (الشمس–8) ويقول تعالى كذلك: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾

(الإنسان–3)، وهذا ما أهّل الإنسان ليكون خليفة في الأرض، كما يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة–30)، ويكون مستحقاً لحمل رسالة الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الاحزاب–72)، وان يكون صالحاً للإختبار، فهو بإمكانه السموّ والتدنّي، والإستقامة والإعوجاج، والخطأ والصواب، بإمكانه أن يأخذ الحق، أو أنْ يَتَّبِعَ الباطل، ولو نظرنا الى القرآن الكريم لوجدنا ان الله سبحانه يقصّ علينا على لسان مجموعة من اللادينيين الدنيويين، تعريف مسارهم ومنهجهم فيقول عز من قائل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية–24) وما قاله الله تعالى هنا هو الحق الذي ما بعده حق، فليس من كافر أو ملحد يصل في كفره الى اليقين، وقد ناظر العبد الفقير الكفرة والملاحدة وناقَشَهُم حول تلك المسائل، وعندما كانوا يُقَرِّرون أن يكونوا وَلَوْ لبرهة صادقين مع أنفسهم، كانوا يعترفون بأنهم يعيشون دوامة الشك والتردّد! أجل ان الإنسان البعيد عن الله تعالى، و الواقع في مُسْتَنْقَع الكفر والإلحاد، لا يصل قطعاً الى الطمأنينة واليقين، بل ان غاية ما يمكنه ان يصل إليه، هو الظّن الراجح! ولكن هيهات له بلوغ اليقين، لأن ذلك حِكْرٌ على الحق.

هذا وقد قصّ الله تعالى علينا قصة قوم شعيب عليه السلام الّذين كانوا يقولون: لا ينبغي للدين أن يتدخل بالحياة، ولا يحق له التدخل في الحكم والسياسة! أرأيت كيف ان (العلمانية) حالة موغلة في الزمن، فهاهم قوم شعيب يقولون لنبيّهم الذي أرسل اليهم: ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ

أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود-78) اذاً فهذا المسار مسار قديم، ذاك الذي يدعو الى عدم خلط العبادة بالسياسة، وألاّ يكون للدين على الحياة سلطان، نعم إنه ليس أَمراً حادثاً ولا جديداً، وليكن في معلوم الجميع ان (السيكولاريزم) الذي ظهر كمصطلح في هذا العصر، وَيكثر استعماله كان موجوداً كإتجاه، متى ما بعدت الشقة بين الله وبين الإنسان، فهو يسعى دوماً ان ينهمك بالدنيا وبهرجها، وعندما لا يكون الإنسان مؤمناً بخالقه، فهو يحاول جاهداً ان يجد منهجاً لحياته، فلا شك اذا انقطعت الأَواصر بينه وبين الله تعالى، فسيحاول ملياً أَن يعتمد ويتوكل على نفسه، لذلك فالعلمانية كمصطلح فكري و سياسي، ظهرت في الغرب في أوضاع كهذه، ونحن عندما نقول (الغرب) نعني بذلك أوروبا وأمريكا أيضاً، لأَنها امتداد لأوروبا، فالذين يتمتعون بالسلطة العليا في أمريكا، هم من أصول أوروبية كانوا قد نزحوا الى هناك، وخصوصاً الإنكليز الّذين استقروا في أمريكا، وأبادوا الملايين من الهنود الحمر(1)، ولم يُبْقوا إلاّ على القليل منهم، إذاً: فالأمريكيون اليوم هم أنفسهم الأَوروبيون بالأمس، تماماً كما أن الحضارة الشرقية تخضع في الحقيقة للحضارة الغربية، وعندما تطلق كلمة الغرب، فإننا نعني بذلك كلا قسميهِ الشرقي والغربي، اللّذَيْن يعتبران امتداداً للحضارتين الرومانية والإِغريقية، فالأَوروبيون سواء في زمن الإِغريق والرومان، أو بعد مبعث المسيح عليه السلام، ظلّوا كدأبهم على وثنيتهم المعهودة، وعلى هذه الحقيقة أجمعت غالبية المصادر التاريخية، التي تتحدث عن تأريخ العالم عموماً و تأريخ أوروبا

(1) أُكتشفت أمريكا من قبل كريستوفر كولومبس حوالي سنة (1500)م ولكن دولة أمريكا تأسست على يد جورج واشنطن في 1789م ولم تتأسس الا على جماجم الهنود الحمر و بعرق جبين الافارقة الّذين إسترقوهم وإستذلّوهم.

خصوصاً، بأن الإغريق والرومان كانوا غارقين في الوثنية الى أذقانهم، و الى يومنا هذا لازال بعض أُدبائهم و كُتّابهم يستعملون تعابير من قبيل: إله الجمال، وإِله الشرّ، وإله السلام... الخ ولا شك أن هذه التعابير تعود الى الإِغريقيين، لأنهم كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة، فالأوروبيون كانوا قد اعتادوا على هذا النمط من التفكير، ولهذا فعندما جاء عيسى عليه السلام – كسائر إخوانه الأنبياء عليهم السلام – بالتوحيد، لم يستسيغوه، فعندما كان المسيح (عليه السلام) يقول لهم: ﴿إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران –51)، و كان يدعوهم لنبذ كلّ معبود سوى الله سبحانه وتعالى، فهنا شرع الأوروبيون بصورة جدية يعادون عيسى (عليه السلام)، وبدل أن يطيعوه و يتبعوا منهجه، نصبوا له العداء المقيت، مُحافظةً على تراثهم الوثني الذي ورثوه من الحضارة الرومانية، وقد مارسوا عداءهم بتأييد من اليهود الذين كانوا يتهمون أمَّه (مريم) بالزنى، لأنها ولدت عيسى من غير بعل، هكذا أَعلنوا العداء على عيسى، فلم يكتفوا بإنكار نبوته، بل اعتبروه ابن الزنى، لكن الله الحكيم العزيز (عزّ وجلّ)، دفاعاً منه عن نبيه وعباده الصالحين، و دحضاً للأخطاء وإشاعات التأريخ، أوضح الحقيقة وَبيَّنها في قرآنه الكريم، وأعلن أن عيسى ولد من غير أب، لأن الله تعالى خلق عيسى بقدرته كما خلق آدم بقدرته، فإذا كان لعيسى والدة، فما كان لآدم أب ولا أم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ (آل عمران–59)، وقد كانت اليهود تؤيد الرومانيين في عدائهم لعيسى عليه السلام، بغية إخماد النورالذي جاء به، ووصل الأمر الى مطاردتهم لعيسى وَاختبائه في الملاجيء والمخابيء، فأصبح بفراره مطلوباً لدى الدولة الرومانية، و كانت اليهود تقوم بالتجسس عليه للإمساك به وتسليمه

للسلطة الرومانية الوثنية الغاشمة، كي يتخلّصوا منه، ولكن الذي حصل هو ان أحد تلاميذ عيسى (عليه السلام) خانه وأخبر الروم عن مكانه، فقصدوا مكان وجوده ليعتقلوه، ولكن قدرة الله جلت عظمته، تدخلت في هذا الوقت لإحباط مخططهم الخبيث، فرفعه الله من مكانه الى السماء، دون أن يلحقه ضرر، كما أخبر تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ (آل عمران 54– 55). ويقول أيضاً في سورة النساء الآية (157) ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ**﴾.

وهكذا حافظ الله تعالى على نبيه من شر اليهود وكيدهم، ومع ذلك فالنصارى – تحت تأثير اليهود – يؤمنون حتى يومنا هذا، بأن عيسى اعْتُقِلَ وَ صُلِبَ فعلاً، والقرآن أوضح حقيقة هذه المسألة أيضاً، فالأمر ليسَ كما يقولون، بل ان اليهود عندما دخلوا على عيسى للقبض عليه، ألْقى الله شبهه – حفاظاً عليه – على التلميذ الخائن–يهوذا الأسخريوطي– الذي تجسس عليه ووشى بمكان وجوده، فغدا التلميذ بأمر الله تعالى، على صورة عيسى (عليه السلام) فاعتقلوه وقتلوه، وخرج عيسى من كوة الغرفة و رُفع من قبل ربه، والذين دخلوا الغرفة قالوا: ألم تكونوا اثني عشر رجلاً؟ فأين ذهب الآخر؟ فأنكر التلميذ ان يكون هو عيسى و استنكر اعتقالَه، ولكن اليهود قالوا له: بل أنت عيسى، عار عليك أَن تخاف و ترتد من دعوتك، وأعاد التلميذ: إِنّني لست هو، بل لقد رُفِعَ و اختفى قبل برهة، ولكنهم لم

يُصَدّقوه[1]، وقد قصَّ الله هذه الحقيقة في القرآن بوضوح، حيث يقول تعـالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (النساء 157).

وعندما اختفى عيسى من بين ظهرانيهم، بـدأت اليهـود بِشَراسَـةٍ معـاداة وَمطاردة حواريي عيسى وَتلامذته وَمُحبيِّه، فكـانوا يعتقلـونهم، وَيقتلـونهم، ولذلك لم يتمكن تلامذة عيسى و حواريّوه – بسبب الضغوط الكـثيرة الـتي كانت تمارس ضدهم – من جمع الأنجيل الـذي نـزل علـى عيسـى و كتابتـه ونشره كما نزل، فتشتت الكتاب وصـار شَـذَرَ مَـذَرَ، ومعلـوم ان المقصـود بالكتاب هو الرسالة والدستور المبعوث الى عيسـى عليـه السـلام، فالإنجيـل معناه: البشارة، ولكن النصارى كان عنـدهم – حسـب بعـض الروايـات– سبعين انجيلاً بـدل إنجيـل واحـد – كمـا سنشـير الى ذلـك لاحقـاً – ولهـذا فالنصـارى وخوفـاً مـن لحـوق العـار بهـم، اجتمعـوا وأعلنـوا خـوفهم مـن الإفتضاح، وقالوا: إن الله أنزل إنجيلاً واحـداً، ونحـن عنـدنا سـبعون إنجـيلاً، فلنخفف من ذلك، فَقَلَّصوا عدد الأناجيل من (70) إلى (4)[(2)] ومـن ذلـك التاريخ بدأت آلة التحريف والتخريب تعمل عملـها في ديـن عيسـى (عليـه السلام)، وأول من بدأ بتحريف شريعة عيسـى هـو (شـاؤول الطرسوسـي) المعروف بـ(بولص)، وكان هذا يعادي المسيحية في أول أمـره، ولكنـه فجـأة أعلن عن مسيحيته، والمؤرِّخون الأوربيون بعد أن حققـوا في الأمـر، قـالوا:

---

(1) لتفاصيل هذه القِصَّة أُنظر: إنجيل برنابا، الفصول: 213 و 214 و 215 و 216 و 217 و 218، ص307-315، ترجمةُ من الإنكليزية الدكتور خليل سعادة، ط1/ القاهرة سنة: 1326هـ، تقديم السيد محمد رشيد رضا.

(2) والأناجيل الأربعة هي: (متى، مرقص، لوقا، يوحنا) وجميعها ذكريات و مذكرّات كتبها مؤلّفوها! إذاً فهي بغَضِّ النظر عن محتواها، لا تعتبر كتاب الله و كلماته المباركة التي أوحاها الله الـى عيسى عليه السلام، وإنما هي بَنات أفكارهم!

ان المحكمة اليهودية العليا أرسلت هذا الرجل وفق مخطط وضعوه لدسّه بين المسيحيين، كي يتمكن من تحريف دينهم وتخريبه، لأن اليهود كانوا مقتنعين بأنهم كلما مارسوا الضغط على حواريي عيسى وأتباعه، يزدادون تمسكاً بمنهجهم، و يكثر أفرادهم ويشتد إصرارهم، ويدافعون عن أنفسهم وَيُناهضونهم، فاستحسنوا طريقة إرسال شخص يكون بمقدوره تحريف دينهم وتقليبه رأساً على عقب، وقد قام بذلك فعلاً، وأول من أثار بين المسيحيين ألوهية عيسى (عليه السلام) هو (بولص) الذي أفهم الناس ان عيسى ابن الله وتجب عبادته، وإلاّ فهم كانوا يقولون قبل ذلك بأن عيسى عبدالله، أُمه مريم العذراء ولا أب له، بل هو عبدالله، وان الله أكرمه ببعض المعجزات كإحيائه الموتى بإذن الله، وإبرائه للأكمه والأبرص بإذن الله.... ومع ذلك فهو لايعدو أن يكون لله عبداً، فلا تجوز عبادته، ولكن (بولص) استطاع إثارة الخلاف والريب بينهم قائلاً: ان عيسى بإحيائِهِ للموتى وقيامه بكل تلك الأعمال، هو ابن الله، فذلك ليس في مقدور البشر العاديين، كل ذلك ليموّه عليهم، وَيلْبِسَ عليهم دينهم الحق.

وفكرة اللاهوت والناسوت أيضاً كان من صنيع (بولص) حيث قال: ان عيسى يتكون من شطرين، فشطر هو (لاهوت) يتعلق بالله، والشطر الآخر (ناسوت) يتعلق بالناس من أهل الأرض، ومن ذلك الوقت دَبَّ الخلافُ بين النصارى، فانحرفوا عن أصل دينهم الذي كان عبارة عن «التوحيد» فاعتباراً من اليوم الذي خلطوا التوحيد بالشرك، انقسمت النصارى الى قسمين، قسم صاروا موالين وأتباعاً لـ(بولص) وكانوا يؤمنوا بثلاثة آلهة: الأب، الإبن، الروح القُدُس ((ويقصدون بذلك: الله، وعيسى، و جبريل)) وهذا هو الّذي يسمَّى الثالوث، أما القسم الآخر فَعُرِفوا بأنهم أتباع (التوحيد)

وكانوا يتبعون (آريوس)، وفي سنة (320) للميلاد أعلن الإمبراطور (قسطنطين). – وكان من أقوى الإمبراطورات الرومية– عن مسيحيته، وكان الصراع باقياً الى تلك اللحظة بين المسيحيين وَمُعارضيهم، أي بين المسيحيين والوثنيين، وفي هذه الأثناء عقد (قسطنطين) اجتماعاً موسعاً بأكثر من (200) من رجالات المسيحية وأحبارها وَبابواتها، وهو الإجتماع الشهير الذي عرف بـ(مجمع نيقية) وفي هذا المؤتمر وبعد جدال عنيف، اعتمدوا (التثليث) عقيدة للمسيحية، وهكذا أُقصي الذين كانوا يؤمنون بالتوحيد، وَ يعتقدون ان عيسى كان يقول: أنا عبدالله، وما من إله الاّ الله، فاضْطُهِدَ الموحِّدون وأُذيقوا صنوف العذاب، وكانت النتيجة ان أثبتت عقيدة التثليث نهائياً، ثم قاموا من أجل تقوية منهجهم و تصوراتهم بتقليص الأناجيل، فلم يُبْقُوا منها – كما أشرنا آنفاً – إلاّ أربعة منها وقع اختيارهم عليها.

ولم تكن هناك صلة بين ما جاء به عيسى (عليه السلام) من عند ربه، وما قررته النصارى فيما بعد في مجمع (نيقية).

إن المؤرخين الأوربيين أقروا قاطبة أن (شاؤول الطرسوسي) هو مؤسس النصرانية، مثلاً، يقول أحد أشهر علماء ومؤرخي أوربا و اسمه (ويلز) في كتابه (معالم التأريخ الإنساني) في الجزء الثالث، ص (695):ان شاؤل يعتبر أول مؤسس حقيقي للنصرانية في الوقت الحاضر، وليست للنصرانية صلة بالدين الذي جاء به عيسى! وكذلك ورد في (دائرة المعارف البريطانية) ج (5)، ص (632):

لاشك ان سيدنا عيسى لم يدعُ الناس يوماً الى انه من نسل الإله او انه ابن الله، أو أنه من نسل أرفع من الإنسان، بل إنه كان يقول: بأنه عبدالله،

ولكن الذي ابتدع ألوهية عيسى، هو (شاؤول) والذي أيَّده واعتمده (قسطنطين) فيما بعد.

ويقول (موريس بوكاى) وهو رجل أوروبي في كتابه: (دراسة الكتب المقدسة في ضوء العلم): لم يبق أي كلام لعيسى في الأناجيل الموجودة اليوم، حتى ولا كلمة واحدة، تصح نسبتها لعيسى، ويكون محفوظاً الى يومنا هذا، لأن الله لم يبعث الى عيسى إلاّ إنجيلاً واحداً، ومع هذا فعندهم (70) إنجيلاً، وقلّصوه إلى أربعة أناجيل آخر الأمر، فيا تُرى أي إنجيل من تلك الأناجيل هو ما أنزله الله على عيسى، ولاشك أن أياً من تلك الأناجيل، ليس هو ما أنزله على نبيه المسيح (عليه السلام).

وما سردناه آنفاً كان خلاصة لقصة النصرانية والمسيحية كدين، الدين الذي حرف من التوحيد الى التثليث، الدين الذي لم تَعُدْ له صلة بالله تعالى!

ولكن دعونا نطلع على ما قام به رجال الدين والمؤسسات الكنسية، وما حَلَّ بهم ختاماً:

معلوم أن العلماء المسيحيين منذ الوقت الذي تسموا بـ(رجال الدين) ساروا بالمجتمع نحو وجهة أخرى، بعيداً عن الدين الحق الذي نزل إليهم، على أن مصطلح (رجال الدين) لا أصل له البتة في حقيقة الدين، بل هو نابع من المجتمع الأوروبي و رجال الكنيسة أنفسهم، وإلاّ فإن هذا مصطلح خاطيء ولا ربط بينه وبين الإسلام، ولم يرد في آية ولا حديث للنبي ﷺ بل ورد في نصوص الشريعة لفظ (العلماء) وهو مصطلح عام يشمل الرجال والنساء معاً، فالمجتمع في الإسلام – رجالاً ونساءً – عبيد الله، وليس الدين حِكْرا على الرجال، بل هو دين الرجال والنساء والأطفال أيضاً، والجميع مسؤولون أمامه، ولذلك فإن مصطلح (رجال الدين) بمعنى أن توجد مجموعة من الرجال، يختصون بخدمة دين الله دون غيرهم ويهتمون بأموره، فهذا

غريب على روح الدين ولا أصل له في الإسلام، لأن الإسلام يشمل كل المسلمين بكل طبقاتهم وشرائحهم وأجناسهم في المجتمع الإنساني، فتلك اللفظة ظهرت أول ماظهرت في أوروبا، وقد مورست كتطبيق عملي عندما وقع رجال الدين المسيحييون تحت ضغوط الرومانيين، وخصوصاً بعد ان حَرَّف عليهم (شاؤول) دينهم، وبدأ أتباعه بإعطاء التنازلات، فهم بعد ان تنازلوا عن التوحيد، أَتْبَعوا ذلك بأشياء أخرى كثيرة، كما يقول صاحب كتاب (تأريخ أوروبا في العصور الوسطى) الذي ترجم من الإنكليزية:

لقد كانت حصافة رجال الكنيسة المسيحية وذكاؤهم، في أنهم عندما علموا ان سيل الوثنية قادم، وأن عقيدة التثليث باتَتْ قوية لا تقاوَمْ، ولا يمكن صَدُّها، قاموا بالتوفيق بين الدين المسيحي وذلك المعتقد الوثني! يقول: إذن هم كانوا أذكياء لأنهم لم يَدعَوُ الدين المسيحي يَنْهار مرة واحدة، فقاموا في أول الأمر بتطعيم دينهم بعقيدة التثليث، ثم جعلوا يغيرّون كل ما يتعارض مع رغبات الناس و أهوائهم، ووصل الأمر الى أنهم حرّفوا أكثر دينهم، حتى صار الدين مُزْحَةً و ألعوبة بأيديهم، فلم يبق هناك شيء اسمه دين الله، بل صار كأية نظرية أو فكر بشري، وضعه إنسان بعيداً عن الدين ومنهاج الله، ولذلك فنحن لا نستغرب وَلا يثير دهشتنا إذا رأينا الأوربيين – رغم اعتبارهم أنفسهم مسيحيين – يأكلون لحم الخنزير، وَيشربون الخمر، ويأكلون الربا، وَيزنون، ولا يختتنون، فهم يستحِلُّون كلَّ هذه المحرمات وَغيرها، وَيعتبرونها أموراً إعتيادية وَمشروعة.

وقد جاء في تأريخ الدول الأوروبية، ان تلك الأشياء كلّها أُضيفت لاحقاً الى الدين المسيحي، لأنها جميعاً كانت موجودة في فكر و عقيدة الشعوب والمجتمعات الإغريقية و الرومانية، وقد حادَ المسيحيون عن حقيقة الشرع والعقيدة، و تَقَمَّصوا تصورات أولئك و اقتفوا آثارَهم، و هؤلاء أَلْقَوْا

بِتُرَّهاتهم وحثالاتهم وسط الدين المسيحي، والآن لننظر ماهي الأشياء التي ابتدعهتا الكنيسة في الدين المسيحي:

البِدَع التي استحدثتها الكنيسة في النصرانية

1/ إستحداث طبقة الكهنوت، اي رجال الدين (الأكليروس): وهذا كان من الطوام الكبيرة والبلاوي الخطيرة التي أحلها رجال الكنيسة على المسيحية، فالمسيح (عليه السلام) ربما كان من أكثر الأنبياء زهداً في حياته وبساطة في أمور معيشته، فهو لم يتزوج في حياته، وكان دوماً يتحدث في المسائل الروحية، كالزهد واحتقار الدنيا، والأخلاق والسجايا الحسنة، وكان يتحدث عن تربية القلب وتعويد البدن وأعضائه على الحسنات، فلذلك لم يتخذ الدين يوماً من الأيام وسيلة لمصالحه، يتاجر به من أجل معيشته، أو يتنازل عنه خوفاً أو من أجل مصلحته، بل كان يمتثل أمر خالقه (جل وعلا) لا يحيد عنه قيد أُنملة، ولكن رجال الكنيسة الغارقين في أهوائهم، أظهروا أنفسهم كطبقة متميزة عن طبقات المجتمع أشد التميز، في كل أمر من أمور حياتهم، بدءً من ثيابهم وكيفية معاشهم، و في العبادة، وتفسير الكتاب المقدس، وفي أشياء أخرى كثيرة ميّزوا أنفسهم عن الآخرين، فكانوا يحرّفون الكتاب المقدس على أهوائهم، و يتصرفون فيه كَمُلْكٍ شخصي خاص بهم، يفسرونه ويؤولونه فيه وفق ما يشاؤون.

فيا أيها الأخوة! لا يخفى أنه يحق في الإسلام لكل المسلمين قراءة القرآن والبحث فيه وفهمه، ولكن لا تقيسوا المسيحية على الإسلام، فليس في المسيحية شيء كهذا، لم يسمح لهم بذلك إلاّ بعد النهضة العلمية، حيث بات – بعد تلك الثورة– في مقدورهم التدقيق في الكتاب المقدس، والاّ

فلم يكن يحق لغير البابا و طبعة الكهنوت، أن يقرأ الإنجيل و التوراة، أو يتعلمهما، بل كان قراءة الإنجيل والتوراة وتفسيرهما حِكْراً على طبقة الكهنوت والأحبار فقط، هذا من الناحية الدينية، أَما من الناحية الفكرية فقد تسببت الكنيسة في إلحاق مأساة كبرى بالدين المسيحي، حيث أحدثت فيه فتنة وفوضى تفوق التصورات، فهي حرفت حتى الكتاب المقدس، فشحنتها بالأفكار الفلسفية التافهة، والتصورات البشرية البعيدة عن الله والدين.. فمثلاً كان (بطليموس) و (إقليدس) عالمان وفلكيان إغريقيان، وقد ربطت الكنيسة تصوراتهما عن الكون كحقائق دينية مع الإنجيل والتوراة، فـ(بطليموس) مثلاً يقول عن الكون: الأرض مركز الكون، والنجوم تدور جميعها حول الأرض، و كان المسيحيون يؤمنون بهذا الرأي ويتبنونها، وكانوا يؤمنون كذلك بخيالات (أرسطو) عن السياسة والحكم والطب باسم العلم، مع أن تلك التصورات كانت معظمها لا تتوافق مع العلم، وكان الناس يعتبرون ما يصدر من (أرسطو) و (بطليموس) أو (إقليدس) أشياء مقدسة لا يحيدون عنها، بل كان رجال الدين يعتبرون كل كلام أو رأي يخالف آراء هؤلاء، كفراً ومخالفاً للكتاب المقدس، فهذا (كوبرنيك) كتب في سنة 1543 كتابه الذي ترجم الى العربية بعنوان (حركات الأجرام السماوية) وذلك قبل أن يكتشف التلسكوب، يقول في كتابه المذكور:

الأرض أحد الأجرام السماوية، والأرض ليست مركزاً للكون، وهذا يخالف تماماً آراء (بطليموس وأقليدس) عن الفلك والكون، ولذلك فإن محكمة التفتيش الخاصة بمراقبة العقائد، والتي كانت قد شكلت لذلك الغرض، عزمت على إلقاء القبض على (كوبرنيك) وإعدامه، مع أن المذكور كان كاهناً، لكن المنيّة عاجلته قبل أن تلقي المحكمة القبض عليه، فنجا – بالموت – من قبضتهم.

لكن (جوردان برونو) الإيطالي، الذي أراد إحياء نظرية (كوبرنيك) حِبَسْته محاكم التفتيش لمدة ست سنوات، بعد ذلك وفي سنة (1600) صبوا عليه النفط أمام الملأ وأشعلوا فيه النار ليصبح رماداً، كل ذلك من أجل أنه كان يقول: إن الأرض ليست مركزاً للكون، بل هي جرم من أجرام هذا الكون[1].

ظهر بعده «غاليلو» بسنوات (1564-1642)، واخترع (التلسكوب)، وقد آمن بنظرية (كوبرنيك و برونو) بسبب مخترعه، لذلك اعتقلته المحكمة وحبسته مع أنه كان يناهز السبعين من عمره، وقد فرضت عليه المحكمة بعض الأوراد التي كان يجبر على قراءتها يومياً ليتطهر من ذنبه، وبعد ثلاث سنوات من السجن طلب منهم (غاليلو) أن يقبلوا توبته وندمه كي لا يقضي أواخر أيامه في المعتقل.. فتنازل أمام البابا عن تصوراته وقال: ان ما طرأت عليَّ كانت نظرية شيطانية وإنَّني نادمٌ عنها ولن أعود اليها، ولن أَرتكب خطأً كهذا مرة أخرى، ولن أقول ان الأرض كروية تدور حول نفسها، وقد جاء هذا في كتاب (معالم تأريخ الإنسانية)[2]، كما وردت نماذج وأمثلة كثيرة بهذا الصدد في كتاب (قصة النزاع بين الدين والفلسفة) ولنحكي هذه الطّرفة وهي مما جاء فيه: كان أحد أساتذة الدين المسيحي أثناء تدريسه التلاميذ ورد ذكر الفرس، فقال أحد التلاميذ: كم من الأَسنان في فَكّ الفرس يا أستاذ؟ فأجابه: لم يَرِدْ ذكر هذا الموضوع في الكتاب المقدس يا ولدي، فلا تتحدث عنه!

---

[1] - أنظر: (العلمانيون والقرآن الكريم)، ص50،51، نقلاً عن: (الإلحاد في الغرب) رمسيس عوض، ص47-49.

[2] - ج1، ص1008، وأنظر: تأريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص20، ولكن عند خروجه من المحكمة قال وهو يضرب الأرض بِرِجْلِه: (ومع ذلك فهي تدور)! أنظر: (العالم في منظوره الجديد) كافين رايلي: نقلاً عن: (العلمانيون والقرآن الكريم)، ص55.

لأن كل مالم يرد ذكره في الكتاب المقدس فالحـديث عنـه ممنـوع، ولكـن أحد (الأشقياء) من بين التلاميذ قال: ولكـن بإِمكاننـا أَيهـا الأسـتاذ: أن نأتي بفك فرس ميت أو حي وَنُعدَّ أسنانه، وحينذاك يتبيّن لنا عدد أسـنانه بوضوح، فغضب منـه الأسـتاذ قـائلاً: اذا لم تنسـحب عـن كلامـك هـذا فسوف أفصلك من الدراسـة وأحيلـك الى محكمـة التحقيـق والتفتـيش، فسارع التلميذ الى الإعتذار والإنسحاب من كلامه، هكذا كانوا يتعاملون – باسم الدين – مع المسائل السياسية والفكرية والثقافية والعلمية.

كان (مارتن لوثر) الألمـاني (1518–1483) حامـل مشـعل الحركـة البروتستانتية في أوربا، وحاول تصفية النصرانية من الأخطاء العالقـة بهـا والقيام بتجديد الدين، وهكذا أحدث وأثار مجموعة مستجدات في الـدين النصراني ضد السلطة وتصورات البابا والكهنة، لكـن البـابوات أقـاموا مذبحة كبرى للبروتستانت في سنة (1752) باسم مذبحة «سانتي بارتلي» حيث قتل منهم في ليلة واحدة مائة ألف، وقتل وأبيد مابين قرني الثالـث عشر والثامن عشـر بأمر محاكم التفتيش أكثر مـن تسـعة ملايـين إِنسـان وكان أكثرهم من النصارى واليهود، باستثناء جماعة كـانوا مـن مسـلمي الأندلس الذين لم يرتدُّوا عن دينهم، فَأُبيدوا جميعاً بأمر المحكمة النصـرانية السفاكة للدماء.

ويشكل المسـيحيون في الوقـت الحاضـر ثلاثـة اتجاهـات (الكاثوليـك، البروتستانت، الأرثذوكس) وكان الذين أقاموا محكمة التفتـيش والمـذابح الشنيعة وأعطوا لأنفسهم السلطة المطلقة، هم الكاثوليك.

2/ ما ابتدعته الكنيسة في الجانب الروحي:

إِبتدع رجال الكنيسة بدعاً عديـدة في الـدين النصـراني مـن الجانـب الروحي فيه :

أ- وكان مِمّا أحدثوه فيه «الرهبانية» كما أخبرنا تعالى ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (الحديد-27)، والإبتداع في الدين شيء بالغ الخطورة، لأَن الله تعالى خلق الإنسان وهو أعلم بما يحتاج اليه في حياته من منهاج ودين، وعندما ينقص منه ويزاد ينحرف الإنسان عن عبادة الله على الطريقة الصحيحة، فتضطرب حياته حينذلك، والنصارى ابتدعوا الرهبانية على أساس الذنب الذي ارتكبه آدم، ولذلك – في تصورهم – بعث الله بابنه (عيسى) ليكون ضحية يمحو بها ذنب آدم ويخلِّص البشرية، ويقولون ان آدم هو الذي أذنب، وعيسى دفع الثمن، ويقولون بأن الرهبانية هي أن تُبالغ في إيذاء نفسك، لأن عيسى كان ابناً لله فجاء لِيُخَلِّص الإنسانية، فكفّر بموته عن ذنب آدم، فالذي يريد ان يتخلص من ذنوبه ويتطهر ويرضى عنه الله، يجب أن يُكْثِرَ من تعذيب نفسه ويقحمها في المكاره حتى يفنيها، ولذلك فالراهب لم يكن يتزوج، ولا يغتسل، ولا يتعطر، ولا يتنظف، ولا يأكل طعاماً شهياً، و بإختصار: فكل ما كان يتعارض مع الفطرة وطبيعة الإنسان، هم كانوا يقومون به.

ب- ومن الأشياء التي أحدثتها الكنيسة في هذا المجال هو «القربان المقدس» ولا يزال موجوداً الى يومنا هذا، يسميه النصارى بـ«العشاء الرباني» ويقصدون به أن عيسى دعا النصارى ذات يوم الى مأدبة فصنع الحواريون لهم طعاماً وشراباً، وأن عيسى قال لهم: الذي يأكل هذا الطعام، فكأنما أكل لحمي و دخل جِسْمَهُ جسمي، والذي يشرب هذا الشراب، كأن دمي دخل الى عروقي! اذاً فمن تناول من هذه المأدبة، فهو تناول دمي ولحمي واختلط بي! والنصارى لا يزال لهم

عيد يتناولون فيه الطعام والخمر، ويتخيلون الطعام لحم عيسى والشراب دمه! فانظروا بربكم! الى هذا الهُراء الذي لا يتقبله العقل السوي، ومع هذا، ورغم التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل في هذا العصر، فهم لا يزالون يُقيمون مثل هذه المآدب، وينشرون مثل هذه التفاهات، وهم على هذه الطوام يَعُدُّون أنفسهم متقدمين!

ج- وأحدثوا كذلك، صناعة الأصنام والتماثيل وعبادتها، ولم تكن موجودةً قبل ذلك، كما يقول (وول ديورانت) مؤلف كتاب (قصة الحضارة)[1]، فهو يقول: كانت الكنيسة في بداية أمرها تعارض التماثيل والصور بشدة، وتعتبرها من بقايا الوثنية، لكن الكنيسة عندما انحرفت، استساغت هذه الأشياء كلها.

د- وأحدثت الكنيسة والبابوات (صكوك الغفران)، فكان البابا يقول لشخص ما: أتريد ان يغفر لك الرّب ويدخلك الجنة؟ إن كنت تريد ذلك، فهات كذا مقداراً من المال، ليعفو الرب عنك، وعند ذلك كان البابا يُخرِجُ له ورقة الغفران ويقول له: وأنا في المقابل عفوت عنك بالنيابة عن عيسى، ويعفو عنك عيسى بالنيابة عن الرب، لأن عيسى هو ابنه، بل كانوا يقولون للبعض: لقد عفونا في مقابل هذا المال عن ذنوبك السابقة واللاحقة، بل كانوا يغالون أكثر من هذا فيقولون للبعض: تعالوا نعطيكم صكوك الغفران لأمواتكم كي نعفو عنهم أيضاً، وهكذا كانوا يخدعون الناس ويفتكون بهم.

ويُروى في هذا المجال انه كان هناك رجل ثريٌّ وداهية، فرأى ماتقوم به الكنيسة والبابوات من سلب جزافي لأموال الناس والإِضرار بهم،

---

[1] - ج24، ص154.

فذهب هذا الثريُّ ذات يوم الى البابا وقال لـه: لقـد جئـت أُسـاومك على شراء شيء، فقال البابا أي مساومة تقصد؟ فقال الثري: أريد ان أَشتري منك جهنم، فتعجب البابا و دُهِلَ وقال له: وماذا تفعل بجهنم، الناس يريدون الجنة ويشـترونها؟ فقـال الرجـل: ولكـنني لا أُريـد إلاّ جهنم، وأشتريها منك جميعها، وكان البابا ما ينفك يقول: وماذا تفعل بجهنم؟ لم يكن يدري كيف يصرفه عن مطلبه، والرجل يُلِحُّ في مطلبـه ويقول إنَّني حر في مالي، وبالنتيجـة اشـترى الثـريّ جهـنم مـن البابـا بمقدار معين من المال، فأشاع بين الناس أن فلانـاً اشـترى جهـنم مـن البابا، فليس هناك داعٍ بعـد اليـوم لشـراء الجنـة، وذلـك لأن جهـنّم صارت مُلكي، ولا أسـمح لأحـد أن يَـدخُلَها، و كـان مقصـوده أن يفهم الناس، أن مسألة العفو و الجنة و النار ليست في يد البابا.

ويقول (وول ديورانت) أيضاً في كتابه: قـال أحـد البـابوات: ان البابـا نائب الله وظله على الأرض، لذلك يجـب ان تكـون لـه السـلطة المطلقـة على الحاكم والمحكوم، ولم يكن يحق لأي ملك او إِمبراطور القعـود علـى العرش والشروع في عمله الا بعد قرار البابا، وكان البابا لو غضب علـى أي حاكم أو إِمبراطور، يعزله في غضون يوم واحد و يُفْقِدُه مسؤوليَّته.

3/ **من الناحية السياسية:** لقد كانت السلطة السياسية – كما قلت سابقاً – جميعها في قبضتهم، لذلك سأكتفي بالإستشهاد بمثالين من التاريخ فقط:

أ- عندما غضب البابا من الإمبراطور (هنري الرابـع) الـذي مـات سـنة (1576) أوقفه وسط الثلوج حافياً لثلاثـة أيـام، كأسـلوب للتوبـة، وبعد ذلك تشفع الناس الى البابا فعفا عنـه، وكـان السـبب الوحيـد

لغضب البابا على الإمبراطور، هو أنـه قـال: لمـاذا يتـدخل البابـا في شؤون الدولة والحكم؟

ب- أما الإمبراطور الرومي (فريدريك) الذي مـات سـنة (1177) م، فقد تعرض بالصـورة نفسـها مـن قبـل البابـا الى العقوبـة والتعـذيب الشــديد المخــالف للإنســانية، كــل ذلــك بســبب بعــض الآراء والطروحات التي أبداها الإمبراطور أمام البابا!

4/ **من الناحية الإقتصادية:** كانت السلطة الكنسية ورجال الدين، يعيشـون من الناحية الإقتصادية في ثراء فاحش دونه الإمبراطور بكثير، فقد كانـت لهم ثروات وأراضٍ وعبيدٌ تجـلّ عـن الحصـر، وكـانوا يأخـذون ضـرائب وإتاوات باهظة من الفقراء والمساكين، وَيسـخِّرونهم لأعمـالهم، ويلقـون بكل أحمالهم وأعبائهم عليهم، فلم يكن أحد يعتـبر نفسـه صـاحب شـيء أمام رجال الكنيسة الذين كانوا يقومون بما يقومون به مـن ظلـم وأشـياء مستهجنة باسم الدين.

والخلاصة ان (العلمانية) جاءت الى الوجود في تلـك الظـروف العصـيبة كرد فعل لذلك الـدين المحرَّف، وتلـك المؤسسـات القمعيـة المجحفـة باسـم الدين، التي كانت تقف حجر عثرة أمام العلم وتطور الحياة. وعلى هذا فـإن ماركس لم يكن أحمقاً عندما قال: «الدين أفيـون الشـعوب» ان كـان يقصـد بذلك الدّين المسيحي المحرَّف، والا فلو أنه كان يقصد الإسلام، لكان متـوغلاً الى أذقانه في الخطأ، لأن الإسلام هو منهج الحياة المبرأ من الخطأ والزلل، وهو مفتاح لحل كل المشاكل والعقد المستشكلة، ولكن أولئك لم يكونوا يعرفـون سوى الدين النصـراني، فكـان ذلـك رأيهـم في الـدين، والواقـع ان الـدين النصراني كان أَفيوناً بحق، يُخَـدِّر أعصـاب النـاس و يُغَيِّـبُهُم عـن واقعهـم،

ويقف عائقاً بوجه العلم وَالتطـور، والـتفكير ومصـلحة الشـعب، وَانعطافـة الحياة نحو التقدم. ولهذا السبب اضطر الأوربيـون أن يناهضـوا ذلـك الـدين وَيقفوا بوجهه، فكان علماؤهم وفلاسفتهم خصوصاً، لا يرتضون ذلك الواقع و يستمرون في انتقاده، وكان السياسـيون و المصـلحون يكتبـون و يخطبـون على تلك الأوضاع الأليمة المفروضة عليهم، والشعراء يَلْمِزون أهل السلطة في أشعارهم، وَاستمر ذلك الى أن اندلعت الثـورة الفرنسـية سـنة (1789) ضد الكنيسة، كآخر مسمار دُق في نعش الدين المسيحي المحرف والمؤسسات الكنيسة الطالحة، واعتباراً من اليوم الذي تدهورت فيه حالة الكنيسة ومالت شمسها الى الغروب، تحرر النـاس مـن السلاسـل والقيـود الـتي لَفّتهـا حـول أعناقهم الكنيسة وَالبابا وَالجشِعون من طبقة الأكلـيروس، لقـد كـان الـدين النصراني كابوساً مخيفاً ظل لسنوات طويلة جاثماً على صدورهم، حتـى جـاء اليوم الذي تخلصوا فيه من مضطهديهم وَظالميهم و شاربي دمـائهم، ولـذلك فقد كان أحد الشعارات التي نادت الثورة الفرنسية بهـا هـو: إشـنقوا آخـر ملك بأَمعاء آخر قسيس... أي اقتلوا أولاً القسيس وَمزقوه وأخرجوا أمعاءه لتشنقوا بها الملك، حتى ننجو من كليهما، لأن أَحدهما أظلم من الآخر!

الفصل الثـــالث

آثـــار العلمانيـــة في حياة الناس في الغـــرب

الناس في الغرب كانوا يعيشـون في الأوضـاع التي سـردنا جانبـاً منهـا، ولذلك قاموا بإشعال فتيـل الثـورة ضـد الـدين النصـراني المحـرف، و ضـد المؤسسات الدينية الدائبـة علـى الظلـم، إذ كانـت جميـع الأبـواب موصـدة بوجوههم، فإما أن يرتضوا البقاء في ظروفهم السيئة، أو أن يناهضـوا ذلـك الدين الذي لا يعرفون غيره، ويقفوا في وجهه، أو أن يجدوا حلاً ثالثـاً بـديلاً كالإسلام، ليتبعوه ويُخلِّصوا أنفسهم من قيود النصرانية، وهذا كـان محـتملاً لو أنهم لم يكونـوا متعصـبين لـدينهم، أو لم يكونـوا حاقـدين علـى الإسـلام والمسلمين، وكلا العائقين – مع الأسف – كان موجوداً، فالصليبيون كـانوا قد قاموا بالعديد من الهجمات الوحشية على بلاد المسـلمين، وقتلـوا مـنهم الآلاف، والمسـلمون في المقابـل كـانوا قـد طـردوهم بـالقوة دفاعـاً عـن مقدساتهم، وخصوصاً في عهد السلطان (صلاح الدين الأيوبي) الـذي أبلـى فيهم بلاءً حسناً، وذلك ما أبقى علـى حقـدهم نحـو الإسـلام، وَمـنعهم مـن التفكير في دخوله، وإلاّ فالإسلام – بحق – يفي بأمور الحياة ويسير بهـا نحـو الأمام، ويحرر الإنسان ويكفـل لـه مصـالحه الدنيويـة والأخرويـة، والمجتمـع الإنساني لا ينعم بالسعادة والحرية والأَمن الا بالإسلام، فمعه يتقدم ويتطور، لكنهم – يا للأسى – أعرضوا عن الإسلام صـفحاً، بسـبب تلـك الأحقـاد القديمة، بل تحولوا من نصرانية محرّفة الى علمانية محرّمة ونابذة للدين، ولكـن لنْلقي نظرة على مجمل حياتهم في ظل العلمانية، نقول باختصار:

أوربا كانت في التجائها بالعلمانية كالمستجير من الرمضاء بالنار، فهي نعم تحررت من ركام من الخرافات والتفاهات والعراقيل، وأشياء كثيرة تتعارض مع العقل والعلم، ولكنهم في مقابل ذلك أوقعوا أنفسهم في طوام أخطر من الوجهة الدينية، لأنهم ساروا نحو اللامبدئية، وأَقْصَوا ناحيةً غاية في الأَهمية ألا وهي الناحية الروحية والمعنوية، وبذلك أقصى الأوربيون الدين جملة وتفصيلاً، لأن نفوسهم كانت ممتلئة حقداً وغيظاً على الدين عموماً بسبب النصرانية، فصار بعد ذلك لايحق لأحدٍ التحدث عن الدين أصلاً، ودع عنك ما آلت اليه الأحوال، بعد تقدم العلم تباعاً وسراعاً، وبعد أن تحرروا من قيود النصرانية و أغلالها، وبعد أن تفتحت عيونهم على الدنيا وفهموها فهماً جديداً، وخصوصاً بعد ان ترجمت مؤلفات علماء العالم الإسلامي الى لغاتهم، وكذلك بعد وقوعها في أَيديهم في الحروب الصليبية، وعن طريق جزيرة (صقلية) والأندلس (إسبانيا الحالية) ترجمت الكتب الإسلامية ووصلت الى أيديهم. وتقدم العلم تقدماً بعيداً في مجالات الفيزياء والكيمياء والجبر والهندسة والطب والفلك.. الخ وهكذا وعلى أساس هذه الأسباب زاد استغناؤهم عن الدين، فألقوا بها كسِقطِ المتاع، ويوماً بعد يوم كانت تزداد الهوة بينهم وبين دينهم، حتى وصل الأمر الى أن يقول (هكسلي) في كتابهِ (الإنسان في العصر الحديث) المترجمة من الإنكليزية: بأن الإنسانية مرت بثلاث مراحل وهي:

1- مرحلة الأساطير 2- مرحلة الدين 3- مرحلة العلم

والمؤلف صادق في كلامه الى حد ما، من حيث أنه كان كما يقول المثل الكردي – (يَعُدّ الجوز من كيسه) فالواقع أن أوربا قبل مبعث عيسى (عليه

السلام) كانت تعيش في الأساطير، ثم بعـد مجـيء عيسـى الـيهم اهتـدوا الى الصراط المستقيم، وصاروا من أتبـاع الـدين الحقيقـي، ولكـنهم في أعقـاب تحريفهم لدينهم، وبسـبب ذلـك ظلـوا راتعـين في الأسـاطير، وأخـيرًا عنـدما انحرفوا عن نصرانيتهم أيضاً، توجهوا الى العلم والتقدم، لهذا فكلامه يصـدق على أوربا، ولكنه ليس صحيحاً – البتة – بالنسـبة لجميـع الإنسـانية، لأنـه ليس صحيحاً أصلاً أن الدين والعلم نقيضان لا يتفقان، نعم إذا كـان الـدين محرفاً مليئاً بالخرافات كالنصرانية، فهذا لا يمكن أن يتفـق مـع العلـم قطعـاً، ولكن لايصدق هذا الحكم على دينٍ صحيح كالإسلام، والذي جعـل لحمتـه وسداه العلم والعقل والمنطق السليم، لهذا توجه الناس نحو العلمانيـة، وكـان لهذا التوجه أثرٌ بالغٌ في مختلف مجالات حياتهم: أما من الناحية الدينية، فـإنهم كانوا قد سئموا من الدين أية سآمة، وهم على هـذا كـانوا يعتـبرون الـدين خطأ ورجعية ومانعاً للتقدم، ويعدونه كذلك خطراً وأفيونـاً، فهـم مـن هـذه الناحية تجردوا عن الدين تماماً، واسـتقاؤوا كـلَّ مـا كـان منـه في أعمـاقهم وأفكارهم وعقولهم وأحاسيسهم، وألْقَوْا به بعيداً الى غير رجعة، واتبعوا علمـاً مباعداً عن الدين وسياسة مجانبةً الدين. والحقيقة ان كل علم وعمـل، سـواء كان في السياسة أو الإِجتماع أو الإِقتصاد أو أية ناحيـة أخـرى مـن منـاحي الحياة، لا يكـون الـدين خميرتـه و روحـه، لا نفـع لـه ولا قيمـة، لأن ذلـك سيتحول الى أهواء وَرَغبات شيطانية، ويغدو الإنسان متخبطـاً في أهوائـه، لا يأبه بالقيم والأخلاق والضمير في حياته.

وأما من الناحية السياسية، فقد حدثت تغـيرات سـلبية كـبيرة، خصوصـاً بعد أن كتب (نيكولاي مكيافيلي) (1469–1527) كتابه (الأمـير)، فقـد توجه المجتمع الأوربي الى الفساد توجهاً عجيباً، ولو نظرنا الى سياسة أوربـا،

لوجدناها تتبع النهج المكيافيلي جملة وتفصيلاً، والتي هي عبارة عن (الغاية تُبرِّر الوسيلة)[1] وقد سار الأوربيون وفق هذه السياسة، ومصداق ذلك (النازية) التي جاء بها هتلر، وَ(الفاشية) التي ظهرت على يد موسوليني، والدكتاتورية في المعسكر الشرقي باسم (البروليتاريا) على يد (لينين و ستالين)، ثم (ماوتسي تونگ) في الصّين الذي انتهج الأسلوب ذاته، ثم سائر ماكان من صنيع تلك السياسة من الأيدولوجيات والنظريات والمناهج التي انفصلت عن الدين انفصالاً لارجعة فيه، لأنها كانت سياسات بعيدة عن كل القيم والأخلاقيات الدينية والسماوية، وأما من ناحية الإِقتصاد وَرأس المال، فلا شك أنه قد بنيت معامل كثيرة، وظهرت الى الوجود ثروات وأموال طائلة، ولكن الإِنتاج ورأس المال الذي كان في يد مجموعة من الإقطاعيين سابقاً، الذين كانوا أصحاب كل شيء لوحدهم، آل مصيره الى قبضة الرأسماليين، ولا زالت تلك الأموال والثروات في أيدي أولئك الى يوم الناس هذا، يستخدمونها ضدّ الطبقة العاملة ويهددون بها شعوب العالم، وكانت النتيجة أن برزت الى الوجود معركة اصطلح على تسميتها بالحرب الباردة، استغرقت نصف قرن، وذلك نتيجة الظلم والإِضطهاد الذي كانت تمارسه الرأسمالية من جهة، و الدفاع الذي قام به المعسكر الإِشتراكي عن طبقة البروليتاريا من جهة أُخرى فقد أنشبوا هذه الحرب الشعواء بينهم، على حساب الشعوب وبأموالهم، والتي أدت الى قتل ملايين الفقراء جوعاً، وفرض سياسة التجويع على شعوب العالم، ولهذا يقول أحد العلماء عن

(1) أي ان الغاية العظيمة لاعلاقة لها بالوسيلة والأسلوب، فالمهم ان تكون لك غاية مهمة تصل اليها، كائناً ماكانت الوسائل والأساليب التي تنتهجها، سواء كانت تلك الوسائل شرعية ام غير شرعية، فالمهم أن تصيب الهدف وتنتصر وتكون الأعلى، فمثلاً كن حاكماً او ثرياً، ولو بالسرقة و الظلم و سفك الدماء.

مساواة النـاس في ظـل النظـام الشـيوعي: صـحيح أن النـاس متسـاوون في المعسكر الإشتراكي، ولكنهم متساوون في الجوع، ولّما كانت تلـك النظريـة تخالف طبيعة الإنسان من وجوه عديـدة، ضـاق النـاس بهـا ذرعـاً، وعمّـت الفوضى في أوساط الدولة ومؤسسـات الإتحـاد السـوفيتي، فاضـطربت أمـام الرأسمالية الغربية وانهارت آخر المطاف، ومع ذلك فالعـالم الرأسمـالي لم يـزل يتعاظم قوة، واسـتخدمت الرأسماليـة إقتصـاد اوربـا والغـرب والعـالم، ضـد الشعوب المضطهدة والفقيرة، كي تسـتعمرها وتـتمكن مـن حيـازة ثـروات العالم، وَترتقي هي في صـناعة الأسـلحة الفتاكـة وَالـدَّمار الشـامل بـالأموال المسلوبة من الدول المضطهدة في العالم، ويُعطي بعضاً من تلـك الأسـلحة الى الدول الجاهلة، كي تدحر بعضها بعضاً، كما حدث هذا فعلاً في الدول الـتي تسـود فيهـا الفوضـى والمعارضـات السياسـية، حتـى لا تتوقـف عجـلات معاملـهم، وتظـل مُنْتِجَـةً باسـتمرار، وليـذهب النـاس الى الجحـيم، وبهـذا الأسلوب طورت الرأسمالية نفسها، وبذرت بذور الفتنة والفرقة بين شـعوب الدنيا لتحتلها أخيراً.

وَهناك شيء يثير العجب والدهشة في وقتنا الحاضر، فبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر(2001م)، قيل بأن ثلاثة آلاف شخص قد قتلوا في برجـي مركز التجارة العالمي وَ وزارة الدفاع الأمريكية، ولكنه ورد في التقرير الذي صدر أخيراً عن (مؤتمر الأرض) أن ثلاثين ألف شخص يموتون يومياً في العـالم بسبب المياه الملوَّثة، أي ما يعادل عشرة أضعاف أحـداث أيلـول(2001م)!

ويقضي مليارات من البشر حياتهم في المجاعة[1]، ويموت يومياً – بسبب الجوع – عدة آلاف من بني البشر، وتموت الآلاف بسبب الأمراض الفتاكة المنتشرة في العالم، ومع ذلك فلا أحد يتحدث عن تلك المآسي، لماذا؟ لأنهم أنفسهم المسؤولون عنها، وهم العامل الأساسي في حدوثها، ولكنهم لايرون بأساً في أن يحل بالرجل الأسود والأصفر ما يحل به، على أن يكون الرجل الغربي الأبيض ينعم بالسلامة، ويَرْفُلُ في حُلَلِها!

هذا هو النتاج المشؤوم للرأسمالية التي تسقى بماء الكفر و عبادة الدنيا وان إحدى ظواهر الرأسمالية الوحشية هي (الربا والإحتكار) المعمولة بهما حالياً، من قبل الدول الرأسمالية –بلا رحمة – ضد الشعوب الفقيرة، يَمْتَصُّون بذلك دماءهم، ويبنون قصور اضطهادهم رويداً رويداً بأسلوب مبرمج لدحر الشعوب المُعْدِمَة، وجعلوهما سلاحهم الوحيد، وَورقتهم الرابحة، لإثراء أنفسهم، وممارسة الضغوط على مقابلهم وإفقارهم والإِفلاس بهم.

وهنا أجد من دواعي الإنصاف ان أُشير الى أن المعسكر الشرقي والأنظمة الإِشتراكية لم تظهر الى الوجود، الا كردّ فعل للظلم الذي كانت تمارسه الرأسمالية والليبرالية بلا رحمة وبلا ضمير، وذلك للدفاع عن طبقة الفقراء والمعدمين والمضطهدين، وخلق العقبات أمام قسوة الرأسمالية وسيلها الهادر، وفعلاً تمكنت الإشتراكية والمعسكر الشرقي الى حد ما، أن تقلِّل من

(1) لاشك ان الملايين يموتون جوعاً في ظل الأنظمة الرأسمالية، بسبب الفقر وسوء التغذية، وخصوصاً في دول أفريقيا، وأخص من ذلك بالذكر أطفال العالم، فهم محرومون، يُحدّق بهم شبح الموت في كثير من بقاع العالم.

الضغوط التي شكلتها الرأسمالية، بل وأَرغمتها على مراجعة نفسها من وجوه مختلفة، وعادت تلك المراجعة بنفع الطبقة العاملة والمضطهدة!

ولكن الذي يُثير العجب، أنه بعد الإطاحة بالمعسكر الإشتراكي لم يعد الماركسيون والشيوعيون الأَقْحاح يجرؤون حتى على الإشارة الى محاسن الإشتراكية! وهذا بطبيعة الحال يعود الى ضغوط الرأسمالية، والخوف من غضب الأسياد الغربيين وخصوصاً الأمريكيين منهم.

ويبدو لي أن هذا الموقف – علاوة على افتقاده للجرأة – فإنه نوع من عدم الوفاء، والإستسلام المُشين أمام أمريكا والعالم الرأسمالي، الذي كان حتى الأمس القريب، لو شُمَّت من أحدٍ رائحة تلك الدول، لكان يتنفر منه ويلقى في زاوية الإهمال!

وأما من الناحية الإجتماعية، فالمجتمعات الغربية في ظل العلمانية التي لاتضع أي اعتبار لله والدين واليوم الآخر، تعيش فيها الأسرة حالة من التفكك والضياع، فالأخلاق منهارة تماماً، وقلّما وجِدَ ما يسمى شرفاً أوحياءً أوغيرة، لهذا تجد الأمراض العقلية والنفسية والإجتماعية تنخرفيهم وتتفاقم بينهم، نعم فالكثير من الأوربيين مرضى، لهم أطباء خصوصيون يَعْرِضون عليهم أنفسهم بين آونة وأخرى، بسبب الإضطرابات النفسية والروحية التي يعيشون فيها، إضافة الى الأمراض الجسدية كالإيدز والزهري والسيلان، كل ذلك بسبب غياب دور الدين في أوساطهم.

وأما الناحية العلمية، فلاشك أن العلم بلغ شأواً هائلاً من الرقي والتقدم، وربما كانت الإنسانية اليوم في أوج تقدمها العلمي، ولست أدري هل سيستمر العلم في الإرتقاء والتطور، أم سينحدر الى الأَسفل، ولكن الأهم من ذلك أن نعلم: هل أن نتاج العلم في عصر العلمانية وفي ظل نبذ الدين،

في خدمة الإنسانية أم ضدها؟ وَهَلُمَّ نلقي نظرةً الى ما تنتجه المعامل الصناعية في أوروبا وأمريكا، فمثلاً تتكرر الدعوات الموجهة الى أمريكا لتخفيض إنتاجها من الأَسلحة وَالمتفجرات، لأَن خبراء البيئة يقولون: إنَّ (33٪ أو 36٪) من بيئة العالم تلوِّثها أمريكا، مما يعود تأثيرها سلباً على البيئة وَالناحية الإجتماعية أيضاً، ومع ذلك فلا تلتفت أمريكا لتلك الدعوات، وَالواقع المعاين أن أكثرية إنتاج معاملها يختص بالحروب والأسلحة والمتفجرات، ولا تُخَفِّضُ أمريكا إنتاجَها بسبب الأَرباح الهائلة التي تجنيها من ذلك، ولا يهمها بعد ذلك أن تتلوث البيئة في العالم، أو أن تنثقب طبقة الأوزون فتذوب ثلوج القطبين، وَتتكون السيول الجارفة. ليس هذا مهماً أبداً، بل المهم ان تَزداد ثروةُ أمريكا وسلطتُها، هذه هي نتاجات العلم في زمن العلمانية، والتي تُهمل فيها المصالح الإنسانية، ولا يؤبه بالهواء والمياه والبيئة، وتَعَرُّض الحيوانات في البر والجو الى الإبادة، حتى أن بعض خبراء الأحياء والبيئة ليقولون: أوقفوا هذا التلويث للبيئة، وإلا فسنكون عُرضة للإنقراض كما انقرضت الدِّيناصورات، ولا أحد يستجيب لتلك النداءات، من الذين يُلوِّثون الدنيا بقذارات معاملهم!

الفصل الرابـع

هل العلمانيـة حـالة مبَّررة، أو يمكن أن تجد لهـا موطيء قَـدَمٍ بـين أُمة تعتبـر نفسـها مسـلمة ؟!

إن اللادينية أوْ الدنيوية (العلمانية) – كما مرّ معنـا آنفـاً – انبثقـت مـن الغرب، كقيح وصديد خرج من أجساد أناس لادينيين مرضـى ثـم وصـلت إلينا، (فالعلمانية) دواء لأدواء غيرنا، وزبد جُفاء لبحـر الخيـالات وأضـغاث الأحلام التي كان يتمسك بها الذين أشرفوا على الغـرق والهـلاك، وماكـان ذلك ليُنقذ أحداً من الغرق، لهذا فلـيس ثَمَّ وشـيجة بيننـا وبـين العلمانيـة، ولكن الأوربيون –كما قلنا– كانوا مضطرين أن يلوذوا بالعلمانية ويتبعوها، بسبب تحريف الدين وظهور طبقة الكهنوت ورجـال الـدين الّـذين أحـدثوا بدعاً وخرافات ومساويء لا تحصى، وهكذا اضطر الناس لنبذ المسيحية، أما في الإسلام، فلا يوجد مسوّغ للناس لتركه والتوجه الى اللادينية، فلا توجـد عندنا – نحن المسلمين – مثل تلك المشـاكل الـتي عـانى منهـا الغربيـون، في نصوص ديننا ومنهجنا، لأن لنا قرآنـاً تكفـل الله تعـالى بحفظـه، كمـا يقـول سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر–9) والعلماء كلهم مجمعون على أنه: لم يُغيَّر في القرآن ولو حرفٌ واحـدٌ، وذلـك لأن الله بعـث بهذا القرآن الى الإنسانية جمعاء، وطالما بقـي الإنسـان علـى سـطح الأرض، فهو في حاجة الى هداية الله تعالى، والقرآن هداية للإنسانية، فيجب أن يظـل محفوظاً سالماً وكذلك كان، وعندنا سنة نبينا ﷺ، وقد أريد تشـويهها منـذ البداية، فوضعت أحاديـث علـى لسـان نبينـا محمـد ﷺ ، ولكـن فطاحـل الإسلام وجهابذته – والحمد لله– شـمَّروا عن ساعد الجِدِّ، فوضعـوا السـنة

في غربال التحقيق وَالتمحيص، وَميّـزوا الصـحيح مـن غـيره، فمـا قالـه الله تعالى، وما قاله وفعله الرسـول ﷺ، كـل ذلـك في متنـاول أيـدينا بصـورة منتظمة، فنصوص الإسلام مختلفة أشد الإختلاف عن الإِنجيل، الذي نـزل الى عيسى عليه السلام، فلم يَبْق أثر للإِنجيل، بـل تحـول الى سـبعين إِنجـيلاً، ثـم اختاروا من بينها – حسب أهوائهم – أربعة منها، ولكن قرآننا قرآن واحـد محفوظ منزّه عن العبث، أما الأناجيل الحالية، فكـم منهـا قـول الله سـبحانه؟ وكم منها قول عيسى (عليه السلام)؟ وكم منها مُختَلَقٌ وكذب؟ مع أن مـن المستبعد أن يكون شيء من كلام الله باقياً فيها، فالحيرة تكتنف قارِئَهـا مـاذا يصدّق من بينها؟

وَأما من الناحية العقَدية، فديننا لم تتغير فيه عقيدة ولا شريعة، نعـم هنـاك أُناس انحرفوا، فهؤلاء هم الـذين تغـيروا، والاّ فالأصـل محفـوظ علـى حالـه، فالقرآن والسنة والعقيدة والشريعة كلـها، ترفـل بـالحفظ وَالصَّـوْن، وأئمـة الإسلام الأعـلام، أطهـار أبْـرار لم يحيـدوا عـن الطريـق، فالـذي يريـد دينـاً مستقيماً خالصاً، فدونه القرآن وَالسنة، تنعمان بالحفظ وَالسـلامة، وليسـت عليهمـا ذرة مـن غبـار، والـذي يـدعو الى الأسـف، ان كـثيراً مـن مثقفينـا وَدارسينا، ينظرون الى القرآن والسنة، بمنظار الرجل الأوربـي، الـذي ينظـر الى الإنجيل والتوراة المشحونتين بالبدع والخرافات والأشياء التافهة والمخالفة للعقل وَطبيعة الحياة والإنسان، نعم قـد ينظـر الـبعض مـن الكـرد والعـرب وَغيرهم الى القرآن والسنة، بهـذه النظـرة، في حـين أنهمـا مليئـان بـالعلوم والأخبار والأحداث والحقائق العجيبـة، وبالقصـص التاريخيـة المهمـة والعـبر النافعة، كمحيط لاقعـر لـه يغـصّ بـالجواهر واللآلـيء، فـالعلوم الكامنـة في القرآن والسنة، حقاً تجلّ عن الحصر، فهمـا منهـاج الحيـاة الإنسـانية، ومـع

ذلك يأتي البعض لِيُصْدِرَ أحكاما، بلا تثبت على آخر دين وشريعة أنزلها الله تعالى للبشرية، دون بحث أو فهم أو دراسة معمقة عقلية وعلمية، ليتبيّن له بجلاء أنَّه لا مقارنة بين أيِّ كتاب و دين آخر، سواء كان سماوياً محرَّفا أو أرضياً مُختَلقاً، وبين الإسلام، والفرق بينهما كالفرق بين السماء والأرض، فالعقيدة والتوحيد محفوظان في الإسلام، فالمعبود هو الله تعالى دون غيره، وَمحمد ﷺ عبدالله ونبيه المرسل وليس معبوداً.

يقول المسلمون عنه في صلواتهم: (أشهد ان لا إله الاّ الله، وَأَشهدُ أن محمداً عبده ورسوله) ورسولنا محمد ﷺ كان يكرر هذا بنفسه وَيؤكد عليه قائلاً: ((لاتُطْروني كما أَطْرَتِ النصارى ابن مريم، انما أنا عبدالله ورسوله)) (رواه البخاري)[1].

وفيما يخص الإهتمام بالعلم والعقل واحترامهما، فليس عندنا من هذه الناحية أي إشكال، نهتم بالعقل والعلم ونُكِنُّ لهما الحب والإحترام، وعلى العكس، فنحن مشكلتنا مع الجهل وليس مع العلم والعقل، والإسلام يشجعنا على استحصال العلوم والسير قُدُماً بالعلم وَالعقل، كما ان الله تعالى أنزل قرآنه الى رجل أميّ، ولكنه بدأه بـ**﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾** (العلق-1) وختمه باسم الناس، كما جاء ذلك في آخر آية من القرآن: **﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾** لأن هذا القرآن أُنزل الى أهل الأرض قاطبة، ليفقهوه، ويجعلوه منهاج حياتهم ويعملوا بما فيه، وقد تكررت لفظة العلم في القرآن الكريم (750) مرة، دلالة على عظم أهمية العلم، وتكررت لفظة العقل

(1) وكانت هذه دعوة عيسى، و سائر الأنبياء أيضاً كانوا يقولون لأقوامهم: ياقومنا نحن عباد الله أرسلنا اليكم لنهديكم الصراط المستقيم، فهلموا اتبعونا ليرضى عنكم الله وتنجو من العذاب، فمثلاً كان نبينا محمد ﷺ يقول: (إنما أنا بشر مثلكم يوحى اليَّ....) (فصلت -6).

والفكر أكثر من (50) مرة، وخص الله تعالى كتابه بالعقلاء فقال ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص-29). فالإسلام ليس لا يضع العراقيل والعوائق أمام تقدم العلم فحسب، بل إنَّه يشجع الإنسان مراراً وتكراراً على التقدم العلمي، فمثلاً يقول عز من قائل ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسان إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس-24)، فلينظر الإنسان الى طعامه، كيف هو؟ ومِّماذا خلق؟ وما مدى أهميته وَنفعه؟ ويقول: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ﴾(الطارق-5)، ويقول أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ﴾ (الاعراف -185) فالأوربيون عندما تركوا الخرافات وأساطير الكنيسة التي كانوا يسمونها دين المسيح، هنالك تخلصوا من الجهل الذي كانوا غارقين فيه، وسعدوا بلقاء العلم والعقل والتقدم، ولكن المسلمين لم يسعدوا بالعلم الا عندما التزموا بالقرآن والسنة، وعندما ابتعدوا من القرآن والسنة، توجَّهوا الى الخرافات والأساطير، فنحن في الإسلام لا يوجد عندنا رجال الدين، بل عندنا علماء الدين وعلماء الإسلام، عندنا أئمة الإسلام، ولكن ليس لهؤلاء امتياز او خصوصيات من دون الناس، الا أنهم أعلم من الناس وأعرف بالدين منهم، وعلى ذلك يجب أن يكونوا أفضل من الناس وَأكثر خوفاً من الله، والاّ فَلَم يُخَصُّوا دون الناس بأية درجة او مرتبة. كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات-13) وما عدا التقوى، فليس في الإسلام تمييز بين الأجناس والألوان، بين الأقوام والقبائل، وبين الناس عموماً، فكلهم مخلوقون لعبادة الله تعالى كما يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات-56) ولذلك فالإسلام من الناحية السياسية والإجتماعية والفكرية والإقتصادية..الخ لايعطي الحق لأَيِّ عالم أو إمام ألاّ يَعمل بآية أو حديث، أو أن يقول إن ذلك الحديث لا

يشملني، أو أن يتصرف فيه، أو أن يقوم بما يخالف الكتاب والسنة، كما كان رجال الدين في النصرانية يتصرفون في النصوص وفق رغباتهم، لأن مسألة عدم التصرف في النصوص مسألة محسومة، وهو أمر لا مجال فيه في الإسلام، واذا ماصدر ذلك من أحد اعتبر كافراً، وذلك لأنه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ (النساء–122) ومن كان في الإسلام أعلم من غيره، فعليه أن يكون أكثر التزاماً بالقرآن والسنة، وليس من أحد أبداً فوق الدين و دستورالله تعالى.

وبعد ذلك فالإسلام ليس عاجزاً عن إدارة الحياة كالدين المسيحي المحرف وفي الحقيقة ان الأوربيين كانوا بحاجة ملحة الى شريعة حقيقية يَستعينون بها في إدارة حياتهم، والإنجيل المحرَّف يُغصُّ بالخرافات والأساطير، مما يُعجِزه أن يَقُود إدارة أمور الناس، والمشاكل السياسة والإجتماعية والإقتصادية..الخ، لا تجد لها حلاً في الإنجيل، ومع أن فيها من الناحية الأخلاقية بعض المحاسن، الا انه يوجد فيها من جهة أخرى كثير من الأخطاء، فما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام، حرفه اليهود والنصارى، وأضافوا إليه كثيراً من تفاهاتهم وتصرفوا فيه، فعيسى جاء مصدقاً منهج موسى، كما يقول تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾(آل عمران– 50)، ولأن الإنجيل والتوراة مكملتان لبعضهما، وفي عهد هما كانت الحياة تسير بهداهما، ولكنهما حرفتا وتصرِّف في مضمونيهما، وخصوصاً الإنجيل الذي كان مقتصراً على المواعظ الإجتماعية والروحية والأَخلاقية، ومعلوم ان الحياة لا تسير شؤونها ولا تنظم بهذه الأَشياء فقط، فرسالات الله وكتبه تأتي لترتيب أمور الحياة في المجتمع الإنساني من سائر الوجوه.

لذلك فنحن المسلمون ليست لدينا معاناة من هذه الجهة، اذ ان قرآننا يتضمن كل ما يهمنا، من الطهارة حتى الحرب والسلم والسياسة والإقتصاد وعقد الرابطة بين الشعب والدولة، وتعامل الإنسان مع الفرد والمجتمع، ومع الأسرة والأقارب، مع الخارج والداخل، مع الصديق والعدو، مع المحسن والمسيء، إذ كتاب الله المنزّه من كل نقص وعيب، أوضح لنا كل ذلك بوضوح مابعده وضوح، وسنة النبي ﷺ قد جسدت لنا كل ذلك بالتطبيق العملي، فمن عرف هذا فقد أحسن وأجاد، ومن جهله فهو الملام على تقصيره، لِذا فالذي يقول: ليس في الدين سياسة وحكم، أو قضايا الإقتصاد وكذا وكذا، فهذا إمّا أنَّه لم يفهم القرآن، فهو جاهل به، أو أنه عدو للإسلام حانق عليه، والاّ فأنت عندما تدرس القرآن دراسة جيدة، يثبت لك بطلان مثل هذه المزاعم! وان مماّ يدعو الى الإنتباه ان الدولة التي قامت على أساس الشريعة والقرآن، منذ اليوم الذي وضع حجر الأساس لها محمد ﷺ في المدينة والى اليوم الذي أُطيح بها بتخطيط من الإمبريالية العالمية على يد (أَتاتورك)(1) العلماني سنة (1924) استغرقت (13) قرناً، فأيّ دولة في التاريخ عمرت هذا العمر المديد. واستطاعت ان تقف بوجه تلك المشاكل المستعصية، وأن تصد تلك الحشود من الأعداء والمعارضين، كالتتر والمغول والمنافقين في الداخل، نعم هذا هو الإسلام، كان أساسه متيناً الى حد استطاع أن يقود دولة ثلاثة عشر قرناً، وسط كل تلك الصعوبات والمعضلات، ورغم وجود التقصير والإنحراف من جانب المسلمين أنفسهم، الا أن ثبات تلك الدولة بوجه المصاعب، كان آية من العجب.

---

(1) أتاتورك معناه بالتركية (أبو الأتراك) ولد في سالونيك سنة (1881) وأُطيحت بالخلافة على يده سنة (1924) بإيعاز الدول العظمى، مؤسس الدولة التركية الحديثة، طرد الجيوش اليونانية سنة (1920) ومات سنة (1938)، كان عديم الأخلاق عدواً لله.

لذلك كله نقول: ان الإسلام قادر علـى حـل جميـع المشـاكل الإجتماعيـة والسياسية والإقتصادية والثقافية والوطنية والعسكرية.. الخ شريطة أن نكون عاملين بالقرآن والسنة لا نحيد عن هـديهما، لأَن في ذينـك المصـدرين حلـول جميع المشاكل والعقد المُسْتَعْصـية في هـذه الحيـاة[1]، وهـذا أمـر لا يحتـاج الى برهنة، لأن الإسلام شريعة منبثقة من رحمة الله وحكمتـه وعلمـه اللامتنـاهي، تقوى على كل ذلك، لأَنها شريعة جاءت حتـى يعمـل بهـا وتغـدو دسـتوراً ومنهاجاً للحياة من كل الوجوه، ورغم هذا، فهناك من يظّن أنه اذا توجه الى الإسلام والتزم به، وقفت عجلة الحياة، وضاقت المعيشـة، ورجـع النـاس الى الوراء وتوقفت الصناعة وَالتكنولوجيا! وهذا تصـور خـاطئ، ولـيس الأمـر كذلك، نعم ان المسلمين قد تخلّفوا مـن الناحيـة العلميـة والتقنيـة العصـرية، وهذا بسبب تخلفهم عن دينهم، لأَنهم لو ساروا على هَـدْي ديـنهم لرافقـوا مسار العلم، وما كانوا لِيُفَرِّطوا في الصناعة وحيازة التقنيات الحديثـة، ورغـم ذلك فهم متقدمون من نواحٍ كثيرة، فتخلّف المسلمين –كما قلنا– عن ركب العلـم والتكنولوجيـا، هـو بسـبب تخلفهـم عـن ديـنهم، وإلاّ فعنـدما كـان المسلمون ملتزمين بدينهم، كانوا قد سبقوا أوربا بمراحل، كما يتضـح ذلـك من تاريخ المدنية الإسلامية ومن متاحف العالم أيضـاً، يقـول الـدكتور (علـي شريعتي) بهذا الصَّدد:

كان الأوربيون عندما يصنعون شيئاً، يختمونه بكلمة (الله) الذي كان ختم العالم الإسلامي آنذاك، كي يروّجوا بـذلك لبضـائعهم، ويُظـن أَنَّهـا بضـاعة إِسـلامية، وسـبب ذلـك كـان كامنـاً في التقـدم الحاصـل في صـناعة العـالم

[1] ـ ولكن هذه الحلول ليست جاهزة لاتكلِّفنا جهداً و اجتهاداً! بل هي موجودة في الوحيين المعصومين بالقوّة، وعلى المسلمين استنباطها منهما وتحضيرها بالقوّة.

الإسلامي، كما أَن الصناعات الأوربية المتقدمة بهذه الصورة التي نراها اليوم، تختمُ بأختام الدول المعروفة صناعياً، فإِذا قيل ان البضاعة أمريكية أو إِنكليزية مثلاً لقيت رواجاً!

ويُقال ان (هارون رشيد) بعث بساعة رملية الى أحد قياصرة الرّوم، وكانت تعمل وتتحرك من تلقاء نفسها، فأثارت الساعة دهشة القيصر، فجمع بعض العلماء والخبراء ممن حوله، لينظرواكيف ان هذه الساعة تعمل من تلقاء نفسها، لأن ذلك كان شيئاً غريباً عندهم، وكان آخر رأيهم ان قالوا:

لاشك إن جنياً أو روحاً خبيثة وضعت في هذه الساعة، وإلاّ لما تحركت هكذا!

فخلاصة الكلام: ان العلمانية (اللادينية) ليست لها موطيء قدم في العالم الإسلامي، ولا ينبغي للمسلم الإلتجاء اليها تحت أية مسوغات أو ذرائع، لأَن المسلم في غنىً عن كل الطرائق والسبل، بفضل قرآنه وسنة نبيه ﷺ وشريعة ربه المعصومة عن الخطأ والزلل.

وأرى في ختام هذا الحديث أن أتعرّض الى ذكر ثلاث حقائق:

الأُولى: إن أَخْذَ العادات والتقاليد، وهيئة الملابس والثياب والمظاهر الأخرى من أي أُمة على أساس التقليد، دون معرفة الحكمة و الفلسفة من ذلك، تخلُّفٌ كبير: فمثلاً: الذي يلبس (الكاوبوي) او يطوّل الخنافس، او يحلق رأسه بصورة تثير الإنتباه، أو يقوم بأي عمل غريب عن عاداتنا وتقاليدنا، ربما تكون لتلك الأَشياء حكمتها وأسبابها في أماكنها الأصلية، أما أن تقلده أنت ها هنا دون سابق معرفة، فالحقيقة ان هذا محض جهل، سواء

فعل ذلك الرجال أم النساء، المثقفون أم الأُميون، لاسيما ونحن نقول بأننا نعاني من عدم التمتع بالكيان السياسي، إذاً: فلماذا نضيّع خصوصياتنا القومية و نجرد أنفسنا منها؟

الذين وقعوا تحت تأثير الثقافة والسياسة الغربية، تراهم إرضاءاً لهم وتزلُّفاً اليهم، يأخذون منهم المناهج ويضعون الدين و مصالحهم جانباً، ولئن كان التقليد في مجال العرف وَالعادة خطأً، فإِنَّ الأخطر من ذلك ان نأخذ الأفكار والثقافات والتصورات وَالنظريات، التي جادت بها أيادي الذين ما فتئوا أعداءً لديننا وأمتنا وعاداتنا وتقاليدنا، لاريب ان هذا خطأ أعظم وخطر أشد، لأن ذلك معناه الحياد عن طريق الله عز وجل، وذلك هو الذنب الأكبر يقول تعالى: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾** (الجاثية– 18) فإذا كان الأوربيون كما قلنا سابقاً – لم يكن لهم دين صحيح يتبعوه، ويجعلوه بلسماً لحياتهم، فالتجئوا الى كل ما من شأنه أن يغيثهم من الهلاك، كالغريق الذي يتشبث بكل حشيشة، فتشبثوا بالعلمانية، فالتزموها ليتخلّصوا من محرقة المسيحية المهلكة، فما بالك أنت أيها المسلم؟ أليس دونك هذا الصراط المستقيم، والطريق الأبلج، أيكون في حوزتك أنجع الأدوية، ثم تعيش وسط الداء، كما يقول المثل الكردي: «كان بيتهم مملوءاً بـ(رازيانة)* وطفله يموت من وجع البطن» فالذنب – في هذة الحالة – ذنبك، لأَنك حِدْتَ عن شريعة الله تعالى.

الثانية: لنأخذ العبرة من غيرنا، من العرب والترك والفرس:

* نبتة تستعمل كدواء لوجع البطن.

فالعرب – مثلاً – ظلوا أعزة أصحاب هيبة وسلطة وَصِيْتٍ، عندما كانوا متمسكين بدينهم، ولكنهم عندما أعرضوا عنه، وقعوا في الأدواء والفتن، والأتراك عندما كانت عندهم الخلافة الإسلامية، كانوا أصحاب سلطة وقوة ومنعة، وشعوب العالم كانت في حاجة اليهم، وكانوا جريئين في دفاعهم عن الإسلام، ولكنهم عندما اتبعوا منهج (أتاتورك) والعلمانية، وصلوا الى مستنقعهم الذي يعيشون فيه اليوم.

في سنة (1996) ذهبت الى (أسطنبول) وعقدتُ لقاءاً صحفياً مع مجموعة من الصحفيين، سألني أحدهم: هل ذهبت الى (طوب قابي) موقع آثار السلاطين العثمانية؟

قلت: نعم، وانقدحت في ذهني ملاحظة مهمة، إذ جعلت أقارن بين تركيا الحديثة في ظل العلمانية، وتركيا الأمس في ظل الخلافة العثمانية، قالوا: ماذا تقصد؟

فقلت: لقد أصبحت تركيا اليوم في ظل العلمانية، ذيلاً للغربيين بل تكاد لا تُقبَل حتى ذيلاً، ولاتُقبَلُ بألف رجاء والتماس في السوق الأوربية المشتركة، أما أيام الخلافة، فكانت ملوك أوربا وقياصرتها يتمنون ان يَحْظّوْا بلقاء السلاطين العثمانيين، لأن تركيا في ظل الخلافة الإسلامية كانت قائدة المسيرة ومحوراً يرجع الناس اليها، كان رأسها أشماً في العلالي، واليوم سويت مع الأرض فلا يعمل لها حساب.

قال الصحفيون في ختام اللقاء: نحن لا نستطيع ان ننشر هذا، قلت لهم: على كل حال هذه ملاحظاتي وتصوراتي عن تركيا وهي حقائق واضحة، وانتم أحرار أن تنشروها أو لا تنشروها.

ثم كيف كان الإيرانيون في عهد رضاه شاه وابنه محمد؟ وكيف أصبحوا عندما قامت ثورة إِسلامية بينهم، بالرغم من صبغتها الطائفية مع الأسف.

اختلف الوضع كثيـراً، وحدثت تغيرات عجيبة في كل مناحي الحياة.

فإيران اليوم صاحبة سياسـاتها[1] ومواقفهـا المستقلة، وصـاحبة منجـزات مهمة حضارياً، فهي في المجال السياسي – مثلاً – تستطيع أن تقـول لأكـبر قوة في العالم: لا، أما الشـاه فكـان يسـمّى شـرطي المرور الأمريكـي، كمـا يقولون اليوم لـ(توني بليـر) وزير الخارجية الأمريكـي، وانظـروا الى العـرب وهم أكثر من (200) مليون نسـمة، كيـف بـاتوا أذلـة في أيـدي الغـرب، ولذلك قال أحد وزراء الخارجية في دولة عربيـة، نحـن اليـوم عـاجزون، ولا نستطيع أن نقول الاّ كلمة (لا حـول ولا قـوة الا بـالله) ولا نسـتطيع فعـل شيء آخر... وهذا غاية الذلة والإضطهاد في ظل الأنظمة القومية والعلمانية والعجيب من أمر الأخوة العرب في هذا العصر، هو لهجهـم بـذكر القوميـة العربية، مع أنهم لا يُعانون بإستثناء الشعب الفلسطيني المظلوم، من مشـكلة تقرير المصير كالشعب الكردي المضطهد. وهـذا في الوقـت الـذي يحسـبون أنفسهم مادة الإسلام – وكانوا كذلك حقاً– إذاً: لِمَ لا يركِّزون على ذكـر ما يفتقدونه في واقع حيـاتهم السياسـي والحضـاري، وهـو تمثّـل الإِسـلام و تجسيد قِيَمِهِ الفكرية والثقافية والسياسية والحضارية؟! إذ هـم بهـذا الطريـق وحده يستعيدون مجدهم الغابر، و دورهم العظيم في خدمة الأمـة الإسـلامية والإنسانية جمعاء!

[1] - ولكن في السنوات الأخيرة غَلَبَ على سياسة إيران الخارجية الطابع الطائفي، مثلها في ذلك مثل سياستها الداخلية منذ بداية الثورة، تجاه أهل السنة والأقليات القومية كالكورد والتركمان ...الخ.

والحقيقة الثالثة التي سأختتم بها هذا الحديث:

هي أنني أقول بصراحة دون مواربة:

أن العلمانية هي اللادينية التي لا يمكن أن يوجد لها موطيء قدم في شرع الله تعالى، بل من اللادينية أن نقول: إن العلمانية له موقع في الدين، أو يمكن أن ينسجم مع الدين! فالعلمانية -خصوصاً في معناها الشمولي الحقيقي- كما عرضنا ذلك مراراً، لا تَحْسِب حساباً لله والنبي والدين واليوم الآخر والجنة والنار أصلاً، ولا شك ان هذه الأشياء تعتبر من أصل الدين، بل ان الدين نفسه متكون من هذه الأصول، وهذا لا نخشى لومة أحد، ونحن نَعْرِضُ هذه الحقيقة الواضحة، فنحن لا نخادع قومنا، ولا نَلْبِسُ عليهم، رضي بذلك من رضي وسخط من سخط، فنحن نقول الحقيقة، ولم نَعِدْ أحداً على كتمان الحقيقة! ولم نتعهد بالإمساك عما يغضب الناس، ولكن لا نقول أنَّ كل من كان علمانياً أو تَسَمَّى بالعلمانية خرج من الدين، لأن المُتَسمِّين بالعلمانية على قسمين: قسم فهموا العلمانية على حقيقتها واتخذوها مبدءً وفكرة، وهم يعرفون ما هي العلمانية، وما تقولها، وما تريدها، ولماذا يتبعونها؟ وان شخصاً كهذا معلوم انه قطع الروابط بينه وبين الدين، وقسم آخر، يتبعون العلمانية على عمىً دون دراسة أو فهم لحقيقتها وكنهها، تماماً كتقليده للغربيين في الثياب والعادات الأخرى، دون فهم لحكمتها وسببها، فهنا أيضاً يقول: العلمانية شيء جيد، والعولمة كلها خير وبركة، دون أن يعلم حقيقة أين خيرها وبركتها، وما هي حقيقتها والمغزى منها! ومثل هؤلاء يختلف حكمهم، وقد يغض الطرف عنهم حتى تقام عليهم

الحجة وتقطع معاذيرهم، فعلماء الإسلام مُجمِعُون على ان الحكم بالكفر على المسلم أو من كان في ظاهره مسلماً، يتوقف على ثبوت الشروط وانتفاء الموانع، ولذلك يقولون: قد يكون قول الرجل وفعله كفراً، ولا يكون هو كافراً.

وشروط التكفير، هي هذه الثلاثة:

1- البلوغ

2- العقل

3- وصول البلاغ المبين، أو إقامة الحُجّة عليه.

وموانع التكفير، هي هذه الستة:

1- العَجْز

2- الجهل

3- الخطأ

4- التأويل

5- الإِكراه

6- التقليد

وفي كيفية تطبيق هذه القاعدة (ثبوت الشروط و انتفاء الموانع) على الأفراد والمجموعات التي يظهر منهم الكفر والشرك، تفاصيل كثيرة، لامجال لذكرها هنا، ومخلّص القول: أَنَّ إِعمال هذه القاعدة وظيفة العلماء المختصِّين، ولايجوز لكل من هبَّ و دبَّ، أن يصدر الحكم بالكفر والشرك على الناس.

وعلى هامش قولنا: ليس كل العلمانيين لهم حكم واحد، سأسرد هذه القصة: في بداية انتفاضة شعب كردستان عام (1991)، حكى لي أحد إِخوتنا قائلاً: بعد الإنتفاضة لقيت أحد البيشمركه، وكان قد انتمى الى الحزب الشيوعي، وهو من أقاربي، فقلت له يافلان! أين أصبحت، ولماذا لا

أراك في هذه الأيام؟! فقال: اذا منَّ الله عليّ بـالقبول، أنـا الآن مـع الحـزب الشيوعي!!

فإِذا كان هناك من فهم العلمانية كما فهم هذا الغافل، فهؤلاء لهـم حكـم آخرَ، ويجب ان يُفَهَّموا وتوضَّح لهم الأمور، وألاّ ينتظروا أبـداً ان يتقبـل الله منهم العصيان بالطاعة! إذ كيف يكون الإنسان مع الهازلين بالدين والحاقدين عليه، ثم يحسب له أعمالُه طاعات وعبادات! هذا لعمر الحق هـو المسـتحيل بعينه، بل لا تقبل مثل هذا حتى الأديان والنظريات البشرية، فكيـف بمـنهج الله العظيم خالق الوجود والكائنات!!

سُبحانَ ربِّكَ ربِّ العِزَّةِ عمّا يَصفون* وسَلامٌ على المُرسلين*
والحمدُلله ربِّ العالَمين*

الحلقة السادسة

الديمقراطية
في ضوء العقل والشّرع

هـذه الرسـالة

أيهـا القارئ العزيز!

هذه الرسالة – كسابقاتها – كانت في الأصل محاضـرة ألقيـت في نـدوة عقدت بمدينة السّليمانية، بقاعة (الثقافة) في (23/ شـعبان 1423) الموافـق لـ(2002/10/29) تحت عنوان (الديمقراطية في ضوء العقل والشرع) ثـم أفرغها بعض إخوتنا من الشريط الصوتي، وراجعتها بنفسي، وقد أَثبتها كما هي، سوى بعض التغييرات اليسيرة التي اقتضاها أسلوب الكتابة، ولحساسـية الموضوع والجدال القائم حوله، رأينا من المناسب أن نضم الى هذه الرسـالة، الحلقتين اللتين سُجِّلتا في برنامج (التَقَصِّي) بعنوان (الديمقراطية والإسـتبداد، والموقف الإسلامي)، حتى يتم تسـليط الضـوء علـى المواضـيع الـتي لم يـتح ذكرها في هذه الرسالة، فَتُضاف خلال هاتين الحلقتين.

اللهم أجِزْل المثوبـة لكـل مـن سـاعدني في إنجـاز هـذا العمـل، واجعـل ماتضمنَّـتْهُ هذه الرسالة، سبباً لهداية الذين يبحثون عن الحق، وان يثوبـوا الى الحق أينما وجدوه، ويستقبلوه و يُكْرِموا وفادته.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وَالصلاة والسلام على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه اجمعين:

أيها الحضور الأكارم !

محاضرتنا في هذه الأمسية، كما قدم لها الأستاذ، مكرَّسة للديمقراطية والمواضيع المتعلقة بها، فنحن كما يظهر من عنوان المحاضرة، نريد أن نسلّط ضوء العقل والشرع على الديمقراطية، وأنْ نَعْرفها كما هي في الواقع، وأن نقيّمها بميزان الشرع، ونحن كالجماهير الكردية في إقليم كردستان، نسير نحو تغيّرات كبيرة، لذلك فمن المناسب في مثل هذه الظروف الحرجة، أن نبذل جهودنا جميعاً، وأن نسعى جاهدين لتوحيد تصوراتنا ومواقفنا حول المسائل والقضايا السائدة التي تؤثر على مصير شعبنا.

ونحن كإسلاميين، بعد التحقيق الدقيق والبحث العميق في دين الله ومنهاجه القويم من كل النواحي، تبيّنت لنا حقيقة الإسلام وشريعته المعصومة، ونقول واثقين بملء أفواهنا:

ليس في الإسلام – البتة – شيء يَتناقض مع العقل والفطرة، أو يتصادم مع المصالح الحقيقية للفرد والمجتمع.

وعلى أساس نصحنا لقومنا و شفقتنا على مستقبله، نعلن موقفنا وتصورنا بصراحة وبلا مواربة، حَول أي موضوع أو مسألة ذات شأن، يرتبط به مصير الناس.

ومن القضايا التي تثار بشدة في هذه الأيام هي قضية (الديمقراطية) وهنـاك حول هذا الموضوع عموماً، ثلاثة اتجاهات ومواقف:

1/ قبول الديمقراطية بعُجَرها وبُجَرها، وخيرها وشرها، وهي تمثل عند أرباب هذا الإتِجاه، النور الذي لاظلمة فيه، والحل الذي لايرتضون غيره.

2/ وأناس على النقيض تماماً مع الموقف الأول، يقولون: إنَّ الديمقراطية شـر لاخير فيه، وهي ظلمات بعضها فوق بعض، وسراب لايروي ظامئاً.

3/ وأما الموقف الثالث، فيجنح الى التفصيل قائلاً:

الديمقراطية نظرية وتجربة بشرية في مجال الحكـم، فيهـا إيجابيـات وسـلبيات، ولايصح قبولها، أو رفضها مطلقاً! ونحن نميل الى هذا الرأي.

وسنقيِّم الديمقراطية خلال بحثنا هذا، ونضعها في الغربال، لنميّز قَضَّهُ مـن قضيضه.

وسنناقش الموضوع من خلال هذه الفصول الخمسة:

الأول: تعريف الديمقراطية وأصولها العامة.

الثاني: تأريخها، ومتى وكيف وأين ظهرت؟!

الثالث: مشاهدة الديقراطية بمنظار العقل.

الرابع: تقييمها بميزان الشرع.

الخامس: الإِستنتاج.

وعليَّ أن أقول ابتداءً:

نحن لو أردنا إِيفاء هذه الفصول حقها، لطال بنا المقام، لذا وجَبَ أَن نُعْلِمَ الجميع، بأننا نتنـاول المسـألة بتلخـيص واختصـار، ونكتفـي بقـول مـا نـراه ضرورياً تمس الحاجة اليه، ويليق بالمقام قوله.

الفصل الأول: تعريف الديمقراطية وأصـولها :

قيل الكثير عن تعريف الديمقراطية، ووردت لها تعاريف عديدة في الكتب والمصادر التي تناولتها، ولكننا نقول هنا اختصاراً:

لفظة (Democracy) كلمة مركبة، وهي إِغريقية في الأصل، تتكون من مقطعين (Demos) ومعناه الشعب، و(Kratos) ومعناه الحكم.

وكمصطلح سياسي هي عبارة عن:

حكم الشعب بالشعب من أجل الشعب،اذاً: فالديمقراطية هي الأسلوب ونظام الحكم الذي يكون الشعْبُ فيه صاحب السلطة، سواء من الناحية التشريعية، أو من ناحية اختيار الحكام والمسؤولين، أو السلطة القضائية والمؤسسات التي تقوم بالرقابة و المساءلة لأولئك الحكام والمسؤولين.

وعن أصول الديمقراطية أيضاً قيل الكثير، وقد عدَّد بعض المحققين (7-10) أصول، ولكنني أعتقد أن الأصول الأربعة التي سنذكرها، تشمل سائر أصولها الأخرى، وتتفق حولها كلمة الديمقراطيين جميعاً.

1/ حاكمية الشعب:

ويُعَدُّ هذا الأصل العمود الفقري للديمقراطية والأصل الذي تستند اليه وتتشعب منه سائر الأصول الأخرى.

2/ سيادة القانون:

ويقصد بها، خضوع الجميع – حكاماً ومحكومين للدستور والقانون الأساسي، الذي يأتي الى الوجود عن طريق الإستفتاء العام، وتوضع في ضوئه القوانين وتُقَنَّن من قبل المجلس التشريعي.

3/ حقوق الإنسان والحريات العامة:

والمقصود من هذا، أن يكون المواطنون أحراراً متساوين، والحرية وإن كانت تشمل أشياء عديدة، ولكن االديمقراطيين أيضاً متفقون على حصر معناها في هذه المجالات الأربعة:

الحرية الشخصية، والحرية الإجتماعية، والحرية الإقتصادية، والحرية السياسية. والمساواة بدورها أيضاً تشتمل على مواضيع متعددة، ولكن هذه النواحي الأربع، مما اتفقوا عليها أيضاً:

المساواة أمام القانون، والقضاء، والحقوق، والواجبات.

4/ الفصل بين السلطات:

ويقصدون بذلك السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية.

وكما قلنا آنفاً: فإنه يمكن الإطالة فيما يخص أصول الديمقراطية أو تعريفها، ولكن ما سردناها هنا، هي خلاصة القول الذي اتفقت وجهات نظرهم حولها.

وبهذا القدر نكتفي بالفصل الأول في موضوعنا، ونتحول الى الفصل الثاني، وهو عبارة عن تأريخ ظهور الديمقراطية، ولا يَخفْى أنَّنا نَعْرِضُ الموضوع هنا من منظار أصحابه، وَ نرجيء حديثنا وتقييمنا للديمقراطية الى ختام البحث.

الفصل الثاني

تأريخ الديمقراطية: متى وكيف و أين ظهرت؟

هل الديمقراطية الموجودة اليوم، كنظام للحكم، كانت على هذه الصورة في بداية نشأتها، أم كانت بصورة أخرى ثم طرأت عليها التغيرات رويداً رويداً، وتطورت حتى وصلت الى ما وصلت اليه اليوم؟ هناك من يظن أن الديمقراطية لم تزل على هذه الحال منذ نشأتها! لكن الحقيقة أَنها كانت كأية نظرية وتصور وتجربة أخرى، ساذجة في بدايتها ومختلفة عما هي عليه اليوم، ثم بمرور الأيام نَمَتْ وزِيدَ فيها ونُقِصَ منها، حتى وصلت الى هيئتها الحالية، ولا شك أنها لا تزال في تبدّل دائم، بل إنها – في الوقت – الحاضر – تتخذ لها أشكالاً وأنواعا متعددة، حسب اختلاف البيئات والمجتمعات. وإنما أشرت الى هذا، حتى لا يظن أحد أن الديمقراطية – كما هي الحال في نظام الحكم الإسلامي – تتكون من بعض الأصول الراسخة والثابتة غير القابلة للزيادة والنقص، أو أنَّها بِمَنْأى من التغيّرات الإيجابية والسلبية الناتجة عن أهواء ومصالح الجماهير والحكام، والتي قد تُودِيَ بجوهرها، وتغدو ألعوبة شرِّيرة ومشؤومة تتقاذفها أياديهم!

نسأل التأريخ عن الديمقراطية، فإذا بالمصادر والكتب التي تحدثت عن جذور الديمقراطية تقول: الإغريق هم أول من أداروا بلادهم وفق هذا النظام، فقد جرى تطبيق هذا النظام في صورتها البدائية في اليونان في مدينتي: (أثينا) و (أسبارطة) حيث كل مدينة كانت تمثل دولة آنذاك، وكانت ديمقراطيتهما ديمقراطيةً مباشرة، أي إن الناس أنفسهم كانوا يحتشدون في ساحة، ويقررون في القضايا المهمة والمصيرية، وليس عن طريق البرلمان أو

المجالس التي ينتخبها الشعب ويفوِّضون أمورهم إليها، ولكن يجب أن يُعْلَم ان ديمقراطية اليونان لم تكن تشمل النساء والعبيد، ولم يكن لهؤلاء حق الإنتخاب أو إبداء الرأي، علماً أن النساء كانوا نصف المجتمع، والعبيد كانوا أحياناً أضعاف الأحرار!!

هكذا كانت الديمقراطية في بداية عهدها، وليست كما يحلم بها البعض أحلاماً وردية، ثم إن هذا النوع من النظام، قد زال عن الوجود، بزوال تَيْنِكَ المدينتين، وانقطع ذكره في تلك المهلة الزمنية. وبعد انتهاء التجربة الديمقراطية الأَولى في اليونان، فإن جميع الدول الغربية وبضمنها اليونان، سواء قبل مبعث عيسى (عليه السلام) أو بعده، إنتشرت فيها الإقطاعية كنظام للحكم، وبعد مدة وجيزة من انتشار دين المسيح (عليه السلام)، وتحت ضغوط القياصرة والملوك، والتنازل الذي أبْدَتْهُ الأجيال التي جاءت بعد جيل الحواريين، عَمِلَتْ يد التغيير والتشويه، في دين عيسى (عليه السلام) حتى أُفْرِغ من محتواه ومعناه، وسُلِّم هذا الدين الى إرادة الطواغيت والمُضْطَهِدِين، ورفعوا شعار (دع مالله لله، وما لقيصر لقيصر) على لسان عيسى نفسه، والمقصود من هذا الشعار كان إعلان الفصل بين الدين و الدنيا رسمياً، لذلك فإن كثيراً من المؤرِّخين والمحقِّقين يعتبرون هذه المقولة أكذوبة سافرة، لَفّقها النصارى على لسان عيسى (عليه السلام) فليس من المعقول أبداً، أن يَصْدُرَ هذا من عيسى الذي جاء ليُعَلِّم الناس عبادة ربهم، ويُنَظِّم حياتَهُمْ وفق منهج الله القويم، كما قال الله تعالى على لِسانه: **﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾** (آل عمران–51). فكيف يتنازل عيسى عن هذه الحقيقة التي تُمثِّل جوهر دينه وفحواه!! نعم أيّها الأعزاء!

فلقد تنازلت النصرانية منذ زمن مبكر جداً، للأنظمة الطاغوتيـة والإقطاعيـة والملوك والقياصـرة، وبـدل أن تُحْـدِث التغـيير فـيهم، وتُصـحِّحَ مسـارهم، إنْحَرَفَتْ هي وحادَتْ عن الصراط المستقيم. ومع أن هـذا الإنحـراف شـكّل مصيبة كبرى، حلّت بالدين المسـيحى عـن طريـق إقصـاء الـدين عـن واقـع الحياة، لكن الأَدْهـى مـن ذلـك والأمـرّ، أن حكمـاءهم وكـبراءهم، قـاموا بإحداث طبقة رجال الدين، كتعويض لإبعاد دينهم عن ميدان الحياة، وكـان ذلك ابتداعاً خطيراً ومشؤوماً، نجمت عنه عواقبُ وخيمة، وسنشير الى شيء من ذلك في محاضرتنا عن العلمانية، فيُغنينا عن الإعادة هنا.

نعم أيّها الأكارم !

فلقد أساء رجال الدين– كما يسمون أنفسـهم– إسـتغلال تقـدير النـاس وإحترامهم لهم، لصالح منافعهم الخاصة، وانعزلوا عن الجماهير كطبقة متميزة، وظّلوا يوسعون سلطاتهم وإمكانياتهم عبر تأريخ الدول الغربية شـيئاً فشـيئاً، حتى وصل الأمر الى أنهم، كانوا ليس فقط ينافسون الملوك والقياصـرة! بـل استطاعوا أن يُخْضِعوهم لسيطرتهم وسطوتهم. ولكن مع الأسـف لم يسـتغل أولئك سلطتهم لنصرة دينهم، بل لضمان مصالحهم غير الشرعية، حتى بات الناس ختاماً واقعـين تحـت نـير الشـالوث المشـؤوهم: (الإمبراطـور+ پاپـا + الإقطاع). الإمبراطـور كسـلطة سياسـية، والپاپـا كسـلطة روحيـة ودينيـة، والإقطاع كسلطة إقتصادية، وكانت كل سلطة من هذه السلطات الـثلاث، تستطيل لتصل الى كل نواحي الحيـاة، فالپاپـا – مـثلاً– إضـافة الى سـلطته الروحية، كان يتمتع بسلطة سياسية وإقتصادية فظيعة، والإقطاعي وصـاحب الأملاك والعقارات أيضاً، كان له اليد الطولـى في السياسـة، أمـا القياصـرة

والملوك، فليس خافياً أنهم إِضافة لسلطاتهم السياسية، كانوا يتمتعون بالنفوذ الإقتصادي والفكري كذلك.

وقد أصبح هذا الثالوث المشؤوم كابوساً يجثم على صدور الناس في الغرب، يُضَيِّق عليهم الخِناق، ويكتم على أنفاسهم، وقد استمرت هذه الحال والظروف الصعبة على الناس في أوربا والغرب أكثر من ألف عام، أي كانت الظروف هكذا طوال القرون الوسطى، والمقصود بالقرون الوسطى، الزمن الواقع مابين القرن الخامس الى القرن الخامس عشر للميلاد، فطوال هذه العصور المتطاولة، لم يُحسب للجماهير أي حساب، بما فيهم العلماء والفلاسفة!

ومعلوم أن كلاً من الإمبراطور وَالپاپا والإقطاع، كانوا قد اتفقوا فيما بينهم – تماماً كعصابة للسطو – على اقتسام الثروات والخيرات واقتسام الأمر والنهي، والإمبراطور وان كان هو صاحب السلطة، إلا أنه كان يطالب الإقطاعي بدفع الضرائب للجنود، وخصوصاً زمن الحروب الصليبية، والإقطاعي بدوره كان يطالب الفلاحين والفقراء بدفع الضرائب وَزيادتها، وتجنيدهم قسراً بلا مقابل! وعندما طالت معاناة الناس مع ذلك الثالوث المشؤوم و بلغ السيل الزّبى، ثار الناس، إذ لكل شيء حد يقف عنده، ويقول المثل: كل حبلٍ ينقطع من دقته، لكنَّ حبل الظلم ينقطع من غلظته، وهكذا قام الناس بالثورة، وبذلك حل البرلمان مكان الإمبراطور، والرأسماليون مكان الإقطاعيين، والمكتشفون والمخترعون مكان الكنيسة والپاپا، أي إذا كان الإمبراطور في الماضي هو الآمر والناهي والحاكم المطلق، وواضع السياسات، فقد وكلت تلك الحقوق هذه المرة الى (البرلمان).

والإقطاعي الذي كان يقوم بأعمال ومهام كثيرة، جاء الرأسماليون هذه المرة من أصحاب الشركات وحلّوا محلهم، ولئن كانت الپاپوات يوجهون الناس، فقد انتقل التوجيه بعدهم الى الفلاسفة والمفكرين والمكتشفين، وخصوصاً العلماء ذوي الإختصاص في العلوم الطبيعية، وبات هؤلاء يشكلون المراكز الفكرية، وفي تلك الظروف التي ثار فيها الشعب، وزال فيها الثالوث المشؤوم، ولم يبق من يدَّعي أنه ظل الله على الأرض!!

فالإمبراطور كان يزعم أنه ظِلُّ الله على الأرض، و الپاپا كان يقول بأنه وكيل الله – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً – وفي هذه الأيام وقع بصري على مقالة في جريدة لكاتب علماني، يزعم بأنه وجد في الإسلام مثل هذا أيضاً، فقد نقل عن الخليفة الفلاني أنّه قال: بأنّه ظل الله، وأن خليفة آخر قال: ما أقوله هو الشرع! ويبدو أنه تجاهل وتغافل عن حقيقة يعلمها الجميع، وهي إن مقياس نظام الحكم في الإسلام محصور في القرآن والسنة، والأسلوب الذي انتهجه النبي ﷺ والخلفاء الراشدون – في إدارة الدولة الإسلامية–، ومعلوم أنّه اعتباراً من العهد الأموي، انتهى الحكم الشُّوريُّ بين المسلمين، وغدا الحكم مُلْكاً عاضّاً، ثم ملكاً جبرّياً، كما قال النَّبيُّ ﷺ: ((خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله مُلكَهُ مَن يَشاءُ))[1] وقال في حديث آخر: ((تكون النُبوَّة فيكم ما شاءَ الله أن تكون، ثم تكون خلافة على منهاج النبُوَّة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاءَ أن يَرفَعها، ثم تكون مُلْكاً عاضّاً، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها الله إذا شاءَ أن يَرفَعها، ثم تكون مُلْكاً جَبريَّةً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم

(1) رواه أحمد والترمذي والنسائي وأبوداود.

يرفعها الله إذا شاءَ أن يَرفَعها، ثم تكون خلافةً على منهاج النبوَّة))[1]، ومما هو واضح ومشهور بين جميع علماء الإسلام أَنَّ معاوية بن أبي سفيان لم يكن خليفة راشداً ضمن الخلفاء الراشدين، بل كان مَلِكاً، ناهيك عن ابنه يزيد الذي أخَذَ له البيعة وعيَّنه خليفة من بعده، وقد أشار النَّبيُّ الخاتم (محمد) ﷺ إلى أن تغيير الحكم الإسلامي من الشورى إلى الوراثة يبدأ على يد معاوية بن أبي سُفيان الأموي، إذ قال: (أولُ مَن يُغيِّر سُنَّتي رجل من بني أُمية)[2]، وعلى هذا فلا يحق لأحدٍ أبداً، أن يُحَمِّل الإسلام مسؤولية قول ٍ قالَه يزيد أو أبو جعفر المنصور، أو هارون الرشيد.. لماذا؟

لأن الإسلام لا يتحمل الا مسؤولية من أُسْنِدَ إليه الحُكْمُ بالإسلام نفسه، وأما الذي وصل الى الحكم بالقوة، أو تسلّم السلطة بالتوارث، فالإسلام ليس مسؤولاً عن مثل هذا، وما دام الإسلامُ لم يُصْعِدْهُ سُلّمَ الحكم، فهو بالتالي ليس مسؤولاً عن مخالفته، بل وحتى لو استلم حاكم ما الحكم بطريقة شرعية، فلايجوز أن تُحْسَب أخطاؤه والخرافاته المتصادمة معه، عليه نعم، ففي مثل تلك الظروف التي سردنا جانباً منها آنفاً، حيث زالت سلطة الپاپا من جهة، ولم يعد بإمكانه خداع الناس باسم الدين، وزالت سلطة الإقطاعيين، ولم يعد في وسعهم أن يُحيلوا الناس الى عبيد يعملون أبد الدَّهر في مزارعهم، وَ أُطيح بعرش الإمبراطور وَغدا الناس يعيشون في فراغ فكري وسياسي، فلاذوا – مضطرين – بالعلمانية التي أوضحنا أَنَّ معناها

---

(1) رواه أحمد في المسند (4 /273) وهو صحيح الإسناد، و صحَّحه الألباني، أُنظر: (سلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم (5).

(2) أخرجه ابن أبي عاصم في الأوائل (2/7)، و ابن كثير في (البداية) ج2، ص234، والسيوطي في الجامع الصغير:2841، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة:1749، ج4،ص329، 330. قلت: هذا إسنادٌ حسن ولعل المراد بالحديث تغيير نظام اختيار الخليفة وجعله وراثة.

الحقيقي هو اللادينية، وبذلك رُفِضَ الدين النصراني رفضاً نهائياً، فلقد كانوا تجرَّعوا من الدين الأمَرَّين، وهم لم يكونوا يُحيطون علماً بتحريف دينهم وزَيْفِهِ، ولم يكن متاحاً لهم أن يتثبتوا ويستفيدوا من التأريخ، كما هو متاح لنا نحن المسلمين، ننظر الى التأريخ والإسلام كله شاخص في متناول أيدينا، بل إنّهم كانوا يتصورون أن الدين هو فقط ما يعرفونه بإسم النصرانية، ولايوجد دين لله تعالى غيره! ثم من منطلق تجرعهم المر والعلقم من ذلك الدين، وعدم معرفتهم بالدين الحقيقي كي يتوجهوا إليه، فقد توجهوا أَسراباً و أفواجاً الى اللادينية، ثم إنهم تصفحوا تأريخهم وتراثهم وثقافتهم، فرأوا أن خلاصهم من الإستبداد وحكم الإقطاع ومآسيهم الأخرى، يكمن في الديمقراطية، والديمقراطية – كما أشرنا الى ذلك سابقاً – مرّت كنظام للحكم بعدّة مراحل:

أ– تمثل الإقتراح الأول الذي طرحه دعاة الديمقراطية، في حق التنقل (أي: نقل السكن من الريف الى المدنية ومن مدينة الى أخرى) وكان الناس محرومين من هذا الحق قبل ذلك، فالفلاّح لم يكن يحق له – دون إذن سيّده أو إذن صاحب الأرض – أن يترك المكان الذي يكدح فيه كالعبد ويكون نصف شقائه وتعبه لصاحب الأرض!

وبعد محاولات جادة تقرر في البرلمان إعطاء الحق لكل من يريد التنقل من الريف الى المدينة، خصوصاً بعد أن كثُرت معامل أصحاب رؤوس الأموال في المدن، وباتت الحاجة ملحّة للطبقة العاملة، فأصبح بذلك ضرورياً أن يبدأ الناس بالهجرة من الأرياف الى المدن.

ب– وأما ما يخص حق العمل، فلم يكن الناس يتمتعون بحرية إختيار المهنة، بل كانت جميعها محددة، فالفلاح عليه أن يمارس الفلاحة، وغيره يجب ان يمارس مهنته الأصلية، وقد تقرر هذا الحق رويداً رويداً، فأصبح

الشخص قادراً على إختيار ما يرغب فيه من العمل، وما يجب أن يتقاضاه من أجر مقابل عمله، كل ذلك لم يتقررْ إلاّ بعد إضرابات ومظاهرات كثيرة، قام بها العمال مما أدى ختاماً الى إقرار هذا الحق، فأصحاب رؤوس الأموال كانوا قبل ذلك يمتصون دماء العمال، ويعطونهم أجوراً زهيدة مقابل أعمال كثيرة وشاقة، وكلنا يعلم، أَن المعسكر الشرقي والمجتمع الإشتراكي إنّما نشأ كردّ فعل للإستبداد والظلم الذي كان يصدر من النظام الرأسمالي إزاء العمال، لذلك فكما وجدت هناك دكتاتورية رأسمالية، فقد وجدت هنا دكتاتورية البروليتاريا، تماماً كالقانون الفيزيائي القائل: لكل فعل ردفعل، يساويه في المقدار وَ يعاكسه في الإتجاه، فكما كان كل شيء في الدكتاتورية الرأسمالية بيد أصحاب رؤوس الأموال، كذلك في الجانب الآخر كانت دكتاتورية البروليتاريا، حيث كان من المفروض ان يكون كل شيء بيد الطبقة الكادحة، و بسبب الضغوط التي كان يشكلها العمال على أصحاب المصانع والمعامل، كالقيام بالإضراب عن العمل والمظاهرات، اضطر أصحاب رؤوس الأموال والمصانع، أن يتنازلوا شيئاً فشيئاً، فزادوا من أجور العمال وحسّنوا أحوالهم المعيشية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان هناك تهديد المعسكر الشيوعي الإِشتراكي، والحق أن للمعسكر الإشتراكي فضلٌ على العمال والكادحين، بأنهم اضطروا النظام الرأسمالي على مراجعة الذات ومراجعة حقوق العمال مرات و مرات.

ج- وأما حق التعليم، فلا تذهبن بك الظنون أن الديمقراطية أقرت هذا الحق منذ بداية ظهورها، بل كان تعلّم العلوم و اكتسابها حِكْراً على طبقة الأشراف الأرستقراطيين، من الأثرياء وذوي المراكز المرموقة في المجتمع،

أجل التعليم كان خاصاً بأولئك دون غيرهم، ذلك لأن الفقراء لم يكونوا يستطيعون حمل تكاليفه، حتى إِنَّ مجادلات ومناوشات كلامية عديدة جرت في البرلمانات الأوربية والغربية عموماً، حول هذه المسألة، إذ إنهم كانوا يقولون: ان المستوى الدراسي يتدنّى اذا شارك في الدراسة أبناء الفقراء والفلاحين! أو كانوا يقولون: لا نقوى على تحمل تكاليفهم، أو يقولون: اذا درس الجميع فمن الذي سيعمل! ولكنه بعد جدالات ونقاشات محتدمة، أَقرّت البرلمانات بحق الدراسة لأبناء الفقراء والفلاحين أيضاً وذهابهم الى المدارس، وقد أقروا آخر الأمر ونهاية المطاف أن يكون التعليم مجّاناً.

د- وكذلك الحقوق السياسة، لم تكن رفيقة الديمقراطية منذ بداية ظهورها، ومن ذلك حق الإنتخاب، وحق الترشيح لدخول البرلمان، وحق الإجتماع وتأسيس المنظمات السياسية، وحق الصحافة وحق المظاهرات، فهذه جميعها جاءت الى الوجود شيئاً فشيئاً، بعد مساع حثيثة وَمعاناة شديدة، وبعد دماء وَدُموع، أقرت البرلمانات والأنظمة الديمقراطية هذه الحقوق للجماهير.

هـ- وهكذا بالنسبة للضمانات القضائية، فالناس في الماضي في ظل سلطة الثالوث المشؤوم (الإمبراطور والپاپا والإقطاع) لم يكونوا أصحاب أي شيء، ولكن من ضمن التغيرات التي حدثت بعد المحاولات المضنية، إعطاء المواطن ضمانة ألاّ يتهم جُزافاً، وأن البريء لا يجوز اتِّهامه، وأيضاً فقد مُنح المواطن ضمانة ألاّ يحكم عليه أثناء التحقيق، دون أدلة واضحة، وكذلك ألاّ تُشَدّد العقوبة فوق ما يستحق المتهم، و زُبْدَةُ القول: أَن الديمقراطية مرت في طريقها قبل أن تصل الى وضعها الحالي، بأودية و

مرتفعات ومنحدرات كثيرة! و إنما وضَّحنا هذا الأمر، حتى لا يذهب الظن بأحد أن الديمقراطية، جاءت بتلك الحقوق والإمتيازات معها هدية للناس باديء ذي بدء، بل إن الديمقراطية -وأي نظام وضعي آخر- تطورت عبر مراحل، وكلما أوغلوا في إعمال العقل والتفكير، أضافوا شيئاً الى ذلك، وكلما مارس الناس الضغوط، كلما راجع الحكام أنفسهم أكثر وغيَّروا من نظمهم وَمناهجهم، ولكن الإسلام على خلاف ذلك كله، ذلك أن الله سبحانه هو الذي أرسل هذا الدين، وهو الأعلم بمصالح عباده، وقبل أن يطالب أحد بحق له، حَدَّد الله تعالى له كل حقوقه، للعمال، والمزارعين، وللنساء، والأطفال، وأية شريحة أخرى، حدد لكل أولئك الحقوق، ورُسمت لهم الخطوط والحدود، دون أن يطالب أحد بشيء!! أو يُضْرِب عن العمل أحد! أو يقوم الناس بالمظاهرات!

الفصل الثالث

الديمقراطيـة في ميـزان العقـل والواقع

في هذا المبحث إن شاء الله، سنضع الديمقراطية على المحك، من خلال تقييمها، وفق أصولها الأربعة التي سبق وأن تحدثنا عنها، و ذلك كي نَزِنَها بميزان العقل والواقع بداية، وقبل أن نأتي الى بيت القصيد، نعلنها ثانية أن الديمقراطية لُجِئَ اليها اضطراراً وليس اختياراً، وأكثر ما نراه اليوم في هذا النظام، إنما هي إِضافات أُضيفت إِليها لاحقاً.

وعليه: فلا تطرأ التغيرات على الديمقراطية الاّ بممارسة الضغوط عليها، إِيجابياً إذا نحا الخيِّرون، هذا المَنْحى، وسلبياً إذا رغبوا في السير بها نحو الشرور والسلبيات، فهناك الآن من يمارسون الدكتاتورية متسترين بحجاب الديمقراطية في المجتمع الإِشتراكي، وكانوا يَعُدُّون أنفسهم ديمقراطيين، ولكنهم في الوقت ذاته، كانوا يؤمنون بدكتاتورية البروليتاريا، فالديمقراطية اذاً حالة اضطرارية من جهة أَن الناس لاذوا بها، وهي من جهة أخرى كوعاء يحتوي ما يوضع فيه، وهي قابلة الى حد بعيد لتغيير الإِتجاه، هكذا وهكذا، إذ ليس لها إطار محدَّدٌ يمنع بِسببه الإنحراف عنه.

الأصـل الأول:

وأهم أصول الديمقراطية عبارة عن (حاكمية الشعب) وقد أسلفنا ذكر المعاني التي يَنطوي عليها هذا الأصل، وخلاصته حصر السلطة بيد الشعب.

ونحن نسمع هذا الأصل كشعار فقط، ولم نره مُجَسَّداً بصورة عملية لا في عهد اليونانيين، ولا بعدهم، ولا في عصرنا الحاضر، أي ان الشعب حقيقة

ليس صاحب سلطة، – مع أننا لنا ملاحظاتنا الشرعية حول هذا الأصل وسنذكرها لاحقاً – ولكن من ناحية العقل والواقع أيضاً، لايعدو هذا الأصل أن يكون شعاراً براقاً غير مُتَجَسِّدٍ عملياً، لماذا؟ لأن دون ذلك الكثير من العراقيل والموانع، من ذلك:

أولاً: إن كثيراً من الناس من معارضي الديمقراطية ومنتقديها، والذين يتحدثون عنها في ضوء الواقع الذي تعيشه الدول الرأسمالية، تتمخَّض نظرتهم اليها عن هذه النتيجة:

إن الجماهير والشعب عموماً مشغولون بحياتهم الخاصة، ومنهمكون باللهو واللعب وقضاء الأوقات، وليس لهم مُتَّسَعٌ من الوقت أصلاً للإنشغال بالسياسة وأمور الحكم، أو مراجعة السياسيين وتقويم أخطائهم، والتركيز على من ينتخبون ومن لا ينتخبون.

ثانياً: ثم عندما يرى الناس واقعاً ونظاماً ضرب بجذوره في أطناب الأرض، مثلاً: نظام الحكم في أمريكا منحصر في الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري، وفي بريطانيا في حزب العمال والمحافظين، فهؤلاء مسيطرون على كل شيء، فإمّا هذا الحزب وإمّا ذاك، كما يُحكى أَن امرأةً كان ابنها مريضاً، ولم يكن في بيتها سوى البلوط، فقالت لإبنِهِ: ماذا تشتهي ياولدي؟ قال لا أشتهي شيئاً يا أمّاه، فقالت، ألا تُحِبُّ البلّوط نيِّئاً؟ قال: لا، قالت: فمطبوخاً، قال: أيضاً لا أحِبَّهُ، قالت، فأشويه لك؟!، قال: إنَّني لا أحب البلوط أصلاً يا أمي.

والحق أن حال الدول الديمقراطية أصبحت هكذا، لأن هذا الحزب مع الحزب الآخر، قد حَدَّدا إطاراً للحكم والسياسة، إطاراً معيّناً لايُزال بأحد،

والمواطن يائس من تغيير ذلك الواقع، ولـذلك فهـم في أحيانـا كـثيرة لا يشاركون في الإنتخابات أساساً.

ثالثـاً: ثم ان المرشَّحين تنتخبهم أحـزابهم، وهـذه أيضـاً كمسـألة البلـوط! الخيار فيها محدّد، فأنت مضطر إما أن تصـوّت لهـذا أو لـذلك، فـالمواطن حتى لو لم يرغب في التصويت لأحدهما، فإنَّه مضطر إمّا لعدم التصـويت أو التصويت لمن لايرغب فيه ربما.

رابعـاً: ثم إن المصاريف الباهظة للدعاية الإنتخابية، ليسـت بـالأمر الْهَـيِّن، ولا يستطيع تحمل تلك المصاريف الباهظة للدعاية الإنتخابية، إلا من هـو صاحب رأس مال ضخم، من أصحاب النفوذ والسلطة.

خامساً: إن التزوير في الإنتخابات، أمر مألوف وسائد في جميع الدول.

سادساً: ونسبة المشاركين قليلة، وسأكتفي بذكر مثال واحد:

عندما انتخب (كلنتون) قالت راديو صوت أمريكا في 1996/11/6): إن (50٪) فقط من الذين يحق لهم المشاركة في الإنتخـاب، قـد شـاركوا فعلاً، وقد كسب (49٪) من الأصوات. أي يبقى (25٪) بـل أقـل مـن ذلك، أي لم يصوِّت له غير ربع الذين يحق لهـم المشـاركة في الإنتخـاب! فأين حكومة الشعب إذاً؟ أليس من الأصح أن نقول: حكم ربع الشـعب بل لو دقّقنا جيداً، لتبيّن أنه أقل من الربع أيضاً، لأن كثيراً من المشـاركين واقعون تحت الدعاية الإعلامية التي تقوم بها تلك الأحزاب!

سابعاً: وتُعطى الوعود بلا حساب، وتطلـق الأعِنَّـةُ للكَـذِب، فهـذا سـيفعل كذا، وذاك يَزِيدُ أجـور العمّـال، والآخـر سَـيُتيح فـرص السـعادة...الخ ولكنهم عندما يتسلّمون الحكم، يتصرفون بخـلاف تعهـداتهم وَوُعـودهم،

هذه هي حاكمية الشعب وسلطته، وبالتعمق وتدقيق النظر، يتبين أن هـذا الأصل بعيدٌ عن معناه كل البعد.

الأصـل الـثـاني :

وهو عبارة عن سيادة القـانون، أي أن يكـون القـانون فـوق الجميـع ولا يخرقه أحد، وهذا لاشك بأنه شيء حسن، ولكنه بات كالمطّاط بيد أصـحاب المصالح والسلطة، وفي ظل الديمقراطية التي هـي نتـاج ذلـك البرلمـان الـذي تحدثنا عنه، بما فيـه مـن الإشـكالات السـبعة الـتي تحـوم حولـه، إضـافةً الى الضغوط التي تُشَكِّلها اللوبيات الصهيونية وغيرهـا، علـى تلـك البرلمانـات، والحكومات والمؤسسات، بما في ذلك السلطة القضائية نفسها.

الأصـــل الثـالـث :

حقوق الإنسان والحريات العامة، وقد تحدثنا عن هـذا في مبحـث حقـوق الإنسان، وقلنا إن هذا شيء حسن في ذاته، وليس هناك أفضل من أن يكون للإنسان حقوق، وأن يكون الناس أحراراً لا يظلمهـم أحَـدٌ، ولكنّنـا عنـدما نعاين الواقع المشاهد، نرى أن حقوق الإنسـان والحريـات العامـة، لـيس إلاّ كلاماً جميلاً مُفَرَّغاً من معناه، فإذا كان صاحب السـلطة والمـواطن العـادي، والغني والفقير، يُخْلَطون ببعضهم ويقال لهم: أنتم أحرار، إفعلوا ما بدا لكـم! فـالرابح هـو الأُسـود والنمـور، والخاسـر هـو الغـزلان والأبقـار الوحشـية والحيوانات الصعيفة!! وعندما يطلق عِنانُ الحرية لشعب ويـترك حبلـه فـوق غاربه، فالرابح دوماً هم أصحاب الأنياب والمخالب لأنهم الأقوى، الآن: مـا هي الأشياء الرائجة في الأسـواق الأوربيـة؟ طبعـاً مـا يرغـب فيـه أصـحاب

رؤوس الأموال، وما يرغب فيه هؤلاء، هو ما يُرجى منه الربح الوفير، وليس ما من شأنه أن يُقَدِّم الشعب الى الأَمام، وما يُطوِّرُ القيم والآداب والأخلاق و يُنمِّيها! بل أي شيء يملأُ الجِيبَ وَيُرَغِّدُ العيش، وهذا النوع من الحقوق الموهومة للناس، دون تعيين حدود لها، دَوْماً ينتهي بضرر الفقراء والمُعْدِمين، وهذا النوع من المساواة، لا شك أَنه مُنْتَهٍ بخسارة الضعفاء، كما لو قيل لِوَعْلٍ وَ ضَأْنٍ: أنتما حرّان فيما تفعلان، ونتيجة ذلك معلومة.

الأصل الرابع:

والأصل الرابع للديمقراطية وهو عبارة عن فصل السلطات، هو أيضاً شيءٌ حسن، إذا كانت السلطة القضائية مستقلّة، وألاّ يمارَسَ الضَّغْطُ على السلطة القانونية، بل يجب أنْ تُقَنَّن القوانين حيث ترى مصلحة الشعب، فهذا شيء حسن، ولكن هناك مشاكل وعراقيل في المؤسسات الحكومية نفسها والسلطة القانونية والتنفيذية والقضائية ذاتها، ثم إن هذه السلطات كثيراً ما تُفَرَّغ من معانيها، تحت الضغوط التي تشكلها اللوبيات المختلفة، وهكذا يصبح شعار فصل السلطات شعاراً بلا مضمون، في كثيرٍ من الأحوال.

الفصل الرابع

تقييـم الديمقراطيـة في ضـوء الشـريعة

سبق أن قلنا أنَّ الغربيين كـانوا في حـيرة مـن أمـرهم، واضـطروا – مـن منطلق عدم وجود دين حقيقي في متناول أيديهم، وطلباً للنجاة من إِسـتبداد البابا و الإمبراطور والإقطاع – أن يتوجهوا الى الديمقراطيـة، والإنسـان إذا اضطر أن يختار ما بين الدكتاتورية و الديمقراطية، فإِنَّه حتمـاً سـيختار الثانيـة على الأولى، لأنها خير منها سبعة أضعاف، وبعض الشرِّ أهون كما يقولـون، بيد إننا نتحدث عن الديمقراطية من الوجهة الشرعية، ونحـن كشـعب مسـلم لَسْنا مُضْطَرِّين للإنتخاب بين ذينك الإختيارين، والسبب أَن أمامنا منهاجـاً لم يأت الى الوجـود بضـغط مـن أحـد ولا بمطالبـة أحد، وفيـه كـل الحقـوق والواجبات، يقول تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (الجاثية– 18).

والآن هلُـمّ نتحـوَّلُ الى ذكـر الأصـول الـتي بُنيـت عليهـا الديمقراطيـة، وتقييمها واحداً في إثر آخر، في ميزان شرع الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

الأصـل الأول: حاكميـة الشـعـب

وهذا الأصل منطوٍ – من منظور الشرع – على معنييـن اثنين:

أ– أن يكون للشعب حق التشريع.

ب- أن يكون للشعب حق اختيار حُكّامِه وَمسؤوليه، وتفويض السلطة الى من ينتخبهم.

والحاكمية بمعناها الأول حق لله وحده، لأن الحاكمية من أخصِّ خصائص الله وصفاته تعالى، وقد وردت هذه الحقيقة في كثير من الآيات القرآنية فمنها:

1/ ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف-40)، عرض الله تعالى في هذه الآية الكريمة حقائق عديدة ومن ذلك:

الأولى: أن الحاكمية المطلقة هي حق لله الواحد الأحد (**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ**) ومنها حق وضع منهاج وَ دستور لحياة الإنسان، وتحديد الحلال والحرام.

الثانية: أمر الله تعالى الناس ألاّ يعبدوا من دونه أحداً، قال تعالى: (**أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ**) اذاً: العبودية لله وحده، وعبادته وحده، والإقرار بأن الله هو الحَكَمُ الواضعُ للبشر منهاجاً يسيرون عليه، وجهان لحقيقة واحدة، ولا يُثبِتُ الإنسانُ حقيقة أنه لا يعبد سوى الله تعالى، الاّ برفض كل منهج للحياة من غيره جل وعلا.

الثالثة: ويقول عزَّ مِنْ قائل: ﴿**ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾، أي: إنَّ منهاج الله القويم عبارة عن اعتبار الله تعالى هو الحاكم المطلق وصاحب الدين الأوحد، وتخصيصه بالعبادة.

2/ ويقول جل ذكره أيضاً: ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ**﴾ (المائدة-49).

إن الناس (أفراداً وجماعات) لا حَلَّ أَمامهم سوى أن يختاروا أحد هذين الطريقين، إمّا عبادة الله واتّباع هَدْيه، أو عبادة غيره وأن يصبح أسيراً لأهوائه، ولا توجد الهداية الاّ في الدين المُنَزَّه عن الخطأ والتحريف الذي أنزله جبريل (عليه السلام) على قلب خاتم الأنبياء محمد ﷺ وعندما لايتبع الإنسان الدين المنزل، يتبع – بالضرورة – الهوى، فإمّا هواه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الجاثية– 33) أو هوى غيره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية– 18)، وأهواء الجاهلين أنواع وطرائق قدداً، فمرة البابا، وأخرى الأمبراطور، والإقطاع وصاحب رأس المال، وأحياناً الدكتاتور البعيد عن الله، سواء كان فرداً أو طبقة، كالطبقة البرجوازية وطبقة البروليتاريا.

3/ ويقول تبارك وتعالى أيضاً ويعلنها صريحة ان حق وضع الدين وتحديد الحلال والحرام والحسنة والسيئة، لا يليق الاّ بجلال الله تعالى، والذي يقوم بمثل ذلك، فقد ادَّعى الألوهية، والذي يقر بشيء من ذلك لذلك المدّعي فهو مشرك أيضاً، يقول تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى – 21). فالمنهاج الوحيد الذي يُرضي الله تعالى ويرضاه لعباده، أَن يتّبِعوه هو الإسلام وحده: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران–116).

4/ ومرة أخرى يجعل الحق تبارك وتعالى صفتي الخلق والحكم راجعتين اليه وخاصَّتين به، كصفتين جليَّتين لا تقبلان النقاش، حيث يقول تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الاعراف– 54).

5/ ثم إن الله سبحانه وتعالى تحدث عن اليهود والنصارى بأنهم: ﴿**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾(التوبة– 30)، ويستعين المفسِّرون في تفاسيرهم على شرح هذه الآية، بحديثين يوضحان معناها:

أ– عن عدي بن حاتم قال: (أتيت النَّبـيَّ ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً مـن دون الله..) فقال: أما إنَّهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أَحلُّوا شيئاً استحلّوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموه) أخرجه ابن سعد والترمذي و حسَّنه و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه والبيهقي و أحمد و ابن جرير.[1]

ومقصود النبـي ﷺ من قوله ((أما إنَّهم لم يكونوا يعبدونهم)) أي بمفهوم الناس، وليس في واقع الأمر، لأن التحليل والتحريم والأمر والنهي، هو جوهر العبادة التي تشمل في مجال الشرائع مساحة واسعة جداً، تتضمن أيضاً الشعائر التعبدية، من منطلق أنَّ تلك الشعائر تعتبر تشريعاً أيضاً، والحديث الثاني دليل على كلامنا هذا، وهو:

ب– ((عن عدي بن حاتم أنه لما بلغته دعوةُ رسول الله ﷺ فَرَّ الى الشام وكان قد تنصَّر في الجاهلية، فَأُسِرَتْ أُخته وَجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسول الله على أخته وأعطاها، فرجعت الى أخيها وَرَغّبْتُه في الإسلام، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عَدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿**إتخذوا أحبارهم**﴾ قال: فقلت: إنّهم لم يعبدوهم، فقال:

---

(1) فتح القدير، للشوكاني، ج 2 ، ص 430.

بلى، إنّهم حرَّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فاتّبعوهم فذلك عبادتهم اياهم)) (رواه أحمد والترمذي)[1].

وعلى ضوء هذه الآيات والأحاديث، تبيّن جلياً أن المفهوم والمعنى الذي تنطوى عليه حاكمية الشعب، ليس فقط خطيئة ومخالفاً للشرع، بل يعتبر شركاً بالله تعالى، وهو من أكبر الكبائر إطلاقاً، وأيّ كبيرةٍ أكبر من أن يُقْرَن مخلوقٌ بخالقه، ويجعل منه معبوداً يُعبد من دون الله! لاشك أَنَّ ذلك إثم وظلم عظيم، يتناقض مباشرة مع جوهر الإسلام والإِيمان و توحيد الله، ويتصادم معه بشدَّة.

وقبل أن نتحول الى المعنى الثاني لحاكمية الشعب، يجب أن نُبَيِّن حقيقةَ أَنَّ استنباط العلماء للأحكام الشرعية، وان كان نوعاً من التشريع، ولكنَّه أمر مختلف كل الإختلاف مع التشريع الممنوع، فعلماء الإسلام عندما يستنبطون حكماً، أو يُفْتُون فتوىً، فإنَّما يقومون بذلك في ضوء القرآن والسنة وفي دائرة الشريعة، وليس كحالة مستقلة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن علماء الإسلام وأئمته لا يتكلمون في مسألة أبداً، إذا كانت حسمت بآية أو حديث، وقد وضع العلماء بهذا الصدد قاعدة شرعية، وهي:(لا إجتهاد في مورد النص) أو (لا إجتهاد في مقابل النص) ثم يجب أن يُعلم: أن نِتاجَ إجتهاد العلماء واستنباطهم، يعتبر فهماً للدين من عندهم، ولا يجوز خَلْطُه بأصل الدين.

أما المفهوم الثاني لحاكمية الشعب، فيعني إختصاراً: إِرجاعُ السلطة السياسية للشعب، وقد أمرت الشريعة بهذا وعملت به، قبل أن يكون للديمقراطية ذكر ولا خبر، وهناك آيات قرآنية وأحاديث نبوية، تؤكد على

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير، ج2، ص140.

أَن الشعب يجب أن يختار بنفسه حُكّامَه ومسؤوليه، وبعد ذلك يقوم بمراقبتهم ومساءلتهم، اذا حادوا عن جادة الصواب والحق، وإذا أصرّوا على انحرافهم، عَزَلَهُم، فهذا المفهوم لحاكمية الشعب، مفهوم لايخالف الشرع.

وهذه بعض النصوص التي تثبت أَن الحاكمية والسيادة المطلقة، وإنْ كانت من حق الله وحده، الا أن الشعب بيده السلطة السياسية، أي أنَّ الحاكمية لله والسلطة للشعب:

1/ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء-59). وطبعاً لاتكون طاعة أولي الأمر إلا في المعروف، كما يقول الرسول ﷺ: ((إنما الطاعة في المعروف)) (رواه البخاري).

2/ ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى-28) وكما هو واضح، فإن الله تعالى يصف مجتمع المسلمين بأربع سمات بارزة، وقد وضع تعالى الشورى بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لأن الصلاة عبادة معنوية وروحية، والزكاة عبادة إجتماعية وإقتصادية، والشورى عبادة سياسية، ذلك ليُعلم أن على المجتمع المسلم، أن يسير وفق أمر الله تعالى من الناحية المعنوية والإقتصادية والإجتماعية والسياسية، فكما أن الصلاة والزكاة فرض، فكذلك الشورى فرضٌ على المجتمع المسلم، و لِزامٌ عليهم أن يُسَيِّروا أمورهم بموجبها، والإنتخابات التي تجري في هذا العصر كتطبيق للشورى، والذي ينتخب بموجبها مجلس يبحث في أمهات المسائل ثم تأتي مرحلة التصويت، وهذا هو تجسيد الشورى، والتي يُشَكِّل أصلاً كبيراً وبالغ الأهمية في الإسلام عامة ونظام الحكم فيه بصورة خاصة،

وقد اختير الخلفاء الراشدون بالشورى، وها هو (عبدالرحمن بن عوف) رضي الله عنه، بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول بأنه استفتى كلَّ الناس حتى النساء والفتيات من خلف الحجب، عن رأيهن في إختيار الخليفة الثالث، فالجميع له الحق أن يؤخذ رأيهُ في سائر القضايا ذات الإهتمام.

وقد جاء في صحيح البخاري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين، فلا يبايع هو ولا الذي بايعه، تَغِرَّة أَن يُقتلا)[1].

وعليه: فلا يجوز إغتصاب السلطة من المسلمين، أما ما قام به الأُمويُّون والعباسيون، من إنحراف بالحكم الإسلامي وجعله وراثياً، ولايزال ذلك الإنحراف قائماً الى يوم الناس هذا، حيث يموت الملك والرئيس فينصب ابنه مكانه، فهذا في الحقيقة لايَمُتُّ الى الإسلام بأدنى صلة، وهذا ظلم محسوب على الإسلام، في نظر البعض، مع أنه منه براء.

الأصل الثاني: سيادة القانون

والآن هَلُمَّ نتعرَّفْ على سيادة القانون من منظار الإسلام، فقد أسلفنا أن الذي يستحق التشريع المطلق وتحديد الحلال والحرام، هو الله تعالى **﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾**، والحكم كما بين تعالى نوعان لا ثالث لهما:

حكم الله وحكم الجاهلية: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾** (المائدة –5).

إذاً:هل الأفضل أن يحكم الله لعباده ويكونوا أمام حكم الله سواسية، أم أن يشرع لهم بشر أو طبقة، أو قوم؟! ولا شَكّ أَنَّ أحداً من هؤلاء لن يهمل

---

[1] - أنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج15، ص144، 145، لابن حجر العسقلاني.

مصلحته الشخصية، أو مصلحة قومه وطبقته و أسرته، على حساب مصالح الآخرين، لكن الله سبحانه وتعالى لا يَظلم أحداً لأجل أحد وحاشاه.

لذلك نقول: إذا كان المقصود من القانون هو الشريعة أو القوانين التي تستنبط من الشريعة من قبل علماء المسلمين، فهذا أمر لا غُبار عليه ولاشك بأن القانون بهذا المعنى، يجب أن يكون فوق الجميع، حتى الحاكم نفسه يجب أن يكون أول من يخضع له، وأما إذا كان المقصود من القانون ما يضعه شخص أو دكتاتور أو جماعة أو حزب، فهذا يُعبِّر عنه بالقوانين الوضعية، ومعلوم أن واضعي مثل هذه القوانين، لايلتفتون الى الشرع، ولا الى كلام الله ورسوله ﷺ، فلاشك أن تلك القوانين تفتقر الى الشرعية التي تجعلها مُلْزِمةً للمسلمين، وليس هذا وحسب، بل إن الذي يعتبر تلك القوانين منهاجاً، يجب اتِّباعه، يُعَدُّ كافراً، أما إذا لم يعتبره قانوناً مُلْزِماً، يجب أن يعمل به، فلا يعد كافراً، مادام عاجزاً أمام حكم ذلك القانون، ولكن إذا اعتبر العمل به فرضاً، وبَجَّلَهُ من أعماق نفسه، فقد أعطى حق التشريع لغير الله تعالى. وهذا يعتبر كفراً مُخرِجاً من المِلّة، ولكن ههْنا أمر يجب التنبّه لَهُ وهو: أَنَّ هذا الأمر مرتبط بقضايا التشريع والدين عموماً، وعنما يكون هناك تصادمٌ بين القوانين والقرارات، والنصوص الشرعية القاطعة الواضحة، ولايشمل المجالات الإدارية والفنية والعلمية البحتة، والتي قلّما تتناولها النصوص القرآنية وأحاديث الرسول ﷺ، فقد ترك الله تعالى هذا المجال فراغاً لعقل الإنسان وتجربته والتغيرات والتطورات الحاصلة في سير الحياة، فَهذا له حكم آخر، إذ الأصل في مجال المعاملات هو الإباحة، إلاّ إذا خالف أصلاً من أصول الشريعة، وقد يصبح فرضاً على المسلم، أن يأخذ كل ما من شأنه أن يفيد المجتمع، من أي مصدر جاء.

الأصـل الثـالث: حقوق الإنسان والحريات العامـة

وهذا الأصل فضلاً عن أنه لا يتصادم مع شريعة الله، بل تعتبره الشريعة واجباً على الحكام في الدولة الإسلامية أن يعملوا على أساسه و تفرض عليهم ضمان الحقوق والحرية والكرامة، ليس فقط للمسلمين، بل لجميع المواطنين، على أن شريعة الإسلام تمتاز على الديمقراطية بإمتيازات ثلاثة:

الأَول/ تحديد الآلية المناسبة لكيفية ضمان الحقوق والحريات:

حتى لا تكون حقوق الإنسان وحرياته شعاراً بلا معنى، ونظرية مجردة من التطبيق، فليس المهم هو الكلام المنمَّق، بل تجسيده في ميدان الواقع، ليكون شيئاً نافعاً، فقد حدّد الإسلام الحقوق والواجبات بين الرئيس والمرؤوسين، والجار مع الجار، والآباء مع الأبناء... الخ

الثاني/ وضع الضمانات المختلفة لحمايتها وتنفيذها:

إن شريعة الإسلام إضافة الى تحديد الآلية والكيفية التي تَضْمَنُ تلك الحقوق والحريات، فإنه وضع الضمانة والسند القوي لتنفيذها، ونستطيع تلخيص تلك الضمانات في عاملين مهمَّين:

أ- الضمانة المعنوية: وهي – بعد الإيمان والعقيدة الإسلامية – تتمثّل في تربية مستقيمة وصحيحة، يفهم المجتمع من خلالها الحقيقة العظيمة التي مفادها: أن الإنسان يتمتع بحرمة وكرامة لا تُضاهى، لأنّها نابعة من تقدير الله تعالى له: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ (الاسراء- 70) وَجعله الله خليفته في الأرض: ﴿**وَإِذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً**﴾ (البقرة- 30).

ولاشك أن الإنسان إذا لم ينظر إليه كمخلوق نادر الوجود، مسجود له من قبل الملائكة، وموكولة إليه عمارة الأرض: **﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأرض وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾** (هود- 6) .

وإذا لم يُعامَلْ وفق هذا الأساس، ولم تُضْمَن له جميع احتياجاته الضرورية بإحترام وتقدير حقيقي، فإنّه ولاشك لا يستطيع القيام بحمل أعباء الخلافة على الأرض، وواجبات الإبتلاء العسيرة التي تُمَثِّلُ الحكمة من إيجاده في الأرض.

ب- الضمانة المادية: وتتمثل في العقوبات والحدود الشرعية التي تترتب على تصُّرفات الإنسان دنيوياً وأخروياً، عندما يخرق حداً من حدود الله تعالى، ويدوس على حق من حقوق الناس، وقد وضعت الشريعة ستة أنواع من العقوبات الصارمة، لمن يتعدّى حدود الضروريات السَّبع المتمثلة في: حفظ الدين والحياة والنسل والعرض والعقل والمال والأمن.

ففي ظل الدولة الإسلامية يجب ان تكون كلاً من هذه الضروريات السَّبع مكفولةً للمواطنين، ولهذا أوجبت الشريعة على الدولة الإسلامية تطبيق العقوبات المتعلقة بالقصاص، والزنا، والقذف، وشرب الخمر، والسرقة، والإخلال بالأمن، حتى لا تتعرض للخطر كرامة الناس وحرياتهم.

الثالث/ تحديد إطار للحقوق والحريات:

إن الحريات – كما قدّمنا – إذا كانت بصورة مطلقة دون قيد أو شرط، فهذا أشبه بخلط الحيوانات الأليفة والمتوحشة مع بعضها، وإطلاق الحرية لها جميعاً، ومعلوم أن مصير مثل هذه الحرية لا تُحْمَدُ عُقْباها، ولهذا السبب رسم الإسلام دائرة واضحة لكل من الحقوق والحريات الخاصة بالناس.

وسنستشهد – بغية توضيح هذا المعنى – بمثالين في مجالَيْن:

أ- من الناحية التجارية والمالية: يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾** (النساء- 29) ويقول تعالى أيضاً: **﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾** (البقرة- 275) ويقول تعالى: **﴿فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾** (بقرة -279) وكما هو واضح من هذه الآيات الكريمة، فإنَّ شريعة الله العادلة قد رسمت الحدود ما بين الأموال المشروعة وغير المشروعة، والمعاملات الشرعية وغير الشرعية، فقد عَدَّت التجارة حلالاً، والربا حراماً، وأقرَّت في الوقت ذاته، بأن الإنسان مالك لرأسماله، وَمنعت كذلك من أن يجعل ماله وسيلة للظلم والتعدي الإقتصادي، واضطهاد الناس إقتصادياً، لأن الربا لاشك بأنّه أفظع ظلم واضطهاد يمارَسُ ضد الناس، والإقتصاديون يقولون: إن الأموال تتكدس لدى الأثرياء يوماً بعد يوم بسبب الربا، وبذلك يزداد الأثرياء ثراءً، و تَتَضخَّم رؤس أموالهم، وُيسيطر الآن (20٪) من سكان الأرض ومعظمهم من الغرب على (80٪) من أموال وثروات العالم، وأكثرهم من آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية، أي عكس ما يقول تعالى: **﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ ﴾** (الحشر- 7).

والخلاصة: إنَّ الشريعة إذ أحلت المعاملات التجارية بأنواعها، والأعمال والحرف الشرعية لإكتساب الأموال بأشكالها، فإنَّها حرَّمت الأساليب المُضِرَّة والسيئة في المقابل: كالربا والقمار والسرقه وقطع الطريق والإحتكار والإغتصاب... الخ، لذلك فإن الإسلام - بخلاف الديمقراطية - وإن كان قد كفّل الحقوق والحريات لإكتساب الأموال للإنسان، إلاّ أَنه حدَّد إطاراً ورسم حدوداً لذلك، كي لا يؤدّي غنى الأغنياء الى الإِضرار بالناس.

ب- ومثال آخر حول حرية التعبير وإِبداء الرأي: فالشريعة وان كانت أعطت الحرية والحق للأفراد في حرية التعبير عن التصورات والمواقف والمشاعر، ولكنها – على عكس الديمقراطية – لم تفسح المجال للإنسان بذريعة الحقوق والحريات، أن يسبَّ الآخرين، ويقول ما يحلو له! أو أن يتكلم على الناس في غيبتهم بغير وجه حق، لأن الإسلام يقرِّر: أنه لا حق ولا حرية على حساب مصلحة وكرامة الآخرين، من منطلق أن للآخرين حقَّ المحافظة على كرامتهم، كما تتمتَّع أنت بحرية التعبير، لذا فسبُّ عقائد الناس ومقدَّساتهم، يعتبر هضماً لأعظم حقوقهم، ولتلك العلة حرمت الشريعة ذلك حتى بحق المشركين **﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ﴾** (الانعام-108).

الأصل الرابع/ فصل السلطات

وهذا أيضاً مما لا يتنافى مع الشريعة الإسلامية، وقد فُصِلَت السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية عن بعضها طوال التأريخ الإسلامي.

فالتشريع – كما أشرنا الى ذلك مراراً – هو حق مختص بالله تعالى وحده، ثم النبّي ﷺ أيضاً له حق التشريع عن طريق ما يوحى اليه والإجتهادات التي يقوم بها، ولكن ليس ذلك تشريعاً مطلقاً، ثم إن علماء الإسلام على ضوء كلام الله تعالى وأحاديث الرسول ﷺ لهم أن يجتهدوا ويستنبطوا الأحكام الجزئية، وفق شرائطها، وعلى هذا فالتشريع أو السلطة التشريعية مستقلة بصورة طبيعية وتلقائية عن السلطَتَيْن التنفيذية والقضائية.

ويجب أن يعلم أن إجتهاد العلماء، ليس محصوراً في الفقهاء، إذ مفهوم العلم أوسع من مفهوم الفقه، بل ان ذلك حق لجميع العارفين والمختصين في

سائر نواحي الحياة، وربما كان واجباً عليهم، أن يجتهد كل في مجال تَخَصُّصِه، بما يعود نفعه على الإنسان والحياة، وأن يستخدموا عقولَهم وأفهامهم، ليتوصلوا الى الآراء والتصورات النافعة.

كما أن السلطة التنفيذية بدورها مستقلة عن السُّلْطَتَيْن التشريعية والقضائية، علماً أن في السُّلطة التنفيذية بَدْءاً بالحاكم الأعلى وصولاً إلى أدنى المستويات، لايَحِقُّ لأحد أن يحيد عن الشريعة قيد شعرة.

والسلطة القضائية أيضاً حافظت على استقلاليتها عبر التأريخ الإسلامي ولم تقع تحت ضغط السلطة التنفيذية أبداً، بل على العكس من ذلك، فقد أخضعت المحاكم في الإسلام جميعَ الحكام والمسؤولين لِسُلطتها، بما في ذلك الخليفة نفسه، الذي كان أحياناً يُستجوب في المحكمة أمام القاضي.

فمن فرط الحرمة التي أحيطت بالسلطة القضائية في الإسلام، لم يجرؤ حاكم، ولا حدَّث نَفْسَهُ أن يتدخل في شؤونها، ولا نحسب هذه الحالة وجدت في ظل أي نظام آخر غير الإسلام، و أودّ أن أستشهد – ههنا – بمثالين فقط:

الأول: أراد الخليفة عمر بن الخطاب ﵁ أن يشتري فرساً من أعرابي، فأخذه حيناً لإختبار صولته، ثم بدا له أن في الفرس عيباً، فقال للأعرابي: إن في فرسك عيباً ولا أريده، فردّ الأعرابي: بأنه سَلّمه اليه سالماً من العيوب! فتجادلا ساعة، ثم بلغ بهما الأمر الى الذّهاب للقاضي (شُرَيح) لحسم القضية، وكان شُرَيْح رجلاً فَطِناً وعالماً عادلاً، وعندما رويا للقاضي قصتهما، قال شُرَيْح لعمر: أمامك خياران تختار أيهما شئت: إما أن تشتري منه الفرس بثمن مثله، وإمّا أن ترجع له الفرس سالِماً كما سلّمه لك، وهكذا

حكم شُرَيْح للأعرابي على عمر رضي الله عنه الذي خضع للحكم دون أن ينبس ببنت شَفَةٍ[1].

الثاني: المثال الثاني من حياة الخليفة الرابع علي بن ابي طالب رضي الله عنه عندما رجع رضي الله عنه من معركة صفين و وصل الكوفة، وقعت منه دِرْعٌ فأخذها يهودي من ساعته، وعندما قال علي بأنه صاحب تلك الدِرْع، أنكر اليهوديُّ عليه ذلك، وادَّعى ملكيتها، فتحاكما الى القاضي، وكان هو نفسه شريحاً، فطلب من الخليفة شاهداً يشهد له، فلم يجد علي رضي الله عنه، سوى ابنه الحسن رضي الله عنه شاهداً، فلم يقبله شُرَيح لأن شهادة الأبناء لا تقبل للآباء، فقال علي: سبحان الله! الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، فقال شُرَيح هذه منزلة للقيامة وليست للدنيا، ولما لم يجد الخليفة له شاهداً، قضى عليه شُرَيح لصالح اليهودي، فشهد اليهودي الشهادتين من فوره، وقال: والله هذا حكم الأنبياء! خليفة المسلمين يقف مع يهودي لا يؤمن بشريعة الإسلام أمام القاضي، والقاضي يحكم لليهودي على الخليفة، وهو يعلم أنَّه صادق، ولكنه لا يَملُك دليلاً وفق الشريعة، فيصدر الحكم عليه[2]!!

---

[1] - أنظر: تأريخ القضاء في الاسلام، للشيخ عرنوس، ص31، و (النظام السياسي الإسلامي..) للدكتور منير حميد البياتي، ص269.

[2] - البداية والنهاية، لابن كثير، ج8 ص4.

الفصل خامس

الإِستنتاج

آن الأوان أن نستطلع النتيجة التي توصلنا اليها في أعقاب بحثنا حول الديمقراطية.. وهي ملخصة في النقاط التالية:

الأولى: إنني أرغب من إخوتي وأخواتي الإسلاميين، أن يكونوا منصفين دائماً وهم يقيّمون نظرية أو كلاماً.

رغم أن هناك من يظلموننا نحن الإسلاميين، ويقولون بأنّنا على خَطَأ دَوْماً، وأنّنا كذا وكذا، وأنه لا خير فينا أبداً!! وهذا تصور غير منصف، فلا أريد أن نكون نحن أيضاً مثلهم نحاكيهم في أخطائهم، والإنصاف صفة حسنة في الإنسان، وفيما يخص الديمقراطية فإنّي أقول: الديمقراطية أهون الشرين، لأننا إذا قارنا الديمقراطية مع الدكتاتورية، سواء دكتاتورية البروليتاريا أو غيرها، أو إذا قارنّاها مع الثيوقراطية –وللأسف فإن الكثيرين يُخْطِئون عندما يخلطون بين الحكم الإسلامي والثيوقراطية – والثيوقراطية عبارة عن الحكم الذي كان سائداً في أوربا، إذ كان البابا والإمبراطور يحكمان باسم الله في الأرض، وكانوا يقولون بأنّهم خلفاء الله وظِلّهُ على الأرض، وهذا غير موجود في الإسلام أصلاً، فالحكومة في الإسلام حكومة مدنية، والناس هم الذين يختارون حكامهم، ولا يختار الله تعالى أحداً من عنده، بل الله يرسل الأنبياء برسالات الهداية الى البشرية، والأنبياء عليهم السلام، لا يعلنون الحكم الإسلامي حتى يوقنوا بكون

الناس معهم، وإلاّ فكل مَن دون الأنبياء، من الحكام والخلفاء الشرعيين فإنَّما تصدَّروا مناصبهم بتفويض الناس لهم، وإن الحكّام لا يعتبرون شرعيين الاّ إذا تمّ انتخابهم من قبل الناس أنفسهم، أقول: إذا كان بديل الديمقراطية هو الدكتاتورية أوالثيوقراطية، وما هو من هذا القبيل، فالديمقراطية أقلُّ شرّاً من ذلك بكثير، ونحن في تقييمنا للديمقراطية وغيرها من المناهج والنظريات الأخرى، يجب أن نكون حذرين وألاّ نخلط الحق بالباطل، وأن نقوم بغربلتها بما يتواءم مع مقتضى العدالة لِنُميِّز صالحها من فاسدها، فَنُنْزِل الصدق والحق منزله، ونُنْزل الخطأ والباطل منزله، ولنعتبر كيف أن الله جل جلاله يوجه خطابه الى أهل الكتاب، بأن لا يخلطوا الحق بالباطل: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** (آل عمران –71).

أو قوله تعالى: **﴿وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾** (البقرة– 42).

إن مشكلة المناهج الوضعية أَنَّها تخلط بين الحسن والسيء، والحق والباطل، لكننا يجب أن ننظر الى حقهم بمعزل عن رؤيتنا لباطلهم، والله تعالى يقول: **﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾** (المائدة– 8).

علينا أن نقول: نقر لكم بكلامكم هذا، وقولكم ذاك، لأنه حق، ولكن هذا وذاك لايُجْدي نفعاً، والإسلام لايأمر أَتْباعَهُ بمثل هذا، لا أن نقول: يا فلان! كل ما عندك من سِقَطِ المتاع لايُجْدي فتيلاً!! هذا حكم عاطفي، فليس هناك أحد ليس لديه شيء نافِعٌ، وليست هناك من فكرة تخلو من أية فائدة، الإشتراكية – مثلاً – التي ظهرت كردٍّ فعل للرأسمالية واظطهادها للطبقة العاملة، كيف يستقيم أن نقول إنّها مجردة من كل

نفع؟ بل فيها – بلا ريب – أشياء نافعة، ولكن التي لاخير فيهاهي فلسفتها والأساس الذي بنيت عليه، وهكذا الديقراطية، وسآتي بنموذج لبيان المصير الذي آلَتْ إليه الديمقراطية الغربية في ظل العلمانية والعولمة:

مما لم يعد الحديث عنه عَيْباً ولاعاراً، بل غَدَتْ تلفزيونات العالم تتحدَّث عنه، ويُناقَشُ في أرْوِقة البرلمانات، هو زواج الرَجُلِ من رجُلٍ مثله، أو امرأة بامرأة مثلها!! تصوّروا إن مثل هذا العار والشنار يتم بموافقة البرلمان والبرلمانيين!! لأن قضية الحلال والحرام إذا أُسند الى الشعب، فلا ينتظر منه إلاّ الوصول الى هذا الحضيض.

(كلنتون) كما تعلمون جميعاً، وفي سبيل الدعاية الإنتخابية، إعتبر الذكورية (اللواطة) أمراً مشروعاً ليكسب أصوات الشذاذ الّذين تغصّ بهم الولايات المتحدة!

تأملوا في الإنسان عندما لايعرف ربه، ولا يلتزم بالحلال والحرام الذي حدده الله سبحانه وتعالى، فإنَّه يفعل ما بدا له، فإذا قيل له: إن إباحة اللواطة ضرورية لزيادة الأصوات، أسرع الى إباحة ذلك، وإذا قيل له إن إشاعة الربا من شأنه أن يُحَبِّبك إلى اليك أصحاب رؤوس الأموال، سارع الى نشر هذا الداء في طول البلاد وعرضها، وإذا قيل إنه من الأفضل أن تكون القدس عاصمة لإسرائيل (ولا أدري ما دخل الكونغرس الأمريكي ببلد مثل فلسطين) سارع الكونغرس الى إقرار القدس عاصمة لإسرائيل إرضاءً لِلّوبي اليهودي.

الثانية: علينا أن نكون موقنين أَنَّ الشورى في الإسلام ليست مرادفة للديمقراطية في الغرب، وللأسف فهناك من الإسلاميين من فهموا هذا الفهم المعوجّ فيقولون: الإسلام ديمقراطي أيضاً.

ولو قلت له كيف؟ قال: أليس في الإسلام شورى؟! والشورى تعني أن المسلمين يتشاورون فيما بينهم، ويَتباحثون، ولكن هذا كله في إطار الشريعة وفي ضوء القرآن والسنة، وَليس في حال إقصاء الشريعة جانباً، والقيام بالتحليل والتحريم بعيداً عن منهج الله، وهناك من يقول: إن المسلمين إذا طبقوا الديمقراطية فإنّما يطبقونها بما يوافق الإسلام!!!

ونحن نقول: وأنىّ يقال لها حينذاك ديمقراطية؟

ومن هؤلاء: الدكتور يوسف القرضاوي، وأنا شخصياً أحترمه، الحق إنّه كاتب مبدع، وعالم قدير، جزاه الله خيراً، فله كتب مفيدة جداً، ولكنه في مسألة الديمقراطية قد أخطأ – في نظري – فهو يقول في كتابه (من فقه الدولة في الإسلام) ص (37)، ما نَصُّه:

(ان جوهر الديمقراطية بعيداً عن التعريفات والمصطلحات الأكاديمية، هو أن يختار الناسُ من يحكمهم ويسوسُ أمرهم، وألاّ يُفْرض عليهم حاكم يكرهونه أو نظام يكرهونه، وأن يكون لهم حق محاسبة الحاكم إذا أخطأ، وحق عَزْلِهِ وتغييره إذا انحرف..)[1].

ثم يقول في الكتاب المذكور بناءً على ماحرَّ ذكره:

(الواقع ان الذي يتأمَّلُ جوهر الديمقراطية يجِدُ أنه من صميم الإسلام)[2].

لكننا نقول له في الإجابة:

نعم ما ذكرته، هي بعض آليات الديمقراطية، وهي في ذواتها أمور حسنة ولكن شريطة رَبطها بأساس صحيح، وضمان عدم سوء الإستفادة منها، إن جوهر الديمقراطية وأصلها المتأصِّل هو حاكمية الشعب، أي أن يشرع

[1] ص32.
[2] ص37.

الشعب لنفسه ما يراه حسناً وما تُسَوِّل له نفسه، دون أدنى إلتفاتة الى قـول الله و رسوله والدين، فيما يقوم بإختياره ورفضـه، هـذا هـو جوهرهـا لعمـر الحق، ثم إِن الديمقراطية لا يقال لها ديمقراطية اذا جُعلت لاتخالف الشريعة في قليل أو كثير، ولايصح أن يُطْلَق عليهـا هـذا الإسـم حينـذاك، لأن الحكـم بمـنهج الله هــو حكــم الله، ولــيس حكــم الشـعب، وكــذلك تغــيير إســم الديمقراطيــة، كمــا يحلــو لــبعض الغــافلين مــن الإســلاميين تســميتها بـ(شوراقراطي) فهذا أيضاً خطأ فـاحش لامبـرِّر لـه، لأن مـا يُمـارس بإسـم الديمقراطية، من ناحية تحديـد الحـلال والحـرام والحـدود المرتبطـة بالشـريعة الإسلامية، مع الإلتزام بالشرع، فهذا لا يصح تسـميتها بالديمقراطيـة، وأمـا إذا كانت لا تحفل برأي الشريعة، بل ترجع في كل شيء الى رأي الجمـاهير، فهذه هي الديمقراطية بعينها، ولا ينبغي أن تُسمّى بغير إسمها.

الثالثة: وفي هذه الوقفة الأخيرة مع الموضوع، أرى من الضروري أن نعـرض لذكر هذه الحقائق الثلاث:

1- ان الإسلام بديل عن الديمقراطية[1] وعن كل منهج وطريقة أخرى، لأن في الإسلام – قطعاً – كل ما في تلك المناهج من الإِيجابيات، وليس فيه شيء من الأخطاء والأباطيل التي فيها، والحديث عن النظام السياسي في الإسـلام، وإن كان يقتضي مكاناً و وقتاً آخر– وسنقوم بذلك لاحقـاً إن شـاء الله –، ولكننا سنشير هنا الى أصوله العامة، وهي عشرة أصول[2]:

[1] ولكن لامانع من الإستفادة من الديمقراطية وآلياتها التي تمخَّضت عنها بعد تجارب مريدة، إذا يجب على المؤمنين أن يَلْتقطوا الحكمة من أي وعاءٍ خرجت، كما قال تعالى: (فَبَشِّر عباد* الّذينَ يَستَمعونَ القَولَ فَيَتَّبِعونَ أحسنَه أولئك الّذين هَداهُمُ الله فأوُلئك هُمْ أولوا الألباب) الزمر-17،18-.

[2] - وقد قدمتُ أكثر من (50) حلقة تلفزيونية على قناة (**پيام**) الفضائية تحت عنوان: (الإسلام والحكم والدولة) ثم جعلت تلك البرامج كتاباً في أربعة مجلدات كل مجلد يحتوي على محور أساسٍ.

1/ الحاكمية العليا لله وحده.

2/ السيادة لشريعة الله تعالى.

3/ السلطة للشعب.

4/ الشورى أساس إدارة الأمور.

5/ العدل المطلق مع الجميع.

6/ مساواة الناس في الكرامة والحقوق والحرية.

7/ الإلتزام بالدستور والقوانين.

8/ الطاعة في حدود الشرع فقط.

9/ الجميع مسؤولون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول الحق ومراقبة المسؤولين، ومساءلتهم وتقويمهم، وإذا توجب الأمر إزالتهم وتنحيتهم.

10/ تحلّي كل من ولاة الأمر والمجتمع، بالأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة.

2- ان الإسلام يحتوي على جميع الجوانب الإيجابية في الديمقراطية، ولكن بشكل أفضل وبعيداً عن أخطائها وقصورها، وهو بريء من سلبياتها ونقاط الضعف فيها، وخصوصاً جوهرها ومضمونها الذي هو عبارة عن تأليه الإنسان، مُمثَّلاً في البرلمانات أو المجالس النيابية، التي تُشَرِّع للناس بغير إذنٍ من الله تعالى، والحقيقة أن النواحي الإيجابية في الديمقراطية والتي هي عبارة عن الآليات التطبيقية، تصبح – من منطلق جوهرها الشركي – كمجموعة من الجنود الشجعان، لكنهم أسرى لدى طاغوت مستبد! ولذلك لا يصدر عنهم الاّ الشر، ولكن الإسلام بحكم ربطه لتلك الآليات بأصول

محكمة وصَلْبة، والتي تمنعها من التغير والفساد، فإِنه بمأمن مـن تلـك العقبـى السيئة.

3- لا يُنْكَر أَن نظام الحكم الإسلامي، بعد العهـد الذهبـي للنبّـيّ ﷺ وخلفائه الراشدين (رضي الله عنهم)، ومن جرَّاء زوال الشورى بسبب نظام السلطة الفردية التي سماه النبـيّ ﷺ ملكاً جبرياً وملكـاً عضوضـاً، والـذي بدأ منذ عهد معاوية بن أبي سفيان، فإن الآليات الإدارية فيه، لم تتطور، كما ينبغي، بخلاف الديمقراطية، ولكن بما أنَّ:

أ- المسلمون عليهم أن يبحثـوا وراء كـل شـيء حسـن {..فَبَشِّـرْ عِبَـادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِـكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} الزمر -17و18-.

ب- ان النبـي ﷺ وخلفاءَه الراشدين من بعده وخصوصاً عمر بن الخطاب (رضي الله عنهم)، استفادوا من الناحية الإدارية من دولة فـارس والـروم وتعلموا منهم كثيراً، دون أن يشعروا بضيق أو حرج.

ج- إن كثيراً من التطور الحاصل في النواحي السياسية والإدارية والعلمية في الغرب، كان ابتداءً نتاجاً وحصيلة للتأثيرات التي أوقعتها علـيهم الحضـارة الإسلامية، هذا بـإعتراف كـثير مـن منصـفيهم، لِـذا: فالإسـتفادة مـنهم ليست مباحة وحسب، بل واجبٌ متعيِّن!

كانت هذه خلاصة عن الديمقراطية في ضوء العقل والشرع، آمل أنّي تمكنت من إِيفاء الموضوع حقَّه، على قدر الفرصة التي أتيحت لي.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم،ومن سار بسيرته واهتدى بهديه الأقوم.

الحلقة الأولـى و الثانيـة

من برنـامج : التقصِّـي

الديمقـراطيـة والإسـتبداد..
و موقف الإسلاميـين إزاء هـما

لقـــاء أجراه برنامــج (التقصـِّـي)

في تلفـزيـون الجمــاعـة الإسـلاميـة

مع الأسـتاذ (علـي بـاپيـر)

تمهيـد

قارئي الكريـــم!

هذه الصفحات التي تتناول موضوع الديمقراطية، نص لقاء من حلقتين في تلفزيون الجماعة الإسلامية من قبل الأخ (توفيـق كـريم) مـع العبـد الفقـير، وذلـــك في الحـــادى عشـــر مـــن رمضـــان عـــام (1423) الموافـــق لـ(2002/11/16) في قرية أحمد آوا.

وقد رأينا – تقوية وإغناءً لبحثنا عن الديمقراطيـة – أن نضـمّهُما الى هـذه السلسلة، وجدير بالذكر أنهما فرغتا مـن الشـريط مـن قبـل بعـض إخوتنـا جزاهم الله خيراً، وقد راجعتهما بنفسي.

الحلقـة الأولـى

الحمـد لله رب العـالمين والصـلاة والسـلام علـى رسـول الله، ومـن تبعـه بِإحسان إلى يوم الدين.

أيها الكرام !

يسرنا أن نلتقي معكم كرة أخرى في حَلَقةً أخرى من برنامج (التقصِّي) والذي نستضيف فيه هذه المرة الشـيخ (علي بابير) أمير الجماعة الإسلامية.

أعــزائي!

كثيراً ما تُثار أسئلة مفادُها: أنَّ الإسلاميين ليست لديهم مواقـف واضـحة من القضايا ذات الأهمية في الساحتَين الفكرية والسياسية، مثلاً: ماهي نظـرة الإسلاميين للديمقراطية؟ وللعلمانية؟ وتُجاه القضـية الكرديـة؟ وقضـية المـرأة ؟... إلخ.

هذه الأسئلة وغيرها يواجه بها العلمانيون الإسـلاميين، بـأنهم لا يملكـون موقفاً إزاءها! ولكن يمكننا القول إن هذه مسألة نسبية، فـلا يسـتقيم القـول أَنَّ جميع الإسلاميين ساكتون عن هذه القضايا، وأحسب أن أحد أبرز الـذين أبْدَوا تصوراتهم ومواقفهم من المنظور الإسلامي، وفهموا تلك القضايا علـى حقيقتها، هو الأستاذ (على بابيـر)، إذ هو منذ بداية الثمانينات، أعلن آراءه الخاصة حول تلك القضايا، سواء في المجالس أو المحاضرات والإِجتماعـات أو الكتب التي نشرت له، ثم إنّه بعد الإنتفاضة (سنة 1991) حيث بات المجال

رحباً وفسيحاً، أبدى تصوراته وقناعاته بأوضح وأبين من ذى قبل، ولكنه بعد إعلان (الجماعة الإسلامية) أضحى يُعْلِنُ عن تلك التصورات والآراء بصورة أكثر صراحة وانتظاماً، فبحكم كون فضيلته أميراً للجماعة الإسلامية، أصبح من قناعته أن يُماط اللثام عن كل القناعات والتصورات التي عليها (الجماعة الإسلامية) والشخص الأول فيها، وقد عقد فضيلته عدة ندوات في الآونة الأخيرة في السليمانية عن الإرهاب وحقوق الإنسان، والعلمانية، وَالديمقراطية وَكل القضايا التي تمثل قضايا الساعة، وَالسائدة في الساحة العالمية عامة، وساحة العراق وكردستان خاصةً، وأكثر تلك القضايا إثارة للجدل هي الديمقراطية، ونحن بغية تسليط الضوء على هذه القضية، ومن أجل معرفة رأي فضيلته، رأينا من الضروري أن نكرس حلقتين من هذا البرنامج لمسألة (الديمقراطية والإستبداد وموقف الإسلاميين منهما) وسنعرض أسئلتنا على الأستاذ بكل صراحة...

بداية نرحب أجمل ترحيب بالأستاذ علي بابير فأهلاً بك وسهلاً:

+ اشكركم، وإنَّني سعيدٌ بهذا اللقاء معكم.

- إذا أمكن أن تُعَرِّفوا لنا بإختصار المصطلحين اللّذَيْن وردا في عنوان هذه الحلقة (الديمقراطية والدكتاتورية وموقف الإسلاميين إزاءهما) ليكون ذلك بداية الولوج إلى مناقشة الموضوع.

+ نعم، بسم الله الرّحمن الرّحيم: الحمد لله والصلاة وَالسلام على رسول الله محمد وآله المهتدين بهداه (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً) ابتداءً أحييكم وأشدُّ على أيديكم لإختيار هذا الموضوع، لأنه من الواضح لأهل الإسلام، أن للإسلام جواباً على كل سؤال، وَلَديه حَلٌّ

لكل معضلة، أما هل يستطيع المسلمون أن يستنبطوا ما في الإسلام ويَعْرِضوه، ويُحِلّوا به مشكلات مجتمعاتهم، و يجيبوا به على الأسئلة التي يثيرها المثيرون، أم لا؟ فهذا أمر يخص المسلمين أنفسهم، أما الإسلام الّذي هو منهج إلهي متكامل لتنظيم حياة البشر، على طول الزمان وعُرْض المكان، فإِن ذلك لاشك أنّهُ في مقدوره.

فيما يخص الديمقراطية، فقد سبق لنا عقد ندوة حولها، وما أراه مناسباً للقول هنا عن تعريف الديمقراطية، فهو التعريف السائد الذي مفاده: أن الديمقراطية عبارة عن حكم الشعب للشعب من أجل الشعب. ومعلوم أن الكلمة نفسها مكونة من مقطعين: ديموس، و كراتوس، أي حكم الشعب، ولكن إذا أردنا لها تعريفاً أوضح وجب أن نقول: إنّها عبارة عن أسلوب و نظام في الحكم لايتقيد بشيء سوى إرادة الشعب، ولها عدة أصول: (حاكمية الشعب) من أهمها، ومنها (سيادة القانون) و(فصل السلطات)، و(حكم الأغلبية على الأقليته) و (الحريات العامة) مثل: (حرية التعبير وإبداء الرأي)، و(الحرية الشخصية)، و(الحريات السياسية والإِقتصادية والإِجتماعية).

– هل الإستبداد نقيض الديمقراطية؟

+ الإستبداد، أو الدكتاتورية والتي هي كلمة أجنبية تترجم في العربية بالفردانية، والحكم الفردي، وقبل أكثر من (100) عام ألّف (عبدالرحمن الكواكبيِّ) كتابه: (طبائع الإستبداد ومصارع الإستعباد) والذي يتحدث فيه بإِسهاب عن ذلك الأسلوب من أساليب الحكم، ويذكر أضراره وآثاره المشؤومة.

إذاً: حكم الدكتاتورية هو حكم الفرد، حكم حاكم واحد، يضع القوانين وينفذها أيضاً، ويضع تحت إمرته وطوعه السلطات القضائية كذلك واختصاراً: فهو يستولي على السلطات الثلاث جميعها.

– تفضلتم في تعريف الديمقراطية بأنها أسلوب حكم لايتقيَّدُ بغير إرادة الشعب، أي لاتَحْسِب لله ولا للدين حساباً، وأنا أقول: مع أنَّ الإسلام منهج إلهي مستقل، لكن لاشك أن المناهج الأخرى سماوية كانت أو أرضية، هناك بينها و بين الإسلام نقاط مشتركة.

سؤالي هو: هل الإسلام أقرب الى الديمقراطية أم الى الدكتاتورية؟

+ للجواب على سؤالك هذا، أرى أن ننظر الى هذه المسألة نظرتين:

نظرة من الناحية التأريخية، وأخرى من منظور النصوص الشرعية، ومعلوم أن التأريخ الإسلامي لم تنقطع صلته بالنصوص الشرعية – وإن ضَعُفَتْ في بعض الفترات –، أما عندما يكون المسلمون قد حادوا عن الطريق، فهناك يصح أن نقول: إن ذلك كان تأريخ المسلمين وليس تأريخ الإسلام، أي إن المسلمين قاموا بكذا وكذا، أما كم كان مقدار تمسكهم بدينهم؟ فهذه مسألة أُخرى، ولكن ليس من الإِنصاف ان نَحْسِبْ أخطاء المسلمين على الإسلام.

وقد أسلفت أن الديمقراطية تتلخص في حصر كل شيء وجعله بيد الشعب، هذا هو المرتكز الأهم في الديمقراطية، والتي تستند عليها سائر الأصول، والديمقراطية – لاشك – إن لها نقاط مشتركة كثيرة مع نظام الحكم الإسلامي، لأن المجتمع في النظام الديمقراطي يحدِّد بنفسه كيفية إدارة حياته بواسطة الّذين ينتخبهم، والّذين يتمتعون بالسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وفي نظام الحكم الإسلامي، عدا أَنَّ الله تعالى حدد

لعباده مجموعة من الأصول والضوابط تتمثل في الشريعة، وليس لأحد مخالفة ذلك ولا العبث بها، بدءاً بالنَّبيِّ ﷺ ووصولاً الى أي مسلم ضمن سائر المسلمين، كما يقول تعالى: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾** (الجاثية– 18).

وواضح أن هذا الخطاب موجه للنَّبيِّ ﷺ، وعليه فإن الرسول ﷺ أيضاً ليس له الحق في الإختيار أو الحياد، ولا يسعه الا الإتباع، وما خلا هذا الّذي قاله تعالى، و نصَّ عليه في شريعته المتجسِّدة في الكتاب و السنة، فإنَّ الأصل فيه –أي في مجال الحكم والإدارة– هو الإباحة وإطلاق اليد، شريطة عدم التصادم مع نص شرعي، فمثلاً كيفية العمل بتلك الشريعة، وكيفية إختيار المسؤولين، ثم مراقبة المسؤولين للتأكد من مدى إلتزامهم بالشرع، ثم كيفية إدارة البلاد، وضمان المصالح وإبعاد المخاطر، وكيفية تطوير البلاد وتنميتها، وضمان الحياة الرغيدة للناس، سواء للفرد أو المجتمع... الخ، فهذا كله موكول إلى الناس الّذين ينضوون تحت راية شريعة الله تعالى، ومما يُسْتَدَلُّ به على هذا قوله ﷺ: (أنتم أعلم بأمر دنياكم)رواه مسلم:6081، أجَلْ! فقد أرسل الله تعالى شريعة، يجب على الجميع الإلتزام بها بدءاً بالنَّبيِّ ﷺ، أو خلفيته، سواء سمّي خليفة أو أميراً للمؤمنين، أو رئيساً للجمهورية، أو ملكاً، أو سلطاناً، أو أي لقب آخر، فليست العبرة بالأسماء وإنّما العبرة بالمسميات، ووصولاً الى المجتمع فرداً فرداً، فليس من أحد يكون فوق الشريعة البتة، وعليه: فأكثر المسائل الموجودة في الديمقراطية نحن ننظر إليها كآلية، والإسلام لا يتصادم معها، ولكن الإسلام يرفض جوهر الديمقراطية الكامن في وضع

التشريع المطلق بيد الشعب، الإسلام يقول كلاّ، فهذا من حق الله تعالى وحده كما يقول تعالى:

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ﴾(يوسف -40). .

وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى-21).

فالتشريع من حق الله وحده، أما ما يقوم به العلماء من الإستنباط والإجتهاد، خصوصاً في النواحي السياسية والإدارية والإقتصادية، فهذا تشريع جزئي مرتبط بالإطار الذي تضعه الشريعة لهم.

- فضيلة الأستاذ تفضلتم بأن للإسلام نقاط مشتركة مع الديمقراطية.

+ نعم.

- لكن لا يحق لأحد – في الديمقراطية – أن يكون حاكماً مدى الحياة.

+ نعم .

- الشخص الأول في الدولة، حسب قوانين الدول، يحق له البقاء في الحكم لثلاث سنوات أو أربع أو خمس أو أكثر.

+ هذا صحيح.

- ولكن ليس الأمر في الإسلام على هذا النحو، فالخلفاء الأربعة حكموا حتى نهاية حياتهم.

+ هذا صحيح، فقد بقوا في الحكم الى أن توفوا أو استشهدوا، وسأجيبك على هذا: الديمقراطية لها بعض الآليات والمفردات، ومعلوم إن جوهرها لا يتفق مع روح الشريعة كما ذكرنا، لأنه يفوض الحق للبرلمان في التشريع، والأصح أن نقول: إن الديمقراطية تفوض الحق للناس في إنتخاب البرلمان، والبرلمان يُعْطى الحرية كامِلةً لإختيار ما يبدو له و رفض

ما لايحلو له، واختصاراً فهو طليق يفعل ما يشاء، وهذا يصطدم – كما هو معلوم – مع كون الحاكم المطلق والشارع الأوحد في الإسلام هو الله تعالى، أما مسألة تداول الحكم، ومسألة الإنتخاب، ومسألة الأغلبية وحكمها على الأقلية، وسائر المسائل الإجتهادية التي تحتمل الجدال والنقاش وأهل الإختصاص مختلفون حولها، وكذلك مسألة الحقوق والحريات وكلها مفردات ديمقراطية، فهذه كلها مقرّرة في النظام الإسلامي، والآن لنرجع الى المسألة التي أثرتها، وهي (مدة الحكم) هذا الأمر لم يُحَدِّدْ في الإسلام، لا الحد الأعلى له ولا الحد الأدنى، فلم يرد أن الخليفة يجب أن يكون حاكماً الى آخر عمره، ولم يحدد له وقت أصلاً، وهذه من المسائل التي تقبل النقاش والإجتهاد وهي متروكة لعلماء الأمة ورأي الناس.

– لكن أليس النَّبيُّ ﷺ يقول: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، أليس هذا صحيحاً؟

+ نعم هذا صحيح.

– ألا تصبح سيرة هؤلاء نهجاً لحياتنا؟

+ كلاّ، إن سيرة أولئك الخلفاء (رضي الله عنهم) لا تصبح نهجاً مُلْزِماً لنا لأنهم أيضاً إجتهدوا عند عدم وجود النص الصريح، فنحن نرى أبابكر رضي الله عنه فعل شيئاً لم يفعله عمر رضي الله عنه بل انتقده، وعندما تسلّم عمر الحكم عمل بما رآه حسناً، والنبّي ﷺ يقول ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)) فمنهج الخلفاء بالنسبة لنا عموماً موضع إقْتداء، ولكن ليس ذلك في آحاد المسائل، فمثلاً إذا اختلف أبوبكر وعمر (رضي الله عنهما) في مسألة، فأيّ الرأيين نختار؟ أو إذا اختلف أربعتهم حول مسألة كيف سيكون إختيارنا؟ أيعقل أن نطبق الآراء الأربعة

المتناقضة في آن معاً؟! وعليه: فنحن مرتبطون بالنصوص الشرعية، وننظر إلى إجتهاد العلماء وآرائهم، حتى إجتهاد الخلفاء الراشدين أنفسهم، كآراء بشرية وفقه و إجتهاد، نعم، سنة الخلفاء عموماً تشكل لنا قدوة، ولكن ليس بالضرورة في كل مفردة منها بعينها، والنَّبيُّ ﷺ يقول: ((ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضّوا عليها بالنواجح))(رواه أحمد و أبو داود وابن ماجة وغيرهما) وهو صحيح.

نفهم من سياق الحديث أن مقصود النبي ﷺ أن سنة الخلفاء – حال إختلاف الأمة – هي المرجع والمقياس الصادق، من حيث إسلوب الحكم في خطوطه العريضة: (1)فهم المختارون من قبل الأمة بالشورى والبيعة، (2)وهم الملتزمون بالشرع إلتزاماً ممتازاً، (3)ويستشيرون الناس، ويقبلون إنتقاداتهم، (4)ويعاملونهم بالعدل، (5)ولا يمدون أيديهم الى أموال المسلمين... الخ.

أما مسألة مدة الحكم التي تنص الديمقراطية على وجوب كونها أربع سنوات أو خمس أو ست أو غير ذلك، فليس ذلك آية لا ينبغي تغييرها، ومدة خلافة أبي بكر كانت سنتين وثلاثة أشهر وكان الناس يتمنون لو طالت عشر سنوات، ثم كما يحق للنظام الديمقراطي الغربي أن يحدد مدة للحكم من أربع سنوات أو أكثر، فكذلك يحق لنظام الحكم الإسلامي أن يحدد دورة من عشر سنوات، ويجيز الإنتخاب لثلاثة دورات، فالمهم أن يكون الإنتخاب من قبل الشعب، فإذا شاء الناس أن يولوه السلطة لخمس سنوات أو لعشر... أو يكون من حق الرئيس أن يُنتخب لدورة أو دورتين أو ثلاث، ليس من حق أحد أن يُلزم الآخرين بهيئة واحدة لذلك،

لأن الديمقراطية بما تحملها من مفردات، هي تجربة الناس في الغرب في مجال الحكم، ولو استمر نظام الحكم الإسلامي على الأساس الذي بُنيت عليه الخلافة الراشدة، فمن المؤكد أن يكون هناك الآن بدل التجارب الخمس (أبوبكر وعمر وعثمان و علي) و (عمر بن عبدالعزيز) الّذي يُعدُّ الخليفة الراشد الخامس (رضي الله عنهم) جميعاً، كان هناك عشرات الصور للحكم، كلها في إطار الشرع ووفق آلية الشورى، وذلك لأن قضايا الإنتخاب وحكم الأكثرية وتداول الحكم... الخ، كلها تعود الى أصل الشورى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى -38).

- في مجال الآليات، تأتي مسألة الإنتخابات:

فنحن إذا نظرنا الى التأريخ الإسلامي وجدنا أنّه قلّما جرت الإنتخابات، فهل الإنتخاب أصل من الأصول، أم أن ذلك من حق الخليفة أن يوصي بالخليفة من بعده، هل الأمر هكذا، أم أن الناس هم الذين يختارون الخليفة؟!

+ يقول تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى -38)، وقد ورد هذا التوجيه القرآني في سياق آية من (سورة الشورى) هذا نصّها: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى -38).

حددت الآية أربعة أوصاف للمسلمين: الإستجابة لله تعالى، وهذه صفة عامة، ثم تذكر الآية الخصال الأخرى، فتقول: (وأقاموا الصلاة) لأن الصلاة أساس الناحية المعنوية، والفرد المسلم أو المجتمع المسلم يجب أن تكون لديهم صلة روحية مع خالقهم، فيسجدون له ويركعون، ومعلوم أن الصلاة تعد أكبر شعيرة من شعائر الإسلام، سواء للفرد أو المجتمع، ثم

تقول الآية: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ وهذا أساس الأمور الإجتماعية والنشاطات السياسية، ووردت في الآية بعد ذلك ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى -38). وهذا شعار الناحية الإقتصادية، إذاً: فتلك النواحي الروحية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية، يجب أن تكون بالهيئة التي تُرضي الله تعالى وَعلى أساس تلك الأسس الثلاثة، وقد نُفِّذَتْ مسألة الشورى في زمن النبيَّ ﷺ على أحسن ما يرام، يروي أحد أصحاب النَّبيِّ ﷺ (ما رأيت أحداً قط أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ) (رواه الترمذي و أحمد و الشافعي عن أبي هريرة رضي الله عنه).

ونحن لو تأملنا سيرة النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام، لوجدناه ﷺ كلما لم يرد نص حول مسألة من المسائل، سارع عليه الصلاة والسلام في إستشارة أصحابه رضي الله عنهم، وكان يأخذ برأي الأكثرية في القضايا العامة، و برأي أهل الإختصاص في القضايا الفنية التي يتحكّم فيها الإختصاص.

- تفضلتم بأنه كانت هناك شورى، ولكن كيف كانت مسألة الإلتزام بالأكثرية، أي هل المشورة أخذ الآراء فقط؟ أم الإلتزام بها أيضاً؟.

+ هناك اختلاف بهذا الصدد بين العلماء، وهو: هل الشورى مُلزِمة أم مُعْلِمةَ؟

ولكن الإنسان إذا تملّى في الآيات القرآنية، بَدَتْ له المسألة واضحة جداً، لأن الله تعالى جعل الشورى بين الصلاة والزكاة، فهل الصلاة فرض أم لا؟

- فرض طبعاً.

+ والزكاة هي أعظم أنواع الواجبات وبعد الصلاة؟

– فرض أيضاً.

+ فالله سبحانه وتعالى وسّط الشورى بين هذين الفرضين، لنعلم بأَنه إذا كانت الصلاة ركناً عبادياً، والزكاة ركناً إقتصادياً، فالشورى ركن سياسي أيضاً، والله سبحانه يخاطب الرسول ﷺ قائلاً: (وشاورهم في الأمر) آل عمران–159–، فالخطابُ هنا جاء بصيغة الأمر (شاورهم) ولا يعقل أن يؤكد الله تعالى على الشورى والمشاورة كل هذا التأكيد، ثم لا تكون النتيجة التي تتمخَّض عنها مُلزِمةً!

– ولكن يا فضيلة الأستاذ، نحن نعلم بأن حول هذا الموضوع خلافاً.

+ نعم، كيف؟!

– فكل آية من تلك الآيات التي فيها ذكر الشورى، فُسِّرت بحيث تكون الشورى مُلزِمةً آناً و مُعْلِمةً آناً آخر، حسب الإختلاف الوارد، فمثلاً في عهد أبي بكر رضي الله عنه وهو خير الأمة بعد نبيها ﷺ نراه في حروب الردة أصرَّ على حرب أهل الردة ومانعي الزكاة، رغم مخالفة أكثر الأصحاب لفكرة دخول الحرب، ولكن أبابكر رضي الله عنه قرَّر أن يخوض الحرب ولو لوحده.

+ للعلماء على هذا جوابان: الأول أن أبابكر كان يسير في تصميمه وفق نص قرآني، وهو قوله تعالى: ﴿**فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾ (التوبة: 11)، ويقول تعالى في الآية الأخرى: ﴿**فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ**﴾ (التوبة –5)، لأن الصلاة المفروضة حق الله تعالى، والزكاة حق الناس! فأبوبكر إذاً – على هذا – كان النص في يده، وكان يقول رضي الله عنه بأن الله تعالى ذكر الصلاة والزكاة مقترنتين، ولأُقاتلن من يفرق بين الصلاة والزكاة، وهنا رضي الأصحاب بعد أن رأوا ما استدل به الخليفة من آية، وكذلك بالحديث

الذي جاء بعدة روايات هذه إحداها: ((أُمرت أن أقاتِل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوه عصموا مني دِماءَهم وأموالهم إلاّ بحقِّها وحسابهم على الله)) البخاري:25،ومسلم:128، ولم تكن الجزية قد شرعت وقت قول النبيِّ ﷺ هذا، أو أنه ﷺ اُكتفى بذكرها في أحاديث أخرى.

وهناك روايات تشير الى أن الذين استشهدوا بهذا الحديث، هم الأصحاب (رضي الله عنهم)، ثم أجابهم أبوبكر ﵁ بقوله ﷺ: (إلا بحقها..) وقال أبوبكر: (والزكاة من حقها) ومعلوم أن كثيراً من الّذين قاتلهم خليفة رسول الله ﷺ في حروب الردة، كانوا من المسلمين غير أَنهم كانوا امتنعوا عن إخراج الزكاة من أموالهم! ولذلك فقد سَمَّى بعض المؤرخين تلك المعارك بـ(قتال مانعي الزكاة).

والآن نستمع إلى هذه الرواية المطوَّلة للحديث المذكور، والتي تُوضِّحُ لنا بجلاء موقف كل من أبي بكر و عمر رضي الله عنهما وزيري الرسول ﷺ حول قضية مايُسمَّى بحروب (الرِّدة) أو (مانعي الزكاة):

(عن أبي هريرة ﵁ قال:

لما توفِّي رسول الله ﷺ واستُخْلِفَ أبوبكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكرٍ: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ : ((أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله، فمن قال: لا إله إلاّ الله، فقد عصم مِنِّي مالَهُ ونَفْسَهُ إلاّ بِحقِّه، وحسابه على الله))؟! فقال أبوبكر: والله لأُقاتِلنَّ مَنْ فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله، لومنعوني عِقالاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلْتُهم على منعه، فقال عمر بن الخطاب: فوالله، ماهو إلاّ أن رأيت الله

عزوجـل قـد شَـرَحَ صَـدْرَ أبـي بكـرٍ للقتـال فَعَرَفْـتُ أنـه الحـق) رواه البخاري:6855، ومسلم:124، وأبوداود:1557، والترمذي:2607، والنسائي:3985.

– إذاً أنت تقول أن الخليفة كان بيده نص من القرآن.

+ هذا أحد الجـوابين، أمـا الجـواب الثـاني، فمفـاده: أن أبـابكر رضي الله عنه أقنـع الأصحاب رضي الله عنهم برأيه، أي إن الّذين يقولون بأن أبابكر لم يكـن بيده نص، يقولون أقنع بادئ الأمر عمر، وذلك أن عمر رضي الله عنه قـال: فلمّـا رأيت إصرار أبي بكر على رأيه شرح الله صدري له، والأصحاب بطبيعـة الحال كانوا يثقون بما يراه أبوبكر وعمر رضي الله عنهما، ولذلك اقتنعـوا ومـالوا الى رأيهما، ولذلك فإنّي أرى أن الرأي الراجح هو أن نتيجة الشورى ملزمة، فبالنظر الى نصوص القرآن والسنة، وسيرة النبـي ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، نرى أنَه لم يحـدثْ أن جعـل المسـلمون أمـراً مـا شـورى بينهم، ثم أعرضوا عن رأي الأكثرية.

– تفضلتم انه لم يحدث في تأريخ الإسلام أن أُهمل رأي الأكثريـة، ولكـن ألم يكن رأي الأكثرية على إطلاق سراح الأسرى في بدر؟!

+ أنا لا أعلم دليلاً على أن رسول الله ﷺ شاور الصـحابة عامـة في قضـية إطلاق سراح الأسرى، أو عدم إطـلاق سـراحهم، لايوجـد دليـلٌ واحـد على أن رسول الله ﷺ جعل أمراً شورى بين المسلمين، ثم لم يلتَزِمْ بـرأي الأكثرية، و مشاورة النَّبـيِّ ﷺ لأَصحابه في شأن أسرى بدر كانت مـن نوعِ مشاورة أهل الإختصاص، وليسـت المشـاورة العامـة، إِذْ لم يسـتشرْ سوى عددٍ قليـل من الصحابة، وفي مُقَـدِّمتهم أبـوبكر وعمـر رضي الله عنهم، وقـد قالَ رسولُ الله الى رأي أبـي بكـر، ولكـنَّ الصَّـواب كـان في رأي عمـر

وأنزل بهذه المناسبة هذه الآية: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) الأنفال -67- وَنتيجة هذا النوع من المشاورة- كما أرى- إنّما يحْسِمُها الدليل الواضح وليست الأكثرية.

ثم أقول: طالما لم تكن هناك آية نزلت بذلك الشأن، كان باب الإجتهاد مفتوحاً، وهذه مسألة مهمة جداً، إذ لِماذا نحن نقُول بأن الديمقراطية – في أحيان كثيرة – تُعَرِّض الناسَ لمساويء جمّة؟ لأنها لا تُبقي للخالق شيئاً! ولكن العلماء وضعوا قاعدة شرعية مهمة وهي: (لا إجتهاد في معرض النص) أو (لا إجتهاد في مقابل النص) نعم فما دام الناس يعدون أنفسهم مسلمين، وقد قال الله وقال الرسول ﷺ، فلم يعد هناك متسع لأحد ليقول شيئاً: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الاحزاب- 36).

- سأعيد السؤال يا أستاذ: طيب، اذا كانت النصوص بهذا الوضوح لديك، فنحن لسنا نشك أن العلماء كلما كانوا أقرب الى عهد رسول الله ﷺ كلما كانوا أحسن فهماً للنصوص، أليس كذلك؟

+ بلى. عموماً هذا صحيح.

- ولهذا كثيراً ما يثار القول بأننا يجب أن ننظر الى النصوص الشرعية بمنظار السلف الصالح، فلماذا هذه الحقيقة التي تعتبرها واضحة، كانت عبر التأريخ الإسلامي أو التأريخ السياسي للإسلام غائبةً عن الناس؟! فالعمل برأي الأكثرية، والشورى في عهد الأمويين والعباسين ليس واضحاً!

+ أخي توفيق! سأجيبك على هذا السؤال: إنما يُعْتَدُّ برأي الأكثرية عندما لا يكون حول المسألة نص، وإلاّ فعندما يقول الله تعالى شيئاً، فلا تُفيدُ هناك أكثرية وأقلية، مادام الفرد أو المجتمع يَعُدُّ نفسه مسلماً وعَبْداً لله، إذ من بديهيات الإيمان، أن الله تعالى أعلم من الجميع، وأقدر من الجميع، وأحكم وأرحم من الجميع، لِذا حين يقول الله تعالى شيئاً، يجب علينا جميعاً أن نستسلم له، وإذا لم نفهم شيئاً على وجهه، فيجب أن ندقق فيه، وأن نتهم عقولنا بأنّها لم تُحط بالشيء فهماً، لا أن نشك في النصوص ما دمنا نؤمن أَنها من عند الله، أو من عند رسوله ﷺ، أما فيما يخص ما تفضلتم به فأقول: إن الله قد أعطى الإختيار بيد الناس فيما يخص خضوعهم للشريعة من عدمه، ولم يبعث الله تعالى ملائكة يوجِّهون الناس – بالإكراه – نحو الشرع، سواء الّذين لايؤمنون بالشرع أصلاً، أو الّذين يقومون بمقتضى إسلامهم بصورة معوجّة، لأن الله تعالى جعل هذه الدنيا داراً للإبْتِلاء وليست للجزاء: **﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾** (الملك – 2)، أو قوله تعالى: **﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾**(البلد – 10).

هذا من جهة، ثم عندما يصبحون مسلمين، فإنّهم يتمتعون أيضاً بالإرادة الحرة، دون إكراه أو جبر، لِيُعلم مدى تمسكهم بشرع الله تعالى ومعلوم أن التزام المسلمين يكون حسب إيمانهم، فإذا كان إيمانهم قوياً كان التزامهم جيداً، و عندما يكون إيمانهم ضعيفاً، يكون التزامهم ضعيفاً، وخصوصاً أهل السلطة منهم، وكان التزام ولاة أمور المسلمين بالإسلام ممتازاً – عموماً– في زمن النَّبيِّ ﷺ و زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، أما النبيُّ ﷺ فكان مرسلاً من الله جل وعلا.

وأما الخلفاء الأربعة فكانوا منتخبين من قبل الناس، ولكن من الناس من لايستوعب استخلاف أبي بكر لعمر من بعده، ولكن علماء الإسلام يقولون بأن ذلك إنما كان ترشيحاً، إذ لو أن المسلمين لم ينتخبوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من تلقاء أنفسهم ولم يبايعوه، فهل كان ترشيح أبى بكر كافياً ليصبح عمر خليفة؟! طبعاً لا، لأن ترشيحه لم يعدو أن يكون استحساناً من أبي بكر لعمر (رضي الله عنهما)، وعندما صوّت له المسلمون انعقدت له بيعة الخلافة، وكذلك عثمان وعلي (رضي الله عنهما)، لأن علياً رضي الله عنه في إحدى خطبه في نهج البلاغة، يستشهد لشرعية حكمه وخلافته أمام معاوية ويقول ما معناه: إن الّذين اختاروني للخلافة، هم الّذين اختاروا أبا بكر وعمر وعثمان، أي ما يسمى في الإصطلاح الفقهي: بأهل الحل والعقد، وبالإصطلاح المعاصر بـ(مَجْلس الشورى)، إذاً: فالخلفاء الأربعة انتخبوا جميعاً على أساس الشورى من قبل ممثلي الشعب.

ولكن بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين، وفي عهود الحكم الوراثي حصل الإنحراف في هذا المسار، رغم وجود النصوص!! ولذلك عندما أراد معاوية أخذ البيعة لإبنه يزيد قسراً، وهو لم يزل حياً، ونحن لانُسيءُ الظّن بمعاوية ولاندَّعي أنه كان يُبَيِّت السوء من صنيعه ذاك، إذ قد يكون اجتهاده أدَّى به الى ذلك، طلباً لوحدة صف المسلمين، وبُغية ألاّ يتفرقوا من بعده[1]، ولكن الذي لاشَك فيه أنه أخطأ في اجتهاده، وشكّل بعمله ذاك حيدة عن منهج الإسلام، وسيرة النبيِّ صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين،

---

[1] ـ ولكن لاشك أن معاوية لم يكن له ليجتهد في قضيَّةٍ حَسَمها الشرع، وهو كون الشورى أساس إسناد السلطة للحاكم، وليست الوراثة و ولاية العهد!

ولذلك خاطب عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه مروان بن الحكم والي معاوية على المدينة بقوله: أهرقلية؟!(1)

ومعلوم أن قول عبدالرحمن هذا كان يُعبِّر عن مشاعر جميع المسلمين، لأنّهم جميعاً كانوا على يقين أنَّ هذا التصرف غريب عن روح الإسلام مخالف للشرع ولأحاديث النبيِّ صلى الله عليه وسلم، كما يقول النبيُّ صلى الله عليه وسلم في حديث له بهذا الصدد:

((خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء)) (رواه احمد والترمذي والنسائي وابوداود)، ومصداق ذلك أن خلافة أبي بكر استغرقت سَنَتَيْنِ وثلاثة أشهر، ثم خلافة عمر استغرقت عشر سنوات وستة أشهر، وخلافة عثمان استغرقت اثنتي عشرة سنة، يضاف الى ذلك مدة خلافة علي – وهي أربع سنوات وتسعة أشهر، وبالأشهر الستة التي كان فيها الحسن خليفة، يكمل ثلاثين سنة بالتمام. أما كيف تكون الخلافة من

---

(1) أنظر: صحيح تأريخ الطبري، ج4ص 111، محمد بن طاهر البرزنجي، وهذا هو نص ما جاء بهذا الصدد: أخرج البخاري في صحيحه [كتاب التفسير (ح:4827) عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز اُستعملة معاوية، فَخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية، لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبدالرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي...) فقالت عائشة من وراءالحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، الاّ أن الله أنزل عذري.
قلنا: والشيء الذي قاله عبدالرحمن بن ابي بكر هو مابيَّنَتْهُ رواية ابن أبي حاتم عن عبدالله بن المديني قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال: ان الله قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً، وانْ يَسْتَخْلِفْه فقد استخلف أبوبكرٍ عُمَرَ، فقال عبدالرحمن بن أبي بكر: أهرقليةٍ؟ إن أبابكر و الله ما جعلها في أحدٍ من وَلَدِهِ ولا أحدٍ من أهل بيته، و لاجعلها معاوية في وَلَدِهِ الاّ رحمةً وكرامةً لِوَلَدِهِ. [تفسير ابن كثير، سورة الأحقاف آية: 17].

بعدهم؟ يقول الرسول ﷺ ((ثم يؤتي الله ملكه من يشاء)) وفي حديث آخر: ((ثم يكون ملكاً عضوضاً)) و ((ثم يكون ملكاً جبرياً)) إذاً: فهذه النصوص هي نصوص في محل النزاع، ولكن هل النصوص تعمل من تلقاء ذاتها، أليس الواجب أن يطبقها الناس؟ واسمح لي أن أسرد في هذا الصدد هذه القصة: عندما أوشك جيش معاوية في معركة صفين على الإنكسار، رفعوا المصاحف وطلبوا تحكيم القرآن، فطلب الخوارج من علي رضي الله عنه إيقاف القتال لأن الجيش المقابل يطلبون تحكيم القرآن، فقال علي: أنتم قوم لا تفقهون، هذه كلمة حق يراد بها باطل، وهل يأت الله بنفسه ليحكم بيننا، القرآن هو الحكم، لكن الناس هم الذين يحكمون به ويطبقون، يجب ان يختار المسلمون بأيديهم حكم الله تعالى.

– طيب يا أستاذي العزيز! وماذا عن تداول السلطة في النظام الديمقراطي؟ مثل الإنتخابات، والعمل بالشورى، ورأي الأغلبية، وتحقيق الحريات، أليس كل ذلك موجوداً في الإسلام، وفي الديمقراطية أيضاً، إذاً: ألا يصح أن يقال: أن نظام الحكم في الإسلام عبارة عن الديمقراطية؟! لماذا لا نستطيع أن نقول هذا؟

+ نعم، أنا سأتحدث عن قولك الأخير، لماذا لا نستطيع قول هذا؟ ولكنّني أريد الإشارة هنا الى مسألة فأقول: للأسف، هناك عندنا إسلاميون (إنّني أُكِنُّ لهم الإحترام، ولكن ذلك لا يُثْني عزمي عن الحديث عن أخطائهم ونقاط التقصير فيهم) أصيبوا بالهزيمة والإنكسار الداخلي تحت ضغط الحملات الإعلامية والسياسية والإقتصادية والعسكرية التي يَشُنُّها الغرب بقيادة أمريكا على العالم الإسلامي، فهم يشعرون بهيبة وحياء بالِغَيْنِ تجاه المصطلحات وَالأَنظمة التي تلقى رواجاً في الساحة العالمية الآن.

– لو أوضحتم لنا قليلاً.

+ مثلاً: عندما يجرى الحديث عن حقوق الإنسان أو العلمانية او الديمقراطية أو العولمة، يقوم هؤلاء بِلَـيِّ رقـاب النصـوص لـتلائم تلـك المصـطلحات والنظريـات الجاهليـة، فهـم يسـارعون الى التأويـل والترقيـع، فيقولـون: الإسلام أيضاً هكذا، والإسلام أيضاً يقول ذلك، فترى الإسلام – في رأي هؤلاء ووهمهم – مكتظاً بأصول الديمقراطية والعولمة والعلمانيـة أيضـاً، وهذه لاشك هزيمة نكراء قد حَلّـتْ بهـم،إذ إن الديمقراطيـة لم يمـر علـى العمل بها في الغرب أكثر من (300) عام، ولكن الإسلام منذ أكثـر مـن (1400) عامـاً كـان نِظامـاً فعّـالاً للحكـم علـى الأرض، ولـئن كانـت الديمقراطية معمولاً بها على مستوى دول أو بعض دول، فإن نظام الحكم الإسلامي في عهد النّبـيِّ ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين، كان يُعْمَـلُ بـه على مستوى الأمة الإسلامية بجميع شعوبها ومللها ونحلـها، إذاً فالإسـلام سابق على الديمقراطية من الناحية الزمنية، لـذلك يجـب أن نقـول: إن في الديمقراطية الشيء الفلاني شبيه بما في الإسلام، وليس الشيء الفلانـي في الإسـلام يُشْـبِه مـا في الديمقراطيـة!! أي إنّنـا يجـب ان نقـيّم الديمقراطيـة بالإسلام، لنتبيّن حالتها ومستواها، هذا أولاً.

وثانيـاً: لمـاذا لانسـتطيع القـول: إن نظـام الحكـم في الإسـلام نظـامٌ ديمقراطي؟ لأن الله تعالى سمَّى دينه (الإسـلام) **﴿وَرَضِـيتُ لَكُـمُ الإِسـلام دِينًا﴾**(المائـدة –3)، والحق أن الديمقراطية أيضاً دين ومنهج متبع، لكن اسم دين الله هو (الإسلام) والله تعالى يقول: وَرضيت لكم الإسلام ديناً، ويقول أيضاً **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾** (آل عمران–116).

وثالثاً: إن نقاط الإلتقاء بين الإسلام والديمقراطية نقاط آلية، ولكن الذي يتعارض مع الإسلام جوهراً وأساساً، هو تفويض الديمقراطية حق التشريع للبشر، يشرِّعون لأنفسهم ما يشاؤون، وذلك كما أسلفنا مراراً حق محض لله تعالى، وهو أمر جذريٌّ متعلق بالتوحيد بصورة مباشرة.

– أستاذي العزيز! يبدو أنك تعتقد أن في الديمقراطية نقاط إيجابية.

+ نعم، ولكنني أعتقد أن تلك النقاط موجودة بصورة أفضل في الإسلام.

– فما هي النواحي السلبية في الديمقراطية في نظركم، هل هي إعطاء حق التشريع وتحديد الحلال والحرام الى الشعب؟!

+ إن هذه النقطة التي تشكل مضمون الديمقراطية وجوهرها، هي أسوء ما في هذا النظام من مكونات، لأنها تتصادم – كما قلت آنفاً – مع الإيمان والعقيدة، لأن جوهر العقيدة في الإسلام هو التوحيد وحاكمية الله تعالى مرتبطة بتوحيد الله في ربوبيته و ألوهيته، ولذلك عدّ الله الإقرار بالتشريع لغيره إشراكاً به تعالى، كما يقول سبحانه: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ**﴾ (الشورى-21). وبعد هذا الإيضاح، أجِدُ من المناسب أن آتي بكلام للعالم المشهور الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، وأنا أحترم هذا الرجل كثيراً، وأعتبره من العلماء الأعلام، ومع ذلك فإن موقفه من الديمقراطية موقف خاطئ، ولكن لكل جواد – كما يقولون – كبوة.

يقول في كتابه (من فقه الدولة في الإسلام) ص (32): (الواقع إن الذي يتأمل جوهر الديمقراطية، يجد انه من صميم الإسلام...).

– اذاً أنت مع الدكتور القرضاوي على طرفي نقيض!

+ نعم أنا أخالفه في هذا، وسبق أن أوضحت هذا، ولكـنني سَـأَنْقُضُ كـلامَ الشيخ القرضاوي بكلامه هو، ولكن اسمح لي الآن أن أذكر ما يستدل به لدعم موقفه فهو يقـول: [إن جـوهر الديمقراطيـة بعيـداً عـن التعريفـات والمصطلحات الأكاديمية، هو أن يختار الناس من يحكمهم ويسوس أمـرهم وأن لا يُفْرَض عليهم حاكم يكرهونه، أو نظام يكرهونه، وأن يكـون لهـم حقُّ محاسبة الحـاكم إذا أخطـأ، وحـقُّ عزلـه وتغـييره إذا انحـرف، وأن لا يُساقَ النّاسُ رغم أُنوفهم الى اتجاهات أو مناهج إقتصادية أو إجتماعيـة أو ثقافية أو سياسية لا يعرفونها ولا يرضون عنه] (ص 32)، نعم إن فضـيلة الدكتور يعتبر تلك المسائل جوهر الديمقراطية، والحق أنّها ليسـت جـوهر الديمقراطية، ولا تعدو أن تكون آليات ليس إلاّ، ولكن صـحيح أن تلـك الآليات إذا كانت مرتبطة بالشرع، فإنَّهـا غـير مخالفـة مـع نظـام الحكـم الإسلامي.

لكـن الغريـب أن الـدكتور القرضـاوي نفسـه في ص(36) مـن كتابـه المذكور ينقض كلامه بنفسه قائلاً: ((كما أن الديمقراطيـة علـى مالهـا مـن محاسن، لا تحكمها أصول تُقَيِّدها و تَضْبِط سَيْرَها، فتسـتطيع بإِسـم ممثلـي الشعب أن تلغي الفضائل، وأن تقرِّر الرذائل، وأن تُقنِّن المظالم، وأن تحلِّـل الحرّام، وأن تحرِّم الحلال، حتى قيل في البرلمان الإِنجليزي: إنه يسـتطيع أن يقرر أي شيء، الا أن يحوِّل الرجل الى امرأة، أو المرأة الى رجل)).

وأنا حقيقة أعجب من فضيلة الـدكتور، اذا كـان يعلـم أن الديمقراطيـة تسـتطيع إلغاء الفضائل وإقرار الرذائل، إذاً: كيف يسمح لنفسه أن يقول بأن جوهر الديمقراطية لا يتصادم مع الإسلام!!

ويستمر الشيخ القرضاوي في نقده للديمقراطية فيقول:

((ولهذا رأينا الديمقراطية الأمريكية تبيح الخمر شرباً وصناعة واتّجاراً برغم ما ثبت من أضرارها المادية والمعنوية على الأفراد والأُسر والمجتمعات وعلى الإِقتصاد والأخلاق، ووجدنا بعض الديمقراطيات الغربية يبيح زواج الرجال بالرجال والنساء بالنساء)).

((إن الديمقراطية الغربية تستطيع أن تتحلل من أي شيء، حتى من الديمقراطية نفسها، بأغلبية خاصة أو بإستفتاء شعبي، أو بغير ذلك من الحِيَل، حتى قال أحد حكام العرب يوماً: إن للديمقراطية أنياباً ومخالب، وإنّها يمكن أن تكون أشرس من الدكتاتورية!!)).

إذاً: فالدكتور القرضاوي يميل الى قولنا في النهاية، وهو أن الآليات الجيدة الموجودة في الديمقراطية، ليس للإسلام إشكال معها، نعم إنّها بسبب الجوهر الشركي للديمقراطية، وهو إسناد حق التشريع لغير الله، تصبح كوسيلة حسنة بيد شخص مُسيء، لأنّها في الختام تصبح في خدمة المسيئين ومصالح الظلمة والمستبدّين وأصحاب رؤوس الأموال لقضاء مآربهم النجسة.

ومن هنا يتبين لنا بوضوح، سذاجة الذين يعتبرون الديمقراطية والشورى في الإسلام شيئاً واحداً!! والحال أن الفرق بينهما كالفرق بين الثّرى والثريّا، لأن الديمقراطية تطلق الحرية للبرلمان وممثلي الشعب، في تقرير ما ترغب فيه نفوسهم، دون مراعاة لله ولرسوله ﷺ أو للدين والشرع والقيامة والأخلاق والقيم والضمير!

ولكن الشورى والإجتهاد، مرتبطان ومقيَّدان بالشرع، فليس بإمكانهما ولا في وسعهم! مخالفة الشرع قيد أنملة، بل إن رسول الله ﷺ نفسه ليس له إزاء الشريعة الا تطبيقها، كما يقول تعالى: ﴿**أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ**

وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (الاحزاب 1–2).

ويقول تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجاثية– 18)، ويقول تعالى ايضاً ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ (المائدة –49).

وختـــاماً أقــول:

لا شك أن نظام الحكم في الإسلام، يحتوى على جميع الآليات والجوانب الإيجابية الموجودة في الديمقراطية هذا من جهة، ومن جهة أخرى، ومن منطلق أن نظام الحكم الإسلامي مقيّد بحدود الشريعة، كما هي الحال مع سائر قوانينه ونظمه، فهو بريء من المآسي والمصائب التي حلّت وتَحُلُّ بالنظام الديمقراطي، إن النظام الإسلامي بفضل الأسس والأعمدة التي حددتها الشريعة، وأهمها وأعظمها كون الله هو الحاكم المطلق، وحصر السيادة المطلقة في القرآن والسنة، نعم، إن نظام الحكم الإسلامي بفضل الشريعة واجتناب تأليه غير الله تعالى، فإنه – بخلاف الديمقراطية – لن يصبح أُلعوبة بيد أصحاب رؤوس الأموال، لتأمين مصالحهم اللامشروعة، فيجعلوها متأرجحة تذهب هكذا وهكذا.

– فضيلة الأستاذ، ختاماً نقول لك: جزاك الله خيراً، أسئلتي لم تَنْتَه، بعد وسَأَدَّخرها للحلقة القادمة.

+ على الرحب والسعة، وجزاكم الله خيراً.

الحلقة الثانية

بسم الله والصلاة والسلام على قائدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين.

أعزائي! السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

إنّنا سعداء أن نلتقي بكم في هذه الحلقة من برنامجنا (التقصي) على أمل أن نجعل هذه الحلقة تكملة للحلقة السابقة، حول الموضوع الذي أثرناه مع فضيلة الأستاذ (علي باپير) أمير الجماعة الإسلامية، حول الديمقراطية والإستبداد وموقف الإسلاميين إزاءهما.

– فضيلة الأستاذ علي باپير، بعد الترحيب بكم، أود أن نبدأ من قول الدكتور يوسف القرضاوي، الذي لمتموه بسبب تناقضه في أحاديثه عن الديمقراطية.

+ نعم.

– إن الشيخ القرضاوي ظن أنّ جوهر الديمقراطية هو آلياتُها، وقد قلتم: إنه في الصفحة (36) من كتابه المذكور يتحدث عن الديمقراطية بأنها تحلل الحرام وتحرم الحلال، ولكني قرأت فيه بأنه يقصد الديمقراطية الغربية.

وقد فهمت من الدكتور القرضاوي، بأن بالإمكان أن تكون لدينا ديمقراطية شرقية أو ديمقراطية إسلامية، ولكن الديمقراطية التي يجب أن ننتهجها في الحكم، لايحق لها تحريم الحلال وتحليل الحرام، ومعلوم أن المسائل التي يوجد حولها نص، فلا كلام فيها بعد ذلك، بل نستفيد من الآليات فقط، ولهذا نقول: ديمقراطية إسلامية!

وفي هذا السياق أسألك هذا السؤال:

كيف يُدرك دينُ واقفُ حياة سريعة التبدّل و التغيّر؟!

+ بسم الله الرّحمن الرّحيم وبه نستعين، إنّنا بغية تقييم أي شيء لابد لنا إبتداءً من أن نعرفه على وجهه، وهل أَنَّ ذلك الشيء قد طبق في مكان ما، فننظر فيه من خلال الواقع الذي تجسَّد فيه. وأنا أقولها بكل صراحة، – ويقول ذلك كل من تحدث عن الديمقراطية بإنصاف – إن الديمقراطية لا وجود لها بصورتها الكاملة بالمرة في الشرق الأوسط، ولكن لا أحد ينكر بأن الديمقراطية موجودة في أمريكا وفرنسا وبريطانيا والدول الغربية عموماً، فالديمقراطية هي تلك الموجودة في المنشأ الأصلي لها، لا ما أدَّعيه أنا بأنَّني لن أدَعَها تحيدُ عن الشرع! ولا أن يكون فيها ما يخالف القرآن والسنة، ورغم ذلك أسميها ديمقراطية؟! الحق إنك تَبْهَتُ الديمقراطية وتظلمها بهذا الصنيع، بل إن ما تعنيه هو الإسلام وليس الديمقراطية، فإذا قال قائل: أليس قد استُخدِمَت آليات الديمقراطية؟ نقول في الإجابة: الحقيقة أن آلية نظام الحكم الديمقراطي ليس مُلكاً لأحد، لأن آليات الحكم مثلها مثل المسائل الإدارية، لا تعود ملكيتها لأحد، بل هي تراث للبشرية، وقع الآن بيد الغرب، وكان ذات يوم بيد المسلمين في الشرق.

وهناك من يقول: إن الشورى في الإسلام بمعنى الديمقراطية!! وهما مختلفتان لاريب في ذلك، بل الى أبعد حدود الإختلاف، بالرغم من وجود بعض نقاط الإشتراك، وذلك لأن الشورى في الإسلام مرتبطة بالشريعة، والديمقراطية الغربية ليست مرتبطة ولا مقيدة بشيء البتة.

– لكن أليست الديمقراطية مقيدة بالدستور يا أستاذ؟!

+ نعم، ولكنها مرتبطة بدستور يُصيغه الشعب، وهذا تحصيل حاصل، فكل شيء راجع الى الشعب، فإِن كانوا أهل خير قالوا خيراً، وإن كانوا أهل شر قالوا شراً، والدكتور القرضاوي نفسه يقول عن هذا الموضوع[1]: (ومن هنا يمتاز نظام الشورى الذي تقوم عليه الدولة المسلمة، لأن للشورى حدوداً لا تتعدّاها، فعقائد الإسلام بإِيمانه، وأركانه العملية، وأسسه الأخلاقية، وأحكامه القطعية، وهي المقومات الأساسية التي ارتضاها المجتمع، وأقام عليها نظام حياته، لامجال فيها للشورى).

نعم فالشورى الإسلامية تختلف عن الديمقراطية الغربية، بأنها تكون فقط في شيء لم يرد فيه نص، والشورى والإجتهاد لايكونان إلاّ في إِطار الشرع، وكما يقول الأستاذ القرضاوي، فإن للشورى حدوداً لا تتعداها، فالربا محرم والسرقة محرمة، و محالٌ أن يستطيع أحد أن يغير ذلك، ولو اجتمع الناس ألف سنة، وأجروا الإنتخابات وجلس البرلمان، فلن يستطيعوا أن يبدلوا شيئاً قد حسمه الله تعالى أو رسوله ﷺ – إن كانوا يعتبرون أنفسهم مسلمين – فما حرَّمه الله فهو الحرام، وما أحلَّه فهو الحلال، فمثلاً يجوز للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة وفق الشرع، فلوا اجتمعت برلمانات الأرض، لما وسعها تحريم التزوج بأكثر من واحدة – إذا كانت تعد نفسها مسلمة طبعاً– فكل من يعتبر نفسه مسلماً، لايحق له أن يحرِّم شيئاً أباحه الله تعالى، أو أن يُبِيْح شيئاً منعه الله تعالى، وقد أحسن الشيخ القرضاوي بقوله[2]: ((ولا يملك برلمان ولا حكومة إلغاء شيء منها، لأن ما أثبته الله لا ينفيه الإنسان، وما نفاه الله لا يثبته الإنسان))

(1) انظر (من فقه الدولة في الاسلام) ص (37)
(2) المصدر والصفحة نفسها.

وأحسب أنّك الآن فهمت ما عنيته من تناقض الأستاذ القرضاوي، فهو من جهة يقول: إن جوهر الديمقراطية لا يتصادم مع الإسلام! ومن جهة أخرى يقول: إن الديمقراطية بسبب عدم وجود إطار يقيها من الإنحراف، فإنها قد تنتهي بكوارث وطوام.

والآن سآتي الى الإِجابة عن سؤالك: كيف يدرك دين واقف حياة سريعة التبدل والتغير؟!

فأقول:

غالباً ما يقول العلمانيون، ويبدو أنك تسأل هذا السؤال على لسانهم، حيث كثيراً ما يقولون إن الدّين شيء جامد، فأنَّى له أن يتدارك مسيرة الحياة المتسارعة في خطاها.

– نعم بالطبع هذا السؤال يسأله العلمانيون، فما هو جوابه؟!

+ جوابه أن الإسلام دين الله تعالى، بنظمه الحكمية، والإقتصادية، والإجتماعية، والجهادية، والعبادية، والأخلاقية، والله عندما وضع هذا الدين راعى كينونة الإنسان وطبيعته وفطرته، كفرد وكمجتمع، فنحن نرى بأن القضايا المتعلقة بالعقيدة والعبادة والأخلاق، من منطلق كونها مرتبطة بجوهر الإنسان وناحيته الروحية – وهذه حقيقة ثابته – نرى أن الله جَلّت قدرته، قد وضع لها قوانين ثابتة، ففي ناحية العقيدة مثلاً، فالله الواحد الأحد، هذه أسماؤه وصفاته، وهكذا يتعامل مع عباده، وكتب الله ورسالاته، وكذلك الأنبياء عليهم السلام من هم، والملائكة كيف هم، وهكذا بالنسبة للقيامة والجنّة والنار...الخ. فهذه ثوابت لاتتغير بحال من الأحوال، لماذا؟ لأنها متعلقة بعدة حقائق متجذرة وعميقة في الوجود

لاتقبل التغيير، وهي ثابتة في فطرة الإنسان أيضاً، نأتي الى مسألة العبادة، كيف يعبد الإنسان ربّه؟!

الله وحده يعلم هذا ويحدده، أنا سآتي لك بمثال واحد:

(الوضوء) وهو شيء بسيط ضمن العبادات، لم يتركه الله تعالى لنبيه ﷺ نعم ورد عن النبيّ ﷺ في سنتّه العمليه، بأن توضؤوا هكذا وهكذا، ولكن الله تعالى وضح هذا ضمن آية من سورة المائدة، مع أن الوضوء مسألة جزئية؟! لأن تقرير العبادة أمر فوق مستوى العقل، ثم كيف نمارس العبودية لله تعالى، وكيف نتعامل معه سبحانه، الله وحده أعلم بهذا، لذلك حدد ذلك بنفسه، يقول تعالى عن الوضوء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ**﴾ (المائدة –6)، يقول علماء الشرع: للوضوء فروض ستة: النية، وغسل الوجه، وغسل اليدين الى المرفقين، ومسح الرأس (كله أو بعضه)، وغسل الرجلين الى الكعبين، والترتيب، فالله تعالى ذكر كلَّ فروض الوضوء في هذه الآية بالترتيب.

نعم إن القضايا المتعلقة بالعبادة وعبودية الله تعالى ورد ذكرها جميعاً في القرآن، والنبيّ ﷺ أوضحها بالتفصيل ولم يُترك شيءُ من ذلك لإجتهاد العلماء واستنباطهم، وكذا مسألة الأخلاق فمثلاً: (الصدق) شيء حسن، (وحفظ الأَمانة) سجية حسنة، (والعفاف) خلق حسن، ومادام الأمر كذلك فهي أمور واجبة ومتعينة، أما (الكذب، والظلم، والقتل) فأشياء قبيحة، لذلك فهي محرمة، وليس ثمّ تغيير يمكن أن يطرأ على هذه الأشياء، لماذا؟ لأن هذه المسائل متعلقة بالفطرة وكينونة الإنسان، ولكن...

– واذا طلب الناس بأكثرية الأصوات شيئاً يخالف الإسلام؟!

+ مثل مــاذا؟!

– الفساد الأَخــلاقي مثلاً، لقد حظيت العفة في الإسلام بالأهميــة البالغـة، ولكن هل أكثرية الناس الآن يعتقدون بضرورة العفة؟

+ أنظر أخي توفيق! هناك أمران يجب ألاّ يختلطا: الفطرة والعادة، و الفـرق بينهما أن العادة قد تكون موجودة في مجتمـع، وغـير موجـودة في مجتمـع آخر، لكن الفطرة لا ٱستثناء فيها، فهي موجـودة بـين النـاس جميعـاً، لأن الأشياء الفطرية متعلقة بطبيعة الإنسان، وهم جميعـاً مشـتركون فيهـا، أمـا الإنهيار الأخلاقي والإباحية المتفشية في الغرب، فعادة سيئة ظهرت بينهم، ولم يكونوا في الأصل هكذا، وهم أنفسـهم سـائمون منهـا، فهـذا أمـر لا علاقة له بالفطرة بل هو مخالف لها!

– أستاذ قبل مائة سنة من الآن، لو كان رجل أبصر أجنبياً مع زوجته لأقـام الدنيا وأقعدها؟! أنا لا أتحدث عن أوروبا، فقد رأيت في كردسـتاننا هـذه قبل مدة وزير الثقافة الفرنسي وكـان قـد جـاء زائـراً، وفي الطريـق رأى عروسين وَقَبَّلَهما، وقد أخذ الزوج قُبلَةَ الوزير لزوجتـه، بـروح رياضـية! وإعتبرها حالة إعتيادية!

+ إعتبرها حالة إعتيادية!

– نعم لأنه كان يضحك!

+ يا أخي توفيق! تفسير هذه الحالة هو إنعدام الغَيْرة وإنهيـار الأخـلاق، إذ الخصال الفطرية تنمـو عـن طريـق التربيـة والتعليـم، كمـا يقـول تعـالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: 7–10).

ماهي التزكية؟! معناها التنمية والصلاح والتطهير، والمشهد الذي أنت رأيته، ليس أمراً فطرياً، بل عبارة عن وقوع تحت تأثير عادة قوم مُسخت فطرتهم، فالرجل أراد أن يتلاءم مع ذلك الجو، أنا أعلم أن ذلك الرجل كان يكره في قرارة نفسه: منظر احتضان الوزير وتقبيله لزوجته! ولكن قبل بذلك حتى لاينتقده أحد، تماماً كالنساء اللاتي يلبسن الألبسة العجيبة والغريبة، ومنهن من يقول: إنّنا في قرارة أنفسنا لا نشعر براحة أو أمن، ولكنها العادة، نخشى مخالفتها حتى لا نتعرَّض للنقد!

- لنرجع الى بيت القصيد، قلنا: إن العقيدة والعبادة والأخلاق وضعت لها قوانين وأحكام ثابتة!

+ نعم فالله تعالى وضع لذلك نصوصاً لامجال للإجتهاد فيها، اللّهم الاّ في كيفية تطبيقها، لأن الشريعة قد وَضَعَت فيها النقاطَ على الحروف، ولكن النصوص المتعلقة بالناحية المادية في الإنسان، ليست كذلك، لأن الروح ثابتة، أما الناحية المادية فمتغيرة من حال الى حال، لذلك فإن النصوص الشرعية في الكتاب والسنة، ذات الصلة بناحية الحكم والسياسة، أو الناحية الإدارية والإقتصادية والإجتماعية، لا نراها فُصِّلت كبير تفصيل، فشكل الدولة غير محدَّد في القرآن، في الوقت الذي حددت كيفية الوضوء في الجانب العبادي، وحتى السنة النبوية، لم تُحَدِّدْ شكل الدولة في الإسلام، بل الوارد في الكتاب والسنة هي الركائز التي يجب أن تستند اليها الحكومة الإسلامية، وكذلك من الناحية الإقتصادية، فمن جهة يثبت القرآن الملكية: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ (البقرة –286)، أو قوله تعالى: ﴿**فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ**﴾ (البقرة – 279)، ومن جهة أخرى يقول تعالى: ﴿**كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء**

مِنكُمْ﴾ (الحشر– 7)، إذاً: فالإسلام من الناحية الإقتصادية حدّد الأصول والقواعد العامة فقط.

فمن جهة يحق للإنسان ان يأكل من كسبه وكدّه، ولكنه من جهة أُخرى يُقال له لا يجوز لك أن تكدس الأموال على حساب الناس: **﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ﴾** (الحشر– 7) لا يجوز أن تجتمع الأموال والثروات وتحصر في أيدي الأثرياء، وعلى هذا فالنظام الرأسمالي غير مشروع في نظر الإسلام، وظهور طبقة البورجوازية الموجودة حالياً في النظام الرأسمالي أيضاً غير مشروع، وليس كما تقول الإشتراكية أيضاً، أن الإنسان مهما أجهد نفسه، يكون مع الذي لايصرف الجهد سواء!!

نعم، فلقد حدد الإسلام في هذه النواحي مجموعة من الركائز، ومع ذلك فقد ترك فراغاً واسعاً، ولماذا؟ لتقدم الزمان وتطور الحياة، ولإجتهاد العلماء واستنباط المختصِّين، لكي يملؤوا ذلك الفراغ بالأحكام والقوانين المستنبطة والملائمة.

من أين جاء ذلك الكمّ الهائل من إجتهادات الفقهاء وأهل الإختصاص في التجارة والبيع والمعاملة، وفي مجال العلاقات الدولية؟ لاشك جاء من حيث أن الله تعالى أنزل بعض الآيات وَالنبيّ ﷺ وجه الأمة ببعض الأحاديث، في تلك المجالات، ولحكمة بالغة تُركت هنالك بعض الفراغات، كي لا يتقيّد الناس أمام التغيرات الحاصلة في مسار الزمان وتطور الإنسان، بل يكون أمامهم متسع رحيب للإجتهاد، لملء تلك الفراغات وفق مصالحهم.

وهنا أَستحسن إيرادَ نص للعلاّمة (إبن قيم الجوزيـة) في كتابـه (الطـرق الحكمية في السياسة الشـرعية) ص (1413) والـذي ينقـل بعضـه مـن العالم المشهور (إبن عقيل) فيقول:

((فقال ابن عقيل: السياسة ما كان فعـلاً يكـون معـه النـاس أقـرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يَضَعْهُ الرسول ولانَـزَل بـه وحـيٌ)) ثـم يقول: (فإن أردت بقولك: لا سياسة الاّ ما وافق الشرع، أيْ لم يخالِفْ مـا نطق به الشرع، فصحيح، وإن أردت: لا سياسة الاّ ما نطـق بـه الشـرعُ، فغلط وتغليط للصحابة) وبعـد أن يسـتدل بـبعض الأمثلـة، يقـول: (فقـد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والتمثيل مالا يجحده عالم بالسـنن..) فيأتي بأمثلة على أشياء فعلها الخلفاء الراشـدون ولم يفعلـها النبـيّ ﷺ، فمثال ذلك: حرق المصاحف في زمن عثمـان ﵁، بعـد أن جمعـوا النـاس على مصاحف عثمان ﵁، وكان لكل صحابي مصـحف، فجمعـوا كـل تلك المصاحف وأحرقوها، لأن كلاً من هـؤلاء كـان قـد كتـب مصـحفه بإجتهاد شخصي حسب أسلوبه، وكذلك فقد أحرق علـيّ ﵁ الزنادقـة الّذين يقولون بألوهيته! وكذلك نفي عمر بـن خطـاب ﵁ لــ(نصر بـن الحجاج) من المدينة، وكان شاباً جميلاً، وكان الخليفة قد سمع امـرأةً تقـول فيه الشعر، فاستدعاه عمر وقال لـه: مـا دمـت بهـذا الحسـن فـلا تظهـر للناس، وأمر بحلق شعره، لكن حَلْقُ شَـعْره زاد مـن جمالـه، وحينهـا قـال عمر: لاينبغي أن يكون في مدينة رسول الله ﷺ من تتمـدَّح بـه النسـاء، ويَتَمنَّينَ وصاله بالحرام، لذلك نفاه من المدينة الى مدينة أخرى.

ومعلوم أن هذا الحكـم لـيس وارداً في القـرآن والسـنة، بـل مـن قبيـل السياسية الشرعية، ثم يورد ابن القيم كلاماً حسناً فيقول: (إن الله أرسـل

رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات) ثم يقول: (فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريقة، كان فثم شرعُ الله ودينه... فأي طريق اُستخرج به العدل والقسط، فهي من الدين وليست مخالفة له، فلا يقال: إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع، بل موافقة لما جاء به، بل هي جزء من أجزائه، ونحن نسميه سياسةً، تبعاً لمصطلحكم، وإنّما هي عدل الله ورسوله، ظهر بهذه الأمارات والعلامات).

وأنا سآتي لك بمثال واحد:

إن تحديد مدة الحكم السائد الآن في الدول الديمقراطية، سواء كانت أربع سنوات، أو خمس، أو أية مدة أُخرى، فمادام الناس استحسنوا ذلك كي لايصبح الحكم وراثياً، أو حتى لا يتمكن الحاكمُ من ضرب جذوره في الأرض، مادام الناس استحسنوا ذلك، ولم تكن هناك على ذلك نصوص شرعية تمنع من ذلك، وما دامت العدالة متحققة بذلك ومصالح الناس مضمونة، فتلك قضية مشروعة لا غبار عليها.

– مثل النظام الجمهوري؟

+ نعم، النظام الجمهوري الذي ينتخب فيه الناس حكامهم بالآليات والإداريات التي عليها، واختصاراً: كيفما تحقّق جَلْب المنافع وَ دفع المضارِّ، وبالتالي تحقّقت مصالح الناس، في المجال السياسي أو الإداري أو الإقتصادي أو الإجتماعي أو الأخلاقي، فهذا لايتعارض مع نص من نصوص الشريعة، ومعلوم أَن نصوص الشرع لاتتعارض مع المصالح الحقيقية للناس، كأفراد، أو كمجتمع.

– أستاذي العزيز! إذاً بإمكاننا القول: إن الإبتداع في الدين حرام؟!

+ نعم، لاشك في ذلك.

لكن في المجالات التي جاءت فيها النصوص الشرعية من: الإِيمان و العقيدة والعبادة والأخلاق.

– ولكن ماذا نعمل تجاه القضايا المرتبطة بالجوانب الأخرى، كالسياسة والإقتصاد والإدارة..!

+ أنا أقول: على قدر قبح الإستحداث والإبتداع في الدين، فإنَّ التجديد والإِبداع في أمور الحياة شيء حسن وضروري، فهما مسألتان متعاكستان، ولكنَّ لا تنس شيئاً ولا تقعن في الخطأ منه، الدين ليس عبارة عن العقيدة والعبادة والأخلاق وحسب، فغاية ما أبتغي قوله: أن في مجالات العقيدة والعبادة والأخلاق، تحدثت النصوص الدينية عن المسائل الصغيرة أيضاً ووضعت النقاط على الحروف، والاّ فالدين بالإضافة الى هذه النواحي يشمل أيضاً السياسة والحكم، والجوانب الإقتصادية والإجتماعية والعلاقات الدولية، أي الجوانب التي بإمكان العقل الإجتهادُ الإبداعُ فيها و التفاعلُ معها، والتي تتطور الحياة فيها بسرعة وتتغيّر، والدِّين لم يضع في هذه الجوانب نصوصاً كثيرة، حتى لا يتقيد الناس، ويكون هناك متسع لإجتهاد المختصين والعارفين بالدين والحياة، لملء تلك الفراغات المتروكة، والاّ فالدّين ليس مقتصراً على هذه النواحي الثلاث المتربطة بباطن الإنسان و كينونته، بل الدّين في كل النواحي الأخرى، يجب أن يكون حاكماً يوجه كلَّ شيء، خلا أَن الدّين قد ترك متسعاً رحباً لعقل الإنسان وأُجتهاده، ومن هنا جاءت القاعدة المشهورة بين العلماء: (تفصيل في الثوابت، إِجمالٌ في المتغيِّرات) أي إِنَّ الشريعة فصّلت القول و وضعت النقاط على الحروف في الجوانب الثابتة، و على العكس أجملت القول

واكتفت بالكلام المختصر و بوضع إطار عام في الجوانب المتغيرة المتطورة في الحياة.

- أستاذ! دَعنا نتحول الى محور آخر في قضية الحكم، فكثيراً ما يوجه اللوم للإسلام!! او الإسلاميين، يقولون: إن تاريخ الإسلام شاهد على أن الإسلام كان الى الدكتاتورية أقرب منه الى الديمقراطية، وإن كان سيادتكم قد تحدث ملياً في الحلقة السابقة عن كون الإسلام إسلاماً، وليس ديمقراطية أو دكتاتورية، ولكن وضَّحْتَ أن هناك مجموعة من النقاط المشتركة بين الإسلام والديمقراطية؟!

+ نعـــم .

- فهل توجد نقاط مشتركة بين الإسلام والدكتاتورية أيضاً؟!

+ كلا، إذ الديمقراطية على كل حال، وكيفما كان فهي تحترم الناس، وشرائع الله جميعاً إنّما نزلت الى الناس لتدافع عنهم وتنافح عن الجماهير بوجه الحكّام، ولهذا فالدكتاتورية والفرعونية والطاغوتية كانت طوال التأريخ عدوة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) والعائق الأنحس في طريقهم، فهذا نوح (عليه السلام) عندما يقف الملأ الذين استكبروا من قومه بوجهه، من الّذين يؤازرونه ويشدّون عَضُدَهُ: ﴿**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ**﴾ (هود -27) نعم، المستكبرون من قوم نوح عليه السلام كانوا يسمون أَتباعه أراذل، والحكمة واضحة من كون أَتباع الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) من الفقراء، والمعُدِمين والمُظْطَهَدين، وإنما آمَن المستضعفون بالأنبياء (عليهم السلام) واتبِّعوهم لأنهم رأوا فيهم وفي

رسالتهم – علاوة على كونهـا حقـةً وَمتجاوبـةً مـع فطـرتهم – مسـاندة قضاياهم العادلة والدفاع عنها، ولكن من هم أعداء الأنبياء؟!

يقول تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَـا إِنَّـا بِمَـا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾** (سبأ– 34).

– ما معنى متـرفوها يا أستاذ؟

+ أي مُنعَّموها، إن الله سبحانه عرّف أعداء الأنبياء بصـور متعـددة، فتـارة يسميهم المترفين، وأخـرى يصـفهم بالّـذين اسـتكبروا، وأحيانـاً يسـميهم بالذين طغوا في البلاد، فالطغيان صفة ملازمـة للمترفـين، الّـذين يفرضـون أنفسهم على الناس ويظلمونهم ويغتصبون حقوقهم السياسة والإقتصـادية والثقافية، فهؤلاء هم أعداء الأنبياء ومنهج الله تعالى. لأنّهـم موقنـون بـأن الله تعالى لن يتركهم على تلك الحال حتى نهاية المطـاف، لـذلك فليسـت هناك أية نقاط مشتركة بين الإسلام والدكتاتوريـة، ولا يمكـن أن يتعايشـا معاً طرفة عين! لماذا؟ لأن الدكتاتورية قبل أن تكون متصادمة ومتنافرة مـع الشريعة، فهي متصادمة مع أصـل العقيـدة والإيمـان، فجـوهر العقيـدة في الإسلام عبارة عن التوحيد، وقال الله الأحد: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِـن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾** (الأنبياء – 25).

نعم، فالمعنى الواسع للعبادة والعبودية هو التوحيد الذي يشـكل جـوهر الإسلام ومضمونه، ومعلوم ان الدكتاتورية والتألّه على الناس وفرض الذات عليهم، وممارسة التحليل والتحريم للنـاس، والحكـم المطلـق علـيهم، كـل ذلك يتصادم مباشرة مع التوحيد، أنظروا الى جواب فرعون لموسى (عليـه السلام) عندما يطلب منه إرسال بـني إسـرائيل معـه وعـدم اضـطهادهم: **﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾** (الشعراء– 29).

ثم تأمل قول فرعون لجماهير بلاده: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات–24) ومن الطواغيت الآخرين في التأريخ هو نمرود، فلننظر الى قوله مع إبراهيم (عليه السلام): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (البقرة –258)، وكما ترى، فهذا الطاغية – كسائر إخوانه الطواغيت – يدَّعي الألوهية، وعندما يقول له إبراهيم عليه السلام: أن ربّه يحيي ويميت، يقول نمرود: وأنا أيضاً أحيي وأميت!!

يقال: إنه جاء من السوق برجلين، فقتل أحدهما، ولم يكن له أي ذنب، وأرسل الآخر، فقال: ها أنا أحييت هذا، وقتلت ذاك!

إذاً: فالفراعنة والطواغيت وأضرابهم كانوا عبر التأريخ المتطاول، أعداء ألِدّاء للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لماذا؟

لأن الأنبياء يقولون: كلنا يجب أن نكون عباداً لله، ولكن أولئك يقولون: كلاّ بل يجب أن يكون الناس عبيداً لنا!!

لذلك – وكما أسلفت – ليست هناك من نقطة مشتركة – البتة – بين الإسلام ونظام الحكم الإستبدادي والفردي، بل إن الفارق بينهما شاسع والبون بعيد، الإسلام يقول يجب أن يكون الناس عباد الله فقط، وأن يكون الله هو المعبود الأوحد، أما المستبدون فيقولون: كلا، لابد أن نُعْبَد نحن و نوقر مثل الله تعالى، بل أكثر منه والعياذ بالله!

– فضيلة الأستاذ! أنت تقول، ليست هناك نقطة مشتركة بين الإسلام والإستبداد، لكننا عندما ننظر الى التأريخ الإسلامي – رغم أَنّكم تفضلتم بأن الإسلام ليس مسؤولاً عن إنحراف المنحرفين – نرى كثيراً من المتسمّين بالخلفاء وأمراء المؤمنين، كانت لهم إنحرافات كثيرة، وساروا

ردحاً من الزمان، ومن أولئك (الحجاج) حتى لوصح بعض ما يقال ويحكى عنه، لكان دكتاتوراً!

فيا ترى ماهي الضمانة في الإسلام، كي لايسير نظام الحكم نحو الدكتاتورية؟ الديمقراطية – مثلاً – وضعت لنفسها – الى حدما – بعض الضمانات كوضع الدساتير، والرأي العام، وفصل السلطات، كي لا تظهر الدكتاتورية، فنحن المسلمون ماذا لدينا من تلك الضمانات؟!

+ أقول جواباً على سؤالك هذا: إن الإسلام ليس مسؤولاً الاّ عن المرحلة التي حكم فيها فعلياً، وهي فترة العصر النبّوي وعصور الخلفاء الراشدين، وكذلك المدة القصيرة التي تولّى فيها الخلافة (عمر بن عبدالعزيز) الذي يعتبر خامس الراشدين، وقد ظهر بين آونة وأخرى، حكام آخرون كـ(نورالدين محمود الزنكي) و (عمادالدين) و (صلاح الدين الأيوبي) رحمهم الله، وكذلك مجموعة من السلاطين العثمانيين الصالحين من أهل التقوى والإلتزام بشرع الله تعالى، الإسلام مسؤول فقط عن تلك المراحل التي التزم بمبادئه أولئك الحكام.

– أي إنه مسؤول فقط عن المراحل التي نُفِّذَتْ فيها أحكامه؟!

+ نعم، لأن هؤلاء تَسَنَّموا كرسي الحكم بصورة شرعية، ولكن إذا استولى أحد على الحكم بالقوة، وجلس على كرسي الحكم عنوة، فالإسلام في الواقع ليس مسؤولاً عنه، نعم حكم بإسم الإسلام، ولكن ذلك الشخص بهَّت الإسلام وظَلَمَهُ، وهنا أريد أن أُشير الى شيء: فقد تحدث الفقهاء في كتبهم عن حكم المتغلِّب أو حاكمية المتغلب، وهم منقسمون حول هذا الصنف من الحكام على فئتين، فبعضهم يقول: إن ولايته على المسلمين

جائزة، والبعض الآخر يقول: غير جائزة، وأنا مع هذا الرأي الأخير، ولكن ماذا يقصد القائلون بالجواز؟!

يقولون: جائز اُضطراراً، أي ليس شرعياً، ولكنهم يُشَرْعِنَونه و يُقَحِّمونه على الشرع، لماذا؟! لأنهم يقولون حكم غشوم خير من فتنة تدوم، وقد أجروا هذا القول مجرى القاعدة.

ولكن لاشك أن الرأي الثاني هو الموافق للشرع، والذي يقول: كل من لم يجلس على كرسي الحكم بصورة شرعية، فحكمه غير شرعي، لذلك فالحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما)، ثم زيد بن علي بن حسين بن علي، ثم محمد وإبراهيم ابني عبدالله، ثم عبدالرحمن بن الأشعث وغيرهم كثير، ثاروا في وجه الظالمين من بني أُمية و بني العباس، وقد أيدهم كثير من الأئمة وأفتوا لعملهم، وخصوصاً أبو حنيفة ومالك، وعندما سئلوا كيف تفتون الناس بتأييد محمد وإبراهيم؟!

قالوا في الجواب: إن ولاية أولئك – أي بني أمية و بني العباس– على المسلمين غير شرعية، ولاحق لهم في ذلك، نعم هذا هو الصواب وعليه تظافرت الأدلة، من ذلك قوله تعالى لإبراهيم (عليه سلام): ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ[1] عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ (البقرة–124). أي: من ذريتك أيضاً من سيكون أهلاً لذلك، ولكن الظالمين – يقول تعالى – لا ينالهم شَرَفْ إمامة المسلمين، ثم إن إنتخاب الحاكم وعقد البيعة له، دليل آخر في هذا الصدد، فما معنى البيعة؟ البيعة مأخوذة من (البيع) أي كما أنت تعطي النقود وتأخذ مكانها

[1] - لاينالُ عهدي الظالمين: أي لايصل إليهم، ولايُعطى لهم.
أنظر: المعجم الوسيط: ص964.

البضاعة، كذلك تعطي الطاعة للحاكم، وفي المقابل يحكم الحاكم بالحق و العدل، ثم ما معنى المبايعة؟! أجمع علماء السياسة الشرعية على أن معنى المبايعة هو: معاقدة الحاكم على تنفيذ شريعة الله تعالى والحكم بالعدل، وطاعة الناس له على ذلك، والنبيُّ ﷺ عندما يقول: ((لاطاعة في معصية الله، إنّما الطاعة في المعروف)) رواه البخاري:7257، ومسلم:4742، إذاً: فلاسمع ولاطاعة للمسئولين عند التصادم مع الشرع بل عند ذلك يجب إعانتهم على تركها، والضرب على أيديهم.

– وماذا قالوا عن الضمانات؟!

+ إختصاراً: كل ما هو موجود من الضمانات في الديمقراطية، فإنّها موجودة في الإسلام بصورة أفضل من ذلك، بل وللإسلام على تلك الضمانات إضافات أُخرى أُعدِّد لك بعضها:

1– إن الضمانة الأولى لتنفيذ الحكم الإسلامي، وإعانة الحكام على ألاّ ينحرفوا، هي إنه لا شرعية بدون إنتخاب وبيعة، ولذلك فإنّ علماء الإسلام والمؤرخين يطلقون على خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم لقب: الخلافة الراشدة، ولكن ماذا يطلقون على من جاؤوا بعدهم؟ يسمونهم ملوكاً!

2– الإيمان والعقيدة، العبادة التي يتربّى عليهما المسلمون، حيث يتربون على ألاّ يَحنْوُا رؤوسهم لغيرالله تعالى، وألاّ يرضوا بغير شريعة الله لهم منهجاً، ولا يُلْقوُا بالَهم إلا لغضب الله تعالى، وهذا الإيمان هو الذي يمنع الحاكم والمجتمع من الإنزلاق والإنحراف.

3- ولا يَخْفى أَنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام الحاكم الجائر يعد جهاداً في سبيل الله تعالى، كما وروود في الحديث ((أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)) (رواه أبوداود).

4- و فصل السلطات، اذ حتى في الفترات التي لم تكن الحكومة الإسلامية منبثقة من الشورى، فالسلطات الثلاث أيضاً كانت منفصلة، لأن السلطة التشريعية التي كانت تتمثل في العلماء، سواء المجتهدون منهم والمفتون، و العلماء - بإستثناء بعض البائعين أنفسهم الّذين يُعرَفُون بوعاظ السلاطين، أو من يسميهم الإمام الغزالي بعلماء السوء - كانوا مجسِّدين للدين حقيقة، و لايفتون بما يخالف دينَهم، أو يرضي حاكماً على حساب الدين، ولو بُذلت لهم الدنيا بأسرها، بل منهم من إختار السجن والقتل والتشريد، ثمناً لثباته على ما يرضي الله ورسوله ﷺ ومن أولئك: سعيد بن جبير و حطيط الزيات اللّذين قتلهما الحجّاج الظالم، و الإمام أحمد الذي جُلِدَ بسبب عدم قوله بخلق القرآن، والإمام الشافعي الذي طُرد وشرد، وأبوحنيفة الّذي رفض منصب القضاء، والإمام مالك، وغيرهم كثير يجلّون عن الحصر، كلهم وَقّفوا أنفسهم دفاعاً عن كلام الله وسنة رسوله ﷺ، وبذلوا وسعهم ألاّ يحيدوا عن المنهج قيد شعرة، ودفعوا في سبيل ذلك الأثمان الباهظة والضرائب المؤلمة.

أما من ناحية السلطة القضائية، فكثيراً ما كان الخليفة يُستدعى للمحاكم ليقف أمام القاضي، وقد حصل هذا فعلاً في زمن كلٍّ من الأمويين والعباسيين والعثمانيين، فكان الخليفة او السلطان إذا وقعت له مع أحد الأفراد مشكلة، وقفا أمام القاضي، وكثيراً ما حكم القاضي له على السلطان أو الخليفة.

- هل بإمكاننا القول: إن حاكماً أو خليفة ظالماً، لم يكن يظلم باسم الشريعة، أي لم يكن ظلمه مستنداً الى فتوىً، فمثلاً: لو احتلَّ أرضاً احتلّها ظلماً، وليس وفق فتوى عالم، أو دليل شرعي؟، نرجو التفصيل.

+ نعم، إن أسلوب الحكم الذي كان سائداً في أوربا المعروف بـ(الثيوقراطية)، حيث يمثل الحاكم ظل الله في الأرض، والبابا يكون شريكاً معه في إقتسام المسروقات، والحاكم يكون جامعاً بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية في آن معاً، لم يكن لمثل هذا الحكم وجود في المجتمعات الإسلامية، وذلك لموانع كثيرة، أحدها أنَّ السلطة القضائية في الإسلام لم تخضع يوماً للسلطة التنفيذية، لذلك فإن الظلم كان يمارس من قبل السلطة التنفيذية من غير إستناد الى دليل شرعي أو فتوى شرعية، وكان المسلمون يعلمون أن تلك الممارسات مخالفة للشرع، ولذلك لم ينقطع قيام الثورات في تأريخ الإسلام والمسلمين، والعلماء كانوا يقودون تلك الثورات ويُشْعِلونها، الى الوقت الذي استَيْقَنُوا أنه لا فائدة ترجى من وراء الثورات، بسبب رسوخ الحكم لأولئك الحكام، وقوة جيوشهم الجرارة، وحينئذ كانوا يقولون: أيها الناس! بما أن مفاسد هذه الثورات أكبر من منافعها، فلا نُفتي بالقيام بها، على أن هذا ليس طعناً في مشروعية أصلها.

وفي ختام حديثنا عن الديمقراطية، أقول: نحن الاسلامين لانخشى من الديمقراطية، بل نحن نخشى من الإستبداد، ومن الحكم المتفرد والطاغوتي، والاّ فنحن في غياب الحكم الإسلامي نُرَحِّب بالديمقراطية ولا تساوِرُنا منها المخاوف إن كانت حقيقية، ولكن مشكلتنا هي أن تكون الديمقراطية مُزَيَّفَه، أو مرادفة لسبّ الله ورسوله ﷺ والعياذ بالله، أو محاربة الأخلاق

والقيم الإسلامية، أو أن يكون الناس أحراراً فقط في التهجم على الإسلام والمقدسات!! وألاّ يُفْسَح المجال بعد ذلك لإنتقاد الحكام، في كيفية توزيع الأموال والثروات، وفي المسار السياسي والسياسة الخارجية والداخلية، أن تكون هذه المجالات كلها ممنوعة، ولا تُعْطى الحرية –باسم الديمقراطية– الاّ في سب الله ورسوله والإسلام واتِّهام الإسلاميين ومحاولة النيل منهم و تشويهِ سمعتهم، فهذا هو ما يُقْلِقُنا، و هو ما لا نقبَل به أبداً، وإلاّ فنحن مستعدون للتعامل مع الديمقراطية حتى نهيء – بعون الله تعالى– من خلالها أرضية تكوين مجتمع إسلامي و إنشاء كيان إسلامي، ولكن الذي لا يقبل النقاش، أنّنا لا نرضى بغير الإسلام ديناً و منهجاً، ونسعى جاهدين أن يحكم الإسلام قومنا لأنهم مسلمون، وعندئذٍ سيحوزون خيري الدنيا والآخرة، ويتضّمن الإسلام كلّ الإيجابيات الموجودة في الديمقراطية، والإشتراكية، و غيرهما من المناهج والنظريات، ومعلوم أن الإسلام وجد قبل أن يكون لهذه الأنظمة ذكر ولا خبر، والإسلام لا يحول دون الإستفادة من الناحية الإدارية و الفنّية من أيّ نظام، كما أن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ إستفاد من الناحية الإدارية في عهده، من نظم الحكم في فارس والروم، فأحدث – بغية تطوير نظام الحكم – ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الزكاة، و مَصَّرَ الأمْصار، وكذلك أنشأ البريد، وبنى السجون، وأخذ أشياء أخرى من ذينك النظامين، كل ذلك دون أن يُغيِّر إسم نظام الحكم فيقول: دولتنا تحولت الى نظامٍ فارسي أو رومي في أمورها!! بل بقيت الدولة إسلامية، رغم الإستفادة من تلك الدول في الجوانب الفنّية والإدارية، التي لا تَتَصادَمُ مع الشريعة، وذلك لأنّها على أساس الإلتزام بالشريعة، إستخدم تلك

الأساليب، و استفاد من تلك الوسائل على الوجه الأمثل من أجل الســير قدماً بالدولة الإسلامية الى الإزدهار.

+ جزى الله أستاذنا كل خيــر.

- وجزاكم ووفقكم لما يحِبهُ ويرضاهُ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته